رشا عدلي
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
أنتَ تُشرق..
أنتَ تُضيء
رواية
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أنت تشرق ...

أنت تضيء

بعض الحقائق العلمية المذكورة في الرواية عن لوحات وجوه الفيوم هي نتائج أبحاث شارك فيها جمعٌ من الخبراء والباحثين والأكاديميين من معاهد وجامعات ومؤسسات متعددة حول العالم على مدى سنوات طويلة

رشا عدلي

أنت تشرق...
أنت تضيء

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2022 م - 1443 هـ

ردمك 9786140268487

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جميع الحقوق محفوظة

التوزيع في المملكة العربية السعودية
دار إقـــراء للـــنـــشـــر

إصدار
الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح
مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

لوحة الغلاف: لوحة من لوحات وجوه الفيوم

إهداء

إلى كل الوجوه رمزًا لتلك الأرواح
التي تناضل من أجل أوطانها

رغم أن أحداث هذه القصة خيالية إلا أن هؤلاء الناس

كانوا موجودين

(وجوه الفيوم أنها تملك الحياة الأبدية والموت الخالد معًا)

أندريه مالرو

وهي تقف تحت الماء الساخن الذي يتدفق من الدش باندفاع قوي مغلقًا الحمام ببخار كثيف تتعذر معه رؤية أي شيء، كان سؤال يسطع في رأسها: "ما الذي تركضين من أجل اللحاق به؟" هناك دائمًا حلم واحد للفتيات يركضن من أجل تحقيقه مهما تبدلت الأحوال وتغير الزمن. حلم الفتيات هو الحب، والزواج، والأمومة؛ تمامًا كالعبوات المجمعة الجاهزة التي يطلق عليها ثلاثة في واحد. إنها عبوة واحدة مكتملة تقدمها "فاترينة" الأحلام للنساء، مع الفارق طبعًا؛ فهن لن يستطعن دفع المال لشرائه لأنه حلم. وكما هي الأحلام، يجب أن نعمل بجد لتحقيقها. ولكنها لا تملك أي دافع لتحقيق هذا الحلم لأنه ببساطة لم يكن حلمها. كانت تملك أحلامًا أخرى تحقيقها يحتاج إلى جد أكبر وجهد أكثر.

لم تكن أحلامها فقط هي المختلفة عن الفتيات في عمرها، بل مظهرها أيضًا: شعرها الذي يصل إلى كتفيها مموج في خصلات متشابكة بألوان متدرجة من البني إلى الأشقر الغامق وصولًا إلى الأشقر الفاتح، وملامحها التي لا تستطيع من خلالها الاستدلال على هويتها، وبشرتها الذهبية، وعيناها الكستنائيتان، وهيئتها التي تحرص أن تكون دائمًا أنيقة وعصرية ومختلفة. كانت تختار ملابسها بموديلات وألوان مبتكرة. فتستوقفك عندما تراها كلوحة سيريالية لافتة للنظر وعصية على التفسير.

لم يكن خارجها إلا تعبيرًا عن داخلها؛ عن شخصيتها المعقدة التي يصعب تفسيرها أو التعامل معها. لذلك كل من يقترب منها يدير رأسه للناحية الأخرى مبتعدًا، ولم يضايقها ذلك قط، إذ كانت تلتمس لهم العذر، لهذا السبب علاقاتها الاجتماعية تكاد تكون منعدمة؛ بالرغم من المركز الذي تعمل به والذي يجعلها تحظى بوضع اجتماعي وثقافي مرموق بالإضافة إلى أنه يتيح لها التعرف على الكثير من الناس من مختلف الأعمار والثقافات والتوجهات. ولكن السمة الغالبة لهؤلاء أنهم من أرقى طبقات المجتمع. ولم يكن يعنيها شيء، لم يكن يعنيها أحد.

تكاثرت وتضارب التكهنات عنها، وتعددت الصفات التي أطلقوها عليها: "غامضة، غريبة الأطوار، مغرورة، معقدة، متوحدة". قليلون فقط الذين خمّنوا أنه من المؤكد أن هناك سرًا وراءها. دعونا نغوص في ماضي هذه المرأة، في حاضرها وفي مستقبلها، لنعرف لماذا وصل بها الأمر إلى هذا الحد، وهل ما عاشته حقًا كان دافعًا وراء ذلك؟ والأهم من كونه دافعًا وراء ذلك، هل هو مبرر

لذلك؟ دعونا نذهب لنعرف تحديدًا ما هو الـ "ذلك". ولكن، علينا جميعًا أن نتأكد أننا لن نتمكن من الإفلات من ماضينا بسهولة دائمًا. الأمر ليس كما لو أننا نبحث عن ماضي أحد، بل أننا نبحث في حقيقة ذواتنا نحن؛ هذه الحقيقة التي لا يعرضونها على شاشات التلفزيون أو على وسائل التواصل. ربما أهم ما في الغوص في حياة هذه المرأة أنه سيتيح لنا الغوص في حيوات أخرى وعوالم بعيدة، ومعرفة أحداث غريبة، غريبة للحد أن نتساءل هل يمكن أن تكون قد حدثت حقًا!

يا رفاق، أنا هنا لإظهار كيف تبدو الأحداث ممتعة بسردها على الورق.

1

إيطاليا ميناء نابولي 1990

عندما ركبت عائلتها البحر في ذلك اليوم الغائم البعيد، كان المركب الذي سوف يصل بهم إلى شاطئ النجاة يفوق قدرته الاستيعابية بمرة ونصف. كانت الرياح تذهب وتجيء بهذا المركب المتهالك؛ كما لو أنها تراقصه "التاشا تاشا" أو "الرومبا".

عمرها يتعدى العام بشهور قليلة عندما وصلوا إلى بر النجاة. ولكن، هل كان حقًا بر نجاة؟!

بمجرد وصول المركب، ألقت الشرطة البحرية القبض على الركاب، ووضعوهم قيد الاعتقال في معتقل للمتسللين عبر الحدود. تمّ زجهم في زنزانة كبيرة أشبه بصالة واسعة. بعدها بساعات، دخل المحقق. اقترب منه شخص يدعى مصطفى عبد المولى. كان طويلًا، نحيفًا، أسمر البشرة، مجعد الشّعر، متسق الملامح. وقدم للمحقق خطابًا بطلب اللجوء؛ مستعرضًا فيه أسبابه المتعددة التي يرى من وجهة نظره أنها يجب أن تكون جوازًا لمروره إلى البلاد. من أهمها أنه يتعرض في بلده لمحاولات اغتيال، وذلك مع الأسف على مسمع ومرأى من الشرطة نفسها. وتعمد أن يكتب في نهاية الطلب بعض كلمات منمقة، ومرتبة، تفيد بأنه اختار إيطاليا للجوء لما تتمتع به من عدل ومساواة وحرص على الكرامة الإنسانية.

بعد أن أنهى الضابط التحقيق معهم تركهم وذهب دون التفوه بأي كلمة. مرت أيام كثيرة بعد خروجه من الصالة ظهر ذلك اليوم. مرت ثقيلة وكأن الزمن يتمدد إلى ما لا نهاية. وبسبب التمدد اللانهائي أصبحوا لا يدرون في أي يوم هم! في البداية، كان هذا الأمر يشغلهم، وبسبب ذلك كانوا حريصين على تسجيل التاريخ، ومع مرور الأيام لم يعد يعنيهم.

وفي صباح أحد الأيام، اصطحبهم شخص في سيارته إلى هيئة شؤون اللاجئين، بعد أن وصل إلى إدارة التحقيقات خطاب يطلب الاجتماع معهم. كان مصطفى عبد المولى وزوجته ينظران

إلى العالم عبر نوافذ السيارة بتعجب، وكأنهما يشاهدان للمرة الأولى بشرًا، شوارع، سيارات؛ يشاهدان حياة. وجودهم في المعتقل لعدة أسابيع متتالية لا يعرفون خلالها ما إذا كان الوقت صباحًا أو مساء جعلهم كما لو أنّهم في عالم موازٍ لا يمت لعالمهم بصلة.

أمام طاولة يجلس إليها رجل وامرأة، وموضوع عليها دفتر وأوراق جلس عبد المولى وزوجته وابنته. راح الموظف ينظر إلى الأوراق ثم يرفع رأسه محدقا فيهم كما لو أنه يتأكد مما هو مكتوب عنهم، ويقيسه بمظهرهم. تكرر الأمر عدة مرات، دون رسم أي تعبير على وجهه يستطيع به عبد المولى وزوجته التكهن بما يدور في رأسه.

دقائق مرت كما لو أنها دهر. بعدها، نطق بصوت عميق "تهانينا، سيطلق سراحكم من الحجز اليوم إن حالفكم الحظ".

كرر عبد المولى وراءه: "اليوم". قالها بنبرة غريبة، ربما كان هو أيضًا يسمعها للمرة الأولى، نبرة محملة بفرح غامر، يأس عامر، قلق، ارتباك، خوف، شك، تخوف، رهبة... نبرة نابعة من عمق الروح.

لم يفهم الموظف ما الذي يقصده هذا الرجل الجالس أمامه، مرتديًا ملابس غير متسقة الألوان، وبملامح لا تستطيع الاستدلال منها إن كانت أفريقية أو شرق أوسطية. لم يفهم ما الذي يعينه بـ "اليوم".

لم يفهم أن مصطفى عبد المولى كان يكررها، لأنه منذ وقت طويل لم تعد هناك أيام، لم تعد هناك آمال، لم تكن هناك وعود، لم تكن هناك مواعيد...

ودون النظر إلى زوجته مد يده وأمسك يدها. شد كل منهما يده على يد الآخر.

- إطلاق سراحكم سيكون بكفالة مستر ومسز عبد المولى، وذلك بوصفكم طالبي لجوء.

نطق مستر ومسز عبد المولى بصوت واحد:

- كفالة!

- نعم. أنتم لستم مواطنين. وإذا فعلتم أي شيء ضد أعراف المجتمع، وضد ما تمليه عليكم شروط وثيقة لاجئ وأحكامها فسوف نرسلكم إلى المكان الذي جئتم منه.

وبنبرة عنيفة بعدها تابع:

- هل فهمتما؟

هزا رأسيهما بمعنى "نعم"، ولكنهما لا، لم يفهما، لم يفهما أي شيء، لم يفهما ما الذي تعنيه شروط وأحكام أن تكون لاجئًا.

- أكرر عليكما مرة أخرى، حتى ذلك الحين ستخضعون لشروط محددة؛ إن فشلتم في الالتزام ولو بشرط منها فستعادون إلى السجن وسنعتبركم غير مؤهلين، ونرسلكم إلى حيث جئتم.

"سنرسلكم إلى حيث جئتم"، تهديد ووعيد كافيان ليرجف قلباهما.

- مفهوم؟

بشفتين رفيعتين بيضاوين مرتعشتين ردت: "نعم". بينما كانت تهز رأسها بقوة لا تنسجم مع الصوت المتردد الخفيض الذي أجابت به. بدت هرمة وهي لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها. ردد مستر عبد المولى بثقة: "كل شيء مفهوم سيدي".

كان مستعدا للخضوع لأي شرط، حتى لا يعود مرة أخرى إلى الجحيم.

بعد بلع الموظف ريقه بجرعة ماء تابع:

- حسنًا، إليكما الشروط:

1 - سنراقبكم طوال الوقت، وعليكما تقديم تقرير أسبوعيًا. ويجب ألا تفوتا أي تقرير.

- قولا نعم إن كنتما تفهمان رجاء.

- نعم... نعم.

قالاها بصوت واحد؛ صوت مبحوح، وضعيف، ومنهك.

2 - ستحصلان على دعم مادي أسبوعي يساوي 80 بيزة بالمجمل، ولن يسمح لكما بالعمل أو الحصول على أي أجر إضافي من أي مكان أو كائن كان.

- قولا نعم إن كنتما تفهمان رجاء.

نظرت مسز عبد المولى إلى زوجها نظرة يملأها الشك والريبة؛ هل يمكن أن يعيشوا بمبلغ 80 بيزة فقط. فأجاب مستر عبد المولى الرجل، وفي حقيقة الأمر كان يجيب عن نظرة الشك في عين زوجته مؤكدًا لها:

- سنفعل كل ما تقولونه لنا؛ فنحن مواطنان صالحان.

وكأن الرجل لم يسمع منه شيئًا:

- قولا نعم إن كنتما تفهمان رجاء.

لم يكن هناك متسع لأي كلمات. لم يكن مسموحًا بأي كلمات. لم تكن سوى: "نعم، سمعًا وطاعة".

- نعم... نعم.

3- الشرط الأخير. سترسلان إلى محل إقامة نختاره لكما، ويجب أن تقيما في ذلك العنوان، يجب ألا تنتقلا منه أبدًا. قولا نعم إن فهمتما.

- نعم... نعم... نعم.

أخذ عبد المولى يتمتم بها وهو يهز رأسه بقوة كدرويش مخبول.

وهو يغلق دفتره رمقه الرجل بنظرة ظلت تجوب ذاكرته طيلة سنوات عمره.

- ليس أنت من عليه إقناعنا بما إن كنتما صالحين أم لا مستر عبد المولى. سوف نتأكد من ذلك بأنفسنا.

في السيارة، جلس موظف مختص بحالتهم بجوار السائق. وعلى المقعد الخلفي، جلس الزوج تفصله عن زوجته حقيبة صغيرة وضعا فيها متاع عمرهما. بينما كانت الزوجة تضم ابنتها إليها.

كانت رحلة طويلة إلى إحدى قرى الشرق الإيطالي، قرية نائية على الحدود. ربّما لم يسمع بها أحد مسبقًا، ومن المؤكد أنه ليس لها مكان على الخارطة.

توقفت السيارة أمام أحد البيوت. كان ذا حديقة خربة يحدها سور من الخشب الأبيض تقشر طلاؤه. فتح الموظف باب الحديقة، فسُمع صرير قوي، صرير الاحتفاء بهم، صرير مفزع ينبئ عمّا ينتظرهم هناك.

أربع درجات قادتهم إلى الباب الذي فتح على رائحة غريبة لا يمكن تمييزها. ولكنها رائحة غير مستحبّة، ربما هي العفونة من أثر الرطوبة.

غرفتان وصالة صغيرة ومطبخ وحمام. مشيا وراء الرجل من غرفة إلى أخرى، ومن مكان إلى مكان وهو يتحدث بلهجة آمرة.

- إليكما بعض القواعد الأساسية: لا شموع، لا تدخين، لا حيوانات، لا دعوات، لا أصدقاء، لا حفلات. كما تمنع ألعاب الكرة، ولا تستخدم الحديقة لأي أغراض أخرى.

2

قرية بورميدا 1990

لا شيء إذًا سوى الصمت في هذه القرية التي تبدو بعيدة ومهجورة. منزل من غرفتين وصالة بأثاث مخلّع تمّت إعادة تدويره مرة بعد مرة بعد مرة. تمسك مقبض النافذة لتفتحها فينكسر في يدك، تجلس على الكرسي فتنخلع ساقه. السرير يهتز بقوة كلما تقلب أحد عليه، والأجهزة الكهربائية معظمها لا يعمل، والذي يعمل منها تصدر منه فرقعات وشرر ماسيّ.

عبد المولى الرجل النشيط، موفور الهمة والعنفوان الذي فرضت عليه إدارة اللاجئين ألّا يعمل حتى تأذن له هي بذلك بعد شهر، بعد شهرين، بعد عام وجد في خراب المنزل ضالّته. شمّر عن ساعديه، وبدأ في تصليح كل شيء معطوب. عمل نجارًا وسباكًا وكهربائيًا وعامل دهان.

ولم ينسَ أيضًا أنه كان صحفيًا يكتب في جريدة مهمة. وكان له عمود يومي يهرع القراء صباحًا لشراء الجريدة لقراءته، ويهزون رؤوسهم إعجابًا بجرأة أفكاره. ففي الوقت الذي تحاول فيه السلطة تكميم الأفواه، تغطية الأعين، وصم الآذان. كان هو يتحدث ويكتب محاولًا أن يفتح أعينهم على ما يحدث لهم. نعم، لم ينسَ أنه كان صحفيًا. كيف ينسى السبب الذي كان وراء أن يطلب رأسه حيًا أو ميتًا ويعيش هاربًا متخفيًا كمجرم عتيد؟!

لم ينسَ أنه كان صحفيًا لم ترضَ السلطة عن مقالاته التي اعتبرتها مقالات محرضة، تثير الرأي العام، وتؤدي إلى نقمة الشعب على حاكمه وسلطته وحكومته. لذلك، استغنت الجريدة عنه، واضطر أن يعمل في جرائد أقل أهمية مواصلًا كشف رجال السياسة والأعمال الجشعين والفاسدين.

لم ينسَ أنه هرب ليلًا هو وعائلته في مركب يحمل ضعف حمولته مُعرّضًا حياته وحياتهم للخطر. وعلى شدة خطورته أهون من خطر المكوث في بلده مهددًا بقصف عمره.

لم ينسَ أنه صحفي، والكتابة هوايته، ويعلم تمامًا متى ينقط الحروف بالتوابل الحارقة لتمنح الكلمات المعنى الخاص. لذلك، وجد في شرط التزامه بكتابة تقرير أسبوعي عن حياتهم مبتغاه. فصار ينكب على الورق يوم السبت من كل أسبوع ليكتب، ليشرح، ليقول.

لم تكن كتابات عادية، مختصرة، موجزة. بل كانت طويلة، دقيقة، مفصلة. كان يكتب كم عدد المرات التي طرق أحدهم فيها الباب، وكم مرة بكت ابنته، وما الوجبات التي طبختها زوجته. كان يحكي عن الطقس، عن الجار المتلصص، عن تبدل مزاجه، عن الذبابة اللحوحة. ثم يلصق طابع البريد على الظرف، ويقوم بإرساله لإدارة شؤون اللاجئين؛ قسم المعيشة.

في أحد الأيام، تلقّى خطابًا من الإدارة جاء فيه أنهم يطلبون رؤيته فورًا. بريق أمل أضاء روحه المظلمة؛ هل سيسمحون لهما بالعمل؟ هل قاموا بزيادة المعونة؟ هل سيمنحوهم بطاقة تفيد أنهم مواطنون؟

الكثير من الأمل تبدد سريعًا عندما تعرض للتوبيخ من الموظف: "ما خطبك يا رجل؟ هل جننت مثلًا؟! ما أمر هذه الأوراق التي ترسلها إلينا وتقص فيها علينا قصة حياتك؟! من أخبرك أن كمية الملح الزائدة التي وضعتها زوجتك في الطعام ستهمنا، وأن تقلب مزاجك يعنينا؟! أنت في حد ذاتك لا تمثل بالنسبة لنا أي فرق. إذا أرسلت لنا خطابات من هذا النوع مرة أخرى فسنقوم بترحيلك فورًا إلى بلدك. كل ما نريد معرفته منك تستطيع أن توجزه في عدة أسطر فقط. سنعتبر ذلك تضليلًا لإدارة المعيشة بإخفائك الحقيقة في المزيد من سرد التفاصيل".

ثم بعنف خبط على المكتب: "هل تفهم؟"

- نعم.

أجابه بصوت خفيض، صوت يكاد لا يسمع، صوت مهزوم.

لملم بعضه وخرج بعبارة واحدة ترن في أذنه: "أنت نفسك لا تمثل بالنسبة لنا أي فرق. نكرة، خيال ظل، لا وجود لك". صحيح أن الرجل لم يلفظ هذه الكلمات، ولكنها كانت امتدادًا لكلماته.

كانت نظرات زوجته، وتأففها، وعدم رضاها، ويأسها، تضربه في مقتل. فمنذ أن بدأ في كتابة تلك المقالات التي تسخر من السلطة ومن قرارتها ومن رئيسها حاولت أن تمنعه، ألحت عليه،

ترجّته.

عند الجيران، عند أهلها، في السوق، في صالون تصفيف الشعر، الجميع كانوا يحذّرونها بأن مصيرهم سيكون أسود. ولكنها لم تفهم كيف كانت تعجبهم صراحته وجرأة قلمه ويشجعونه على الاستمرار في كشف الحقيقة، في الوقت الذي كانوا فيه يعلمون أن مصيره سيكون أسود!

ماذا يمكننا أن نسمي هذا؟! فدائية وتضحية في سبيل مجموعة من الجبناء. كانت تصيح فيه: ستدمرنا، كلامك لن يفضي إلى شيء، ولن يبدل شيئًا، ولن يغير شيئًا، بل سيقودنا للهلاك. واليوم، لم تعد تتحدث، لقد فات أوان أي شيء، فات أوان اللوم والتأنيب والعتاب. ما حدث قد حدث، وها هم يدفعون ثمن رعونته. كان يفعل ذلك ليعيش ويحيا في حرية ومساواة وعدالة، وها هو يعيش في بلاد بعيدة مقيدًا من فعل أي شيء. "أن تعيش جبانًا في بلدك خير من أن تحيا أرنبًا لا يستطيع أن يغادر جحره في بلدان أخرى".

بمرور الأيام، الأمور كانت تتغير ببطء ولكنها تتغير. لم يعد التقرير أسبوعيًا، بل أصبح كل شهر، ثم كل شهرين، ثم كل ثلاثة أشهر. وزادت قيمة الإعانة زيادة بسيطة جدًا لم تكن تفي بأي شيء، وكان عليهم تدبر أمورهم في ظل هذه الظروف السيئة التي ساءت أكثر عندما التحقت رنيم بالمدرسة.

جميع طلبات الالتماس للسماح له بالعمل خلال السنوات الماضية كانت تأتي بالرفض. وأخيرًا عندما ذكر في طلبه أن ابنته التحقت بالمدرسة، وأن المعونة لا تكفي، وأنه يريد أن يعمل ليوفر لعائلته الطعام تمت الموافقة.

التحق بالعمل في مصنع لصناعة النبيذ بالقرية. وكان عليه رصد وتسجيل الداخل والخارج من القوارير المحفوظة بمخزن في القبو.

كما عملت زوجته في صالون تصفيف الشعر الوحيد في القرية. فكانت تذهب إلى هناك في السابعة من صباح كل يوم لتقوم بتنظيف الصالون، وترتيب الأدوات، ورص المناشف النظيفة، وجمع المتسخة. وعند مجيء الزبونات، كانت تغسل شعرهن. شعر من مختلف الأنواع والألوان لنساء من مختلف الأعمار. في البداية، لم تكن تفهم لغتهن بحكم عدم إتقانها اللغة. وكان الأمر جيدًا

لأنها لم تفهم أنهنّ أحيانًا يشتمنها، عندما تقوم بسكب الماء على قفاهن ويبلل ملابسهن، أو عندما تشد شعرهن أثناء فك جدائلهن الطويلة.

كانت تحاول بشتى الطرق إرضائهن لتجنب توبيخات السيدة مادلين صاحبة الصالون، والتي قامت بطردها أكثر من مرة، وبعد كل مرة ترسل في طلبها مجددًا لأنها لم تجد عاملة مثلها؛ عاملة منضبطة في المواعيد، لا تطلب منها سلفة قبل انتهاء الشهر، وتتحمل مزاج زبوناتها المتقلب، والأهم من ذلك كله أنها لم تكن تفتح فمها بكلمة.

الأموال القليلة التي كان الأب يحصل عليها، بالإضافة إلى ما تجنيه الأم، مضافة إليها قيمة المعونة لم تكن تلبي احتياجاتهم الأساسية، فكان عليهم الاستغناء عن الكثير من الأشياء. وفي سن مبكرة جدًا، فهمت رنيم كيف يمكن للمرء أن يكون محرومًا؛ محرومًا من كل شيء ومن أبسط شيء: من الملابس الجديدة، من الحلوى، من الدمى التي تراها مرصوصة في "فاترينات" المحلات...

طلبت من أمها بإلحاح أن تشتري لها دمية شقراء الشعر زرقاء العينين، عند الضغط على بطنها تبكي مرة وتضحك مرة، فصنعت لها واحدة كستها من ملابس قديمة، وحشتها بشعر الزبونات المقصوص. صنعت لها عينين من الأزرار الزرقاء، وجديلتين من شعر أشقر. ولكنها لم تشبه تلك الدمية في "فاترينة" متجر ألعاب الأطفال. في البداية، لم تسعد بها كثيرًا، ولكن مع الوقت لم تعد تستغني عنها، وصارت تحملها معها أينما ذهبت، وفي المساء تحتضنها وتحكي لها "الحودايت".

وهكذا، تعوّدت على فكرة إعادة التدوير؛ هذه الصنعة التي أتقنها والداها لسد احتياجاتهم، كل شيء أيًا كان يمكن إعادة تدويره: الملابس القديمة، الأحذية، الحقائب، الأثاث، قنانيّ النبيذ الفارغة، شعر نسوة المدينة.

كان حلمهم الحصول على الجنسية التي يشترط للحصول عليها الكثير من الأشياء، منها على سبيل المثال تنفيذ قائمة الشروط والواجبات التي أملتها عليهم إدارة اللاجئين دون خرقها أبدًا، وقد عملوا على ذلك بمنتهى الدقة. وبالرغم من ذلك، كانت السنوات تمر، ولم تستبدل بطاقة "لاجئ" التي يخبئونها في الجيب الأخير من المحفظة كالعاهة التي نريد أن نبعد أنظار الجميع عنها.

ولكن بفضل هذه البطاقة كانوا يعفون رنيم في المدرسة من دفع مصاريف الدراسة، ويسمح لها بالاشتراك في الأنشطة الرياضية والحفلات ودروس مجموعات التقوية مجانًا. ولكن في المقابل، كانوا يلقبونها باللاجئة "البنت اللاجئة، التلميذة اللاجئة، الطالبة اللاجئة". في المرحلة الابتدائية، لم يفهم زملاؤها ما الذي يعنيه هذا اللقب الذي تناديها به سكرتيرة المدرسة عندما تطرق الباب: "التلميذة اللاجئة فلتتفضل بالمجيء". هي أيضًا في المرة الأولى لم تنتبه إلى أنها المقصودة، فكانت تنظر حولها مثل باقي التلاميذ، وتبحث عن تلك اللاجئة. تنتظر السكرتيرة أن يتقدم أحد، ثم تقوم بالنظر إلى دفترها وتذيع اسمها: "رنيم مصطفى عبد المولى". بخطوات مرتبكة تذهب إليها، فتمد لها صندوقًا: "إنه لك، به أدوات مدرسية. لست في حاجة إلى شراء أقلام ودفاتر". فتتعالى أصوات التلاميذ: "لماذا هي؟ أين صندوقنا؟ نحن أيضًا نريد صندوقًا؟!"

صاحت فيهم المدرِّسة: "هي لاجئة فقيرة، لا وطن لديها، لا تملك مالًا". خرجت الكلمات من فمها كرصاصات تستهدف قلبها مباشرة. هذه المعلمة لم تجد في قاموس اللغة سوى هذه الكلمات القاسية لتخرس بها صياح التلاميذ. لم تعلم أن الكلمات التي نطقتها في أقل من ثانية سيبقى صداها المميت إلى الأبد.

مع الوقت، ظلت التساؤلات بداخلها تزيد. تعلم أن الفقر والغنى أمران ليست لنا يد فيهما. ولكن، لماذا لا بلد لها؟ ذهبت يومها إلى أبيها الذي كان يجلس إلى طاولة في إحدى الزوايا، متخذًا منها مكتبًا له. ذهبت بجديلتين طويلتين وبخف على شكل هرة صنعته أمها لها من كنزة صوفية قديمة وحشته بالكثير من الشعر. "أبي، قالت المعلمة إنه ليس لدي وطن. لماذا ليس لدينا وطن؟" هو الفصيح الذي يسيل الكلام من فمه كسيول عارمة عُقِد لسانه وخرس. بماذا كان عليه أن يجيبها؟ تمتم داخل نفسه. بل لدينا بلد، بلد جميل، ولكنني كنت أعتقد أنني فارس مغوار، فاتخذت من كلماتي نصل سيف حادًا وقاطعًا لأفصل به رأس الظلم عن جسده، وكادت رأسي هي التي تفصل.

- لا تصدقيها. نحن لدينا وطن. عندما تكبرين ستذهبين حتمًا إلى هناك.

- ما اسمه؟

- مصر، أم الدنيا.

سحبها من يدها، وذهب بها إلى مجسم الكرة الأرضية الموضوع على طاولة جانبية في ركن من أركان الصالة. أشار بإصبعه إلى موقعها في الخريطة قائلًا: "ها هي مصر".

- ولماذا لا نذهب للعيش هناك؟

ربت على رأسها دون أن يجيب.

هكذا مرت بها سنوات الطفولة في فقر مدقع، ووصم باللاجئة، وأب أنهكه الزمن، وأم تجمع شعر زبونات الصالون.

3

غدت آنسة، فبرز نهداها واستدار ردفاها. كانت تبدو مختلفة عن سائر الفتيات في المدرسة. فبالرغم من أن الكثيرات كن يفقنها جمالًا، ولكن كان بها ما يميزها عنهن؛ شيء خاص، وساحر وغامض. فلها لون الصحراء، وعينا ظبي سارح فيها. تتحدث الإيطالية بلكنة غريبة ومثيرة ومميزة. فهي ذات اللسان العربي التي تنطق الغين وتنون الألف، وتتكئ على مخارج حروف كما علمها أبوها الذي كان مخلصًا للغته العربية بشدة، فكان يمنع في البيت الحديث بلغة أخرى.

عندما انتقلت إلى المرحلة الإعدادية، علمت أن التلاميذ المعفيين من المصاريف ليسوا وحدهم اللاجئين، فالمتفوقون أيضًا يتم إعفاؤهم من دفع المصاريف. إذًا، وجدت سببًا آخر يمنح الإعفاء؛ سببًا مختلفًا تمامًا سيجعلها أكثر تميزًا، وسيزيح عنها ما وُصمت به، ويمحو هذه الكلمة التي كرهتها منذ أن صرخت بها المدرِّسة في وجه التلاميذ ليكفوا عن التذمر؛ وكأنها تريد أن تبرر لهم أن سبب حصولها على الدفاتر والأقلام هو أنها أقل منهم جميعًا.

وجدت أن خلاصها سيكون في تفوقها، ولذلك تشبثت به. اجتهدت كثيرًا، وانكبت على كتبها، على دروسها، على واجباتها، فتفوقت وحصلت على الدرجات النهائية في جميع المواد. وفي العام الذي يليه، أعفيت من دفع المصاريف؛ ليس لأنها لاجئة، ولكن لأنها متفوقة.

حرصت بعدها على الحفاظ على تفوقها؛ ليس حبًا بالعلم ولا بتحصيله، ولكن لتحظى بكرامة تسترد معها عافيتها الروحية المهانة. هي التي يطلق عليها "التلميذة المتفوقة" من سيهمه أمر ما إذا كانت لاجئة بعدها.

حصلت على الشهادة الثانوية بتقدير ممتاز كعادتها، وأتاح لها هذا التفوق الحصول على منحة مجانية لمواصلة تعليمها الجامعي في أكاديمية فلورنسا للفنون الجميلة؛ منحة شاملة تكفل لها

إقامة، بالإضافة إلى مصروف شهري طوال السنوات الأربعة؛ شرط المنحة الوحيد هو الحصول على تقدير جيد جدًا طوال سنوات الدراسة. وفي حال انخفض التقدير فستنخفض المنحة. ووقتها سيكون عليها دفع نسبة من المصاريف.

لم تغادر تلك القرية النائية طيلة حياتها، إلا مرات قليلة ذهبت فيها مع أبيها إلى مفوضية شؤون اللاجئين في زيارته السنوية إلى هناك لتقديم إخطار عن وجوده هو وعائلته في إيطاليا. كانت روما بالنسبة لها مدينة الدهشة، مدينة الأحلام البعيدة. سكانها يختلفون كثيرًا عن سكان مدينتها، وكذلك شوارعها، وبيوتها، ونساؤها، ورجالها، وأطفالها، وحتى كلابها وقططها... كل شيء في روما كان أنيقًا، منظمًا، مرتبًا كحلم ليلة صيف. وكالأحلام كانت زيارتهما إلى تلك المدينة خاطفة ولا يمكن تكرارها بسهولة.

بعد الذهاب إلى المفوّضية يجلسان في منتزه عام يقع أمام المبنى مباشرة. فيشرب أبوها القهوة وهي الكولا، ويتطلعان حولهما في فضول كأنهما قادمان من عالم آخر، عالم ما وراء الحياة. هذه روما. وماذا عن فلورنسا التي عندما يأتون على سيرتها في بلدتها تتسع العيون دهشة؟ إنها مدينة الفنون، مدينة الأحلام، مدينة المشاهير والنجوم والأثرياء.

كانت سعيدة بتفوّقها وتميزها؛ فبسببهما حصلت على منحة لدراسة الفن في أهم وأشهر أكاديمياته. كان ذلك حلمًا بعيد المنال، ولكنه تحقق الآن. ولكن، كان هناك شيء يعكر صفو هذا الحلم. هل كان يعكر صفو هذا الحلم فقط أم أنه يعكر صفو جميع الأحلام؟ إنه "الفقر" الذي تعيش فيه. الفقر كان طاغيًا، ثقيلًا، يجثم على روحها. كيف ستذهب للدراسة في هذه الأكاديمية التي لا يلتحق بها إلا أولاد صفوة مجتمعات العالم؟ كيف ستدرس معهم وتنخرط بينهم؟ كيف يمكن أن يتقبّلوها وسطهم ومظهرها وحده يكشف فقرها المدقع؟

كيف يمكن أن تذهب إلى هناك بالملابس التي تخيطها أمها لها من ملابس أخرى قديمة، فتبدو فيها قبيحة ومنفرة؟ هذا المعطف الصوفي الرث الذي لم تخلعه منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها، معطف زيتي كلح لونه اشتراه أبوها لها من تاجر ملابس مستعملة. أما أحذيتها فحدث ولا حرج؛ إذ تبدو من جلدها المتشقق المتفسخ المتقشر وكأن كلبًا جائعًا وضعها في فمه ثم بصقها. كيف يمكنها أن تذهب إلى هناك بهذا المنظر؟! كيف يمكن أن تذهب إلى أي مكان؟! في هذه

القرية النائية، انشغل السكان عن فقر مظهرها بتفوقها وجمالها، ولكن هناك من الذي سيعنيه إن كانت متفوقة أو جميلة؟

حاولت صديقتها في الحي أن تنبهها بطريقة لائقة أن تحرص على أن تبدو أنيقة عند الذهاب إلى هناك. أخبرتها أنه يجب عليها أن تشتري ملابس جديدة.

"جديدة" هذه الكلمة غير موجودة في قاموس حياتهم. هذه الكلمة تحمل البهاء والرونق والزهاء. وحياتهم كانت مغلفة بطبقة ثقيلة من غبار القديم ومن تمزقه، وبهتانه.

فكرت في أن تعتذر عن المنحة وتحاول أن تلتحق بمعهد أو كلية من تلك التي يلتحق بها عامة الناس. ليس هناك داعٍ إطلاقًا لتلك الأكاديميات ذات الأسماء الرنانة. ولكنّ كل ما فعلته خلال السنوات الطويلة الماضية لتبعد عنها هذه الوصمة سيذهب هباء، وستجدها وقد لصقت بها مجددًا. لقد حرصت طوال السنوات الماضية على أن تكون ناجحة ومميزة وذاقت طعم ذلك. ذاقت طعم النّجاح والتميّز، ومن الغباء أن تجعل كل ما فعلته يضيع منها. قاومت الظروف لتنجح. جلست للمذاكرة في ليالي الشتاء الباردة، تصطك أسنانها، وترتجف عظامها. لم يكن هناك مال لشراء وقود للتدفئة، وعوضًا عن أن تتدثر بالأغطية الثقيلة وتغط في نوم عميق، جلست في درجة حرارة أقل من الصفر بكثير لتستذكر دروسها.

لمحت أمها قلقها وارتباكها فسألتها: "ما بك؟" كانت واحدة من المرات القليلة، القليلة جدًا التي تلاحظها فيها أمها. إذ كان عملها في صالون مادلين لتصفيف الشعر يستهلك وقتها، وكانت مدام مادلين وزبوناتها يستنزفن طاقتها فتصل إلى البيت متعبة منهكة. وهذا الإجهاد ترك ظلاله على هيئتها؛ فازدادت نحافتها، وشحبت بشرتها، وذبلت عيناها. كانت الطاقة القليلة الباقية فيها تقوم باستغلالها بأعمال البيت، وبعدها تلقي بجسدها على الكنبة لتغط في نوم عميق. كيف إذًا ستشعر بها؟

ولكن، يبدو أن قلق رنيم كان طاغيًا، فطفح على هيئتها وتصرفاتها. وللمرة الأولى، تحكي رنيم لأمها، تحكي عن كل شيء؛ تحكي دون توقف والدموع تذرف من عينيها. ضمتها إلى صدرها، وبصوت هادئ يبعث على الاطمئنان قالت: "حسنًا، سنحاول أن تحصلين على مظهر جميل يليق بهذا المكان".

أوشك الموسم الدراسي على البدء، ومن المفترض أن تكون قد أعدت حقيبتها، ولكنها لم تفعل. لم تملك ما تعدّ به حقيبتها. سألها أبوها في مساء تلك الليلة: "هل جهزت نفسك للسفر؟" لم تجبه، بل دخلت غرفتها تجهش في البكاء. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت من النوم على يد أمها وهي تهزها بخفة: "هيّا، قومي، ارتدي ملابسك". سألتها وهي تفرك عينيها الناعستين: "لكن، إلى أين؟"

- سنذهب لشراء الملابس.

وقتها طار بقايا نعاسها، واستيقظت جميع حواسها: "أحقًّا ما تقولين؟"

- نعم، نعم.

- ولكن، من أين أتيت بالمال؟

- سأخبرك في طريقنا. الآن، هيا.

ذهبتا إلى متجر كبير لبيع الملابس في مركز المدينة. وهناك، وللمرة الأولى في حياتها، اختبرت معنى أن ترتدي ملابس في غرفة قياس؛ حيث بإمكانها أن تختار من مجموعة من الفساتين والكنزات والتنانير ما يليق بها ويناسبها. للمرة الأولى، كانت تقف أمام "فاترينة" العرض وهي على يقين من أنها ستدخل لتشتري، وليس من أجل الفرجة فقط. للمرة الأولى، تسألها بائعة عن مقاسها. وبالطبع لم تجب لأنها لم تكن تعرف مقاسها. استغربت البائعة: "ألا تعرفين قياسك؟! غريب أن فتاة في مثل عمرك لا تعرف ذلك!" ثم أمسكتها من ذراعيها ورفعتهما إلى أعلى، وتأملتها من أعلاها لأسفلها: "لديك قوام ساحر. أعتقد أن مقاسك 30-32. ولكن مؤخرتك الممتلئة يا فتاة مقارنة بخصرك النحيف جدًا ربما ستتشكل عائقًا لنا. حسنًا، هيّا وسوف نجرب".

سحبتها من يدها، ودارت بها على أقسام المتجر تختار منه ما يناسبها. أخبرت أمها البائعة إنها ستنتقل إلى فلورنسا لتستكمل تعلميها هناك في أكاديميتها للفنون. دهشت الفتاة: "أكاديمية فلورنسا للفنون! عليك إذًا التبضع من أشهر متاجر روما، وليس من متجرنا المتواضع".

همست أمها: "حمدًا لله أننا استطعنا أن نشتري من هنا".

في طريق عودتهما، كانت تجلس بجوار أمها بالحافلة، مبتسمة وسعيدة، وهي تحمل بين يديها عددا من الحقائب بها ملابس متعددة الأشكال تناسب طالبة في أكاديمية فلورنسا للفنون.

- شكرًا لك. ولكن، من أين حصلت على المال؟

أدارت الأم نظرها عبر النافذة، كانت الحافلة تقطع الطرق مسرعة، فتظهر الأشجار على جانب الطريق وكأنها تركض معها.

- صنعت من الشعر الذي كنت أجمعه على مدى سنوات طويلة "باروكات"، وبعتها لمتجر بيع "باروكات" الشعر، متجر في مدينة بعيدة حتى لا تعلم مادلين بذلك؛ فوقتها عقابي سيكون عسيرًا.

سحبت يد أمها ورفعتها إلى فمها وقبلتها. للمرة الأولى تفكر في معاناة أمها في هذه الحياة التي فرضت عليها، وكانت فيها ضحية لكل شيء. وجدت نفسها فجأة لاجئة في بلاد بعيدة عن أهلها، وكان عليها لتعيش أن تعمل وتشقى وتتحمل إهانات لا آخر لها.

أمها التي تعمل في محل قص الشعر وتصفيفه لم ترَها يومًا حصلت على تسريحة جميلة أو لون جذاب. لم تطلِ أظفارها، لم تهذب حاجبيها، لم تضع أحمر شفاه أو تكحل عينيها. وكأنها تهمل نفسها عن عمد. كان بإمكانها أن تتزين وترتب مظهرها وبأقل التكاليف. ولكنها لم تكن تفعل، وكأنها نذرت نفسها للمشقة والتعب، أو ربما هو عقاب تعاقب به زوجها ونفسها والحياة. "لن أتزين. لن أبقى جميلة لا من أجله، ولا من أجلي، ولا من أجل أحد". كانت هذه الهيئة الجافة، والخشنة، والمعتمة مصدر قوتها لمواجهة الحياة ومعاقبتها أيضًا.

علاقتها بأبيها كانت علاقة غريبة بين زوجين، لم تستوعبها يومًا. لم ترَهما يتحدثان حديثًا دافئًا حميمًا، بل كانا يتبادلان جملًا قصيرة جافة ومقتضبة. لم ترَها تقترب منه فيحتضنها، ولم ترَها تلمس يده فيربت على شعرها. لم يكن يحدث شيء من هذا قطّ.

كانت بداخلها تحمله مسؤولية ما هي فيه، وكان يشعر بالذنب من أجلها. لذلك، وجدت فجوة بينهما، ومع الأيام اتسعت وتعمقت وبات من غير الممكن اجتيازها.

4

لم يكن قلقها هذا الصباح الخريفي البارد بسبب الساعات الطويلة التي سوف تقضيها في رحلتها إلى فلورنسا عبر حافلتين. بل بسبب ذلك المجهول الذي في انتظارها.

ودّعت أمها في عناق طويل على عتبة البيت، بينما أصر والدها على مرافقتها إلى المحطة حاملًا عنها حقيبتها.

تتذكر جيدًا تلك الدقائق وهما في طريقهما إلى الحافلة في ذلك الوقت المبكر. الضباب يغلف كل شيء، والسكون يعم ولا تقطعه سوى خشخشة دهس أقدامهما أوراق الشجر الجافة. كان هناك شيء ثقيل يسير بينهما ويجثم بطيفه على روحيهما.

لم ينطق أبوها، لم يقل شيئًا. قبل استقلالها الحافلة، وضع يده في جيب معطفه وأخرج منه دفترًا سميكًا بحافظة من الجلد الأسود. كانت تعرف هذا الدفتر جيدًا، إذ كان يجلس أوقات طويلة للكتابة عليه، وتتناوب عليه المشاعر المختلفة، وتتأثر ملامحه بها لحد أنها كانت تتساءل عن سطوة الأحداث عليه.

وهو يمده لها نظر في عينيها مباشرة، وبنبرة مؤكدة: "احتفظي به". انتظرت أن يعانقها، أن يصافحها بحرارة، ولكنه ربّت على كتفها بحنان قائلًا: "اهتمي بنفسك". أدارت رأسها تنظر عبر النافذة الخلفية للحافلة، فلمحت قوام رجل يغشاه الضباب واقفًا في عرض الطريق ملوحًا بيده. وقتها شعرت بالرغبة في البكاء.

فتحت الدفتر، وبدأت بقراءته على مدار ثماني ساعات متواصلة. كانت تقرأ ما خطه أبوها وهي ممتلئة بالدهشة والانبهار من قدر عاشه هذا الرجل. وتساءلت كيف بإمكاننا أن نعيش مع أشخاص في بيت واحد، أشخاص على هذا القدر من القرب لنا والقرابة بنا، ولا ندري عنهم شيئًا؟ لا

نعرف من يكونون، وما هو ماضيهم، وكيف عاشوه! ليحدث أن نكتشفهم عن طريق المصادفة من خلال أوراق كتبوا فيها ما نجهله عنهم.

لم تكن تعلم أنها تعيش مع رجل يحمل كل هذا القدر من القوة والشجاعة، رجل اتخذ من قلمه سلاحًا ضد الظلم، ضد القهر، وكانت نتيجة ذلك أن رأسه كان مطلوبًا.

هي التي عاشت عمرها تحمل وزر كونها لاجئة، اليوم فقط علمت أنها يجب أن تتباهى، أن تختال بزهو بهذه الكلمة؛ فالحصول عليها كان ضريبة دفعها أبوها عن شجاعته وإخلاصه. لم يكن يشبه غيره، بل كانت في جعبته قضية مصيرية وجد أن مهنته كصحفي تحتم عليه تبنيها.

تستدعي ذاكرتها مشاهد له وهو يجلس ليكتب التقارير عنهم؛ عن حياتهم وطموحاتهم وأحلامهم المجهضة، عن أمنيات لن تحقق أبدًا، ليقدمها إلى هيئة الإعاشة.

تقطع الحافلة الطريق مسرعة، وتسرع الصور في مخيلتها؛ صور من ماضٍ لم يكن بعيدًا. مظهره في معطفه البالي وهو ذاهب إلى مفوضية اللاجئين في روما لتقديم إخطار سنوي يفيد بأنهم ما زالوا على قيد الحياة، على قيد الذل والمعاناة، يقدمون فروض الولاء والطاعة وهم في غاية الامتنان. تستدعي الذاكرة مظهره بقمصانه المجعدة، وبناطيله الرثة، وأحذيته التي أنهكها الزمن. تستدعي الذاكرة حالته وهو عائد ليلًا بعد يوم عمل شاق يبدأ مع أول شعاع للشمس، وينتهي قبل منتصف الليل بقليل؛ فكان عليه أن يواصل الورديات للحصول على مال أوفر.

كانت تريد أن تنزل من الحافلة وتركض إلى قريتهم وتعانقه، تعانقه بحب، بفخر، بعزة. وبشوقها للرجل الذي حكمت عليه الظروف أن يخبئه داخله، ويظهر بدلًا منه صورة باهتة لشخصية مهزومة وضعيفة ومكسورة.

5

عند الثانية ظهرًا، توقفت بها الحافلة في المحطة. كانت الرحلة شاقة ومتعبة. ولكنها عندما نظرت حولها ورأت المدينة، رأت مبانيها وشوارعها، والبحيرات التي تقطع أزقتها، نسيت كل شيء. لم تكن مدينة، بل معرضًا فنيًا مزدحمًا بالروائع في كل مكان.

وقفت في الميدان تحمل حقيبتها في يد وتلف برأسها مجيلة ناظريها حولها في المكان محاولة أن تستوعب ما هي فيه، وما يحدث لها.

كانت تعتقد أن روما أجمل مدن العالم، ولكنها تأكدت أنها كانت مخطئة. ثم كيف باستطاعتها أن تحكم على ذلك وهي التي لم تغادر بلدتها النائية قطّ، بلدتها النائية التي سيكون أي بلد آخر مقارنة بها أجمل منها بالتأكيد.

كان مبنى الأكاديمية يمثل تحفة معمارية في حد ذاته، ملحقًا به معرض كبير به تحف ومنحوتات متعددة. لم تصدق أن هذا المكان هو الذي سيكون محل دراستها. كيف لقلبها الضعيف تحمل هذا القدر من الرقي والجمال؟!

كانت دائمًا مأخوذة بالفن والتاريخ، ولكنها لم تحلم يومًا أنها ستواصل تعليمها عنهما في أشهر وأهم الأكاديميات. هل القدر أخيرًا قد رضي عنها، وعقد جلسة صلح مع حظها الأعسر؟

ربما هذا ما حدث. على أي حال، من الأفضل أن تنتظر لترى؛ تعوّدت دائمًا ألا تستبق الأمور.

ذهبت لتقديم أوراقها في الإدارة المعنية بذلك، فاستقبلتها سيدة في منتصف العمر تقريبًا، لها صوت أجش، ومظهر يشبه كثيرًا المكان من حولها؛ كلاسيكي وأنيق وكأنها قطعة منه. أخذت تنظر

في الملف وترفع نظرها تتأملها كما لو أنها تقيس الكلمات على مظهرها، أو تتحقق من شيء.

ارتبكت، اهتزت يداها فعقدتهما معًا؛ عندما فكرت أنها الآن تقرأ كلمة "لاجئة" مؤكد أنها ستجدها مكتوبة، ولأهميتها ستكون موضوعة بين قوسين أو مكتوبة بخط عريض أو وضعت حولها دائرة، وربما خط أحمر تحتها.

تأكدت من ذلك عندما رفعت السيدة نظرها ورمقتها بنظرة يشوبها تساؤل ما لم تسأله. هل كانت مثلًا تريد أن تسألها: "هل أنت لاجئة؟" أم تراها كانت تريد أن تتحقق من مظهرها لمعرفة ما إذا كان يدل على أنها لاجئة؟!"

على أي حال، تعمدت أن تبدو اليوم بمظهر أنيق وجذاب. أما اللاجئة التي تبحث عنها هذه المرأة فتركتها وراءها هناك في القرية البعيدة.

أخيرًا نطقت:

- حرصك على الحفاظ على تفوقك طوال تلك السنوات الدراسية دليل على شدة ذكائك والتزامك.

أجابتها: "أشكرك". بينما عقلها كان يجيبها إجابة أخرى: "ليس لذكائي علاقة بالأمر. وحدها كلمة لاجئة تلك المكتوبة أمامك بين قوسين هي سبب كل شيء! الأمر بالنسبة لي كان معركة مع هذه الكلمة، وكان عليّ أن أهزمها وأقضي عليها؛ هذا كل ما في الأمر سيدتي".

مدت لها السيدة دفترًا صغيرًا وقالت:

- عليك قراءته جيدًا للاطلاع على إرشادات وتعليمات الإقامة في بيت الطلبة؛ لأن أي كسر لأحد هذه الإرشادات معناه سقوط المنحة عنك فورًا. إذا راقتك التعليمات ووجدت المقدرة على تنفيذها فتعالى غدًا للتوقيع على أنك موافقة على كل ما جاء في تعليمات الإقامة.

رفعت سماعة الهاتف، وطلبت رقمًا داخليًا، فحضرت امرأة.

- خذيها إلى مكان إقامتها.

مكان إقامتها يقع في قسم مخصص من كاتدرائية عتيقة خلف الأكاديمية. إذ تبرعت إدارة الكاتدرائية بمنح الأكاديمية عنبرًا فيه خمس غرف للمنح الدراسية.

كانت المرشدة تسبقها بخطوات واسعة، وهي تسير وراءها حاملة حقيبتها وتحاول أن تلحق بها. ولكنها كانت مأخوذة بجمال المبنى الذي بني على الطراز الباروكي، فكانت تتأمله بعينين مندهشتين. هل كانت عيناها فقط المندهشتين؟! كل شيء حولها يبعث على الدهشة! لم تتخيل يومًا أنها ستسكن في مكان فخم، مهيب، موحش، بارد مثل هذا.

سلّمتها المرشدة إلى راهبة تشرف على عنبر الطلبة. وكان مظهرها الصارم كافيًا لتفهم كل شيء. لم تكن بحاجة إلى قراءة إرشادات وتعليمات الكتيب الخاصة بالمعيشة في هذا العنبر بالكاتدرائية لتعرف ما جاء فيه.

شغلت الغرفة معها فتاة من إحدى المدن النائية أيضًا. قروية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وكان ذلك مصدر ارتياح لها. إذ كان أكثر ما يقلقها فكرة أن هناك من ستشاركه الغرفة؛ فهذا الشخص سيراها في جميع الأوقات، وبجميع الهيئات. ولكن أن تراها ماريان في أي شكل وعلى أي هيئة وفي أي مزاج فذلك بالطبع لن يهمها، ولن يشغل تفكيرها؛ إذ كانت أشد بساطة منها.

منذ أن وقع نظرها عليها لم تشعر بالراحة فقط، وإنما بالمحبة أيضًا. كانت تملك ملامح طفلة صغيرة. فعندما تضحك تظهر ضروس فكها السفلي، وقد تسلق أحدها الآخر. تقسم شعرها نصفين، وترفع كل ناحية على شكل ذيل حصان وتعقده بشريط من الساتان على هيئة "فيونكة". مظهرها يوحي ببراءة الطفولة وسذاجتها. ولكن، عندما تتحدث عن الفن، وعن الفنانيين، وعن أشهر الأعمال الفنية وأهمها تشعر بأنها داخل موسوعة. تبهر الشخص الذي تتحدث معه فينسى سريعًا أمر فمها، وأسنانها، وشرائط شعرها.

توطدت علاقتهما؛ هي التي لم تتوطد علاقتها مع أحد من قبل. إذ عاشت عمرها وحيدة منغلقة، وللمرة الأولى فتحت قلبها وصندوق أسرارها. كانتا قبل النوم تتبادلان الأحاديث، والحكايات، والأسرار. تتحدثان عن طفولتهما، وعن قريتيهما، وعن الناس فيهما وعاداتهم وتقاليدهم. تتحدثان عن العاطفة، عن الحب، والخفقة الأولى والقبلة الأولى.

في أول يوم دراسي، لم تكن تفهم حقًا هل هي في بناء جامعي يرتاده الطلبة لتحصيل العلم، أم في ساحة لعرض الأزياء؟ كانت الفتيات متأنقات متزينات، مغريات جميلات؛ كما لو أنهن في طريقهن لحضور حفل ساهر. كانت تعلم أنها التحقت بأحد الأماكن التي يلتحق بها أبناء مشاهير العالم وأثريائه، ولكنها لم تكن قد رأتهم مسبقًا، لذلك كانت منبهرة بكل ما يحدث حولها. لم تحاول أن تقترب منهن لأنها تعلم أنها لن تنسجم معهن؛ فلطالما كرهت فحش الثراء، ليس فقط لأنها عاشت محرومة بسبب فقرها، ولكن لأنها تكره كل شيء زائد عن حده.

ثم ما الأشياء التي سوف تجمع بينهنّ؟ هن يتحدثن عن أحدث صيحات الموضة، وعن تبضعهن من أشهر الماركات العالمية، وعن شرائهن أحدث أنواع السيارات، وعن قضائهن إجازاتهن في كابري ومونت كارلو. فأي شيء إذًا يمكنها أن تتحدث عنه معهن؟!

كانت رنيم وماريان بالنسبة لطلبة الأكاديمية ثنائيًا غريبًا في مظهريهما وانغلاقهما، ولذلك ظلت نظرات جميع الطلبة تلاحقهما؛ في مدرجات الدراسة، في "الأتيليه"، في الفناء، في المطعم.

تعرضتا كثيرًا للسخرية، ولكن في الحفل الذي أقامته الأكاديمية لتكريم الطلبة المتفوقين، كان اسمها أول اسم على القائمة؛ وذلك لاجتيازها جميع الاختبارات بحصولها على الدرجات النهائية. صعدت المنصة بثقة لتستلم شهادة التفوق. ومنذ ذلك الحين، لم تستدعِ هي وماريان التي تلتها في القائمة سخرية أحد.

كانت تعلم أن تفوقها هو ملاكها الحارس الذي بإمكانه أن ينجيها من كل شيء: من الفقر، واللجوء، ومن السخرية والتهكم. ونجاحها هو ما تضعه على كفة ميزانها أمام كل ما يملكه الآخرون. وفي كل مرة كانت هي الرابحة.

عامها الأول كان عام الاندهاشات الكبيرة. قضته مندهشة من كل ما يدور حولها. وكان وقتًا كافيًا جدًا لتغادرها فيه سذاجتها القروية ولتصبح أكثر تفتّحًا وفهمًا.

6

كان عليها التأقلم، ولم تعتَده يومًا. لم تعتَد سوى الاستسلام لواقع فرضه عليها القدر. ولكن، هنا في هذه المدينة الصغيرة الجميلة، كانت تحاول التأقلم مع كل ما يحيط بها ماديًا ومعنويًا.

في إجازة الصيفية لعامها الأول، وافقت إدارة المعرض الملحق بالأكاديمية على أن تلتحق للعمل كمتدربة لقاء عائد مادي لا بأس به؛ وذلك طبعًا بسبب تفوقها. لامتها ماريان التي التحقت بالعمل كنادلة في مطعم البيتزا الأشهر والأغلى الّذي يرتاده صفوة مجتمعات العالم، وقيمة البقشيش فيه من طاولة واحدة تعادل قيمة ما تتقضاه هي خلال شهر.

ولكنها أخبرتها أنها في حاجة إلى التدرب في معرض؛ لأن ذلك سيساعدها في حياتها العملية في ما بعد، وأنه درجة من درجات النجاح أيضًا. فأن يسجل في سيرتها الذاتية أنها عملت كمتدربة في معرض مهم مثله سيساعدها كثيرًا. وخاصة أنها تنوي الاستمرار في العمل في هذا المجال وتحقيق نجاحات. أما بخصوص مطعم البيتزا، فالفائدة الوحيدة منه هي أنها كانت ستقضي وقتها في مكان يسوده دفء وروائح عجين البيتزا الشهية، ومشاهدة نجوم وأثرياء المجتمع وهم يأكلون البيتزا ويتناولون البيرة والنبيذ ويلتقطون الصور.

لم يُتِح لها العمل كمتدربة في المعرض المزيد من الإفادة العلمية فقط، بل مكنها من اللقاء برواد المعرض- سياح من جميع أنحاء العالم- وذلك ساعدها في أنّ شخصيتها المنغلقة راحت تفتح أبوابها لتكوين الصداقات، وتعلم لغات، وفهم العالم وما يدور فيه بشكل أكثر إدراكًا. وفي العطلة الصيفية للعام الدراسي الذي تلاه، تدربت في معرض آخر أكثر شهرة وأهمية. وفي الأعوام الدراسية التي تلت لم تعد تعمل فقط في الإجازة الصيفية، بل استطاعت أن توفق بين جدولها الدراسي وبين مناوبات عملها في المعارض المختلفة.

كانت في بداية عملها تقود المجموعات السياحية في جولة في مختلف أنحاء المتحف لتخبرهم عن القطع الفنية المختلفة. واعتادت خلال عملها أن تلتقي محبي الفنون الذين يملكون فضولًا كبيرًا تجاه العمل الفني، فكانوا يلاحقونها بأسئلة مختلفة وغريبة حول الأعمال الفنية، والاستفسار عن أدق التفاصيل حولها؛ كما لو أنها هي من رسمتها أو ساعدت الفنان في رسمها.

وعلمت مبكرًا أن أهم مقومات عملها أن تكون ودودة ومساعدة لأقصى الحدود. ولذلك لم تعتمد فقط على ما جاء في "الكتالوج" الخاص بالمعرض الذي يحمل معلومات عن كل لوحة، ولا بالمناهج الدراسية التي درستها، ولكن ذهب بها الأمر لأبعد من ذلك بكثير؛ لشراء الكتب والموسوعات الفنية، وللبحث عبر الإنترنت والعمل على أبحاث خاصة بها هي من خلال ما توصلت إليه عن هذه الأعمال الشهيرة والهامة والتي عادة ما تثير انتباه الرواد.

لذلك، وبعد فترة قصيرة، ترقت لمكانة أعلى، ولم تعد فقط تقود المجموعات السياحية في جولة مخصصة لهم بالمعرض، بل أصبح الأمر أكثر أهمية، أصبح لديها مكتب خاص، وتستدعى فقط لتقود شخصيات بارزة في مجال الفنون كالخبراء والباحثين، أو أولئك الذين يحبون الفنون ويريدون لهم مرشدًا يصحبهم في جولة خاصة يمدهم فيها بالكثير من المعلومات حول الأعمال المعروضة. وبجانب المكانة والتميز اللذين استطاعت اكتسابهما بفضل هذا المنصب، جنت أيضًا الكثير من الأموال.

في عامها الجامعي الأخير، يمكننا أن نقول إنها تغيرت، تغيرت كثيرًا، تغيرت لدرجة يصعب معها تخيل أن هذه الفتاة الجميلة، الأنيقة الواثقة تمام الثقة من نفسها، والتي تتحدث الإيطالية والإنجليزية والفرنسية والعربية كما لو أنها سليلة إحدى عائلات روما النبيلة، هي نفسها الفتاة التي جاءت إلى فلورنسا بحقيبة متهالكة فيها ثياب اشترتها من متجر في مدينة نائية، خيّطها عجوز لم يطَّلع على الموضة منذ أكثر من ربع قرن على الأرجح.

أصبحت متاجر روما الشهيرة مكانها المفضل للتبضع. روما التي كانت بالنسبة لها لحنًا يدوي في حلم بعيد. تختار ملابسها بعناية فائقة، فتبتعد عن تلك القطع التي تعلم أن الكثير من الأيادي تأخذها للقياس ومن ثم للشراء. تختار قطعًا فريدة في التصميم، بها شيء غريب ولافت: مجموعة من الألوان متداخلة مع بعضها، "موديل" جديد وغريب.

في الكثير من الأوقات كانت تذهب للتبضّع مع ماريان التي كانت على عكسها تمامًا؛ تشتري أول ما تقع عيناها عليه وتجده مناسبًا لها. تحتاج إلى تنورة، حسنًا ستذهب لشراء تنورة. لا يهم ما لونها وما "موديلها" فالأهم أنها على قياسها. لذلك بعد مرات قليلة ذهبت فيها معها للتبضع علمت صعوبة تكرار تلك التجربة. إذ لم تكن زميلتها في غرفة السكن القادمة من قرية نائية تختار أو تفاضل بين القطعة والأخرى، بل كانت تتحول إلى مصمم أزياء لبيت أزياء عالمي؛ يدقق ويفرز ويختار.

في إحدى المرات، أثناء مرورهما من أمام واجهة متجر جورج أرماني الشهيرة، مزحت صديقتها: "أتساءل، ماذا لو أهداك القدر فرصة للشراء من هنا، كم من الوقت ستقضينه داخل المكان؟" شغل هذا السؤال تفكيرها طوال الطريق. وأثناء عودتهما في الحافلة وصديقتها منهمكة في القراءة، قطعت الصمت بينهما: "لم أكن سأقضي الكثير من الوقت. بل كنت سأشتري أول ما يقع بصري عليه من هناك. يكفي أنه يحمل علامة أرماني، فما الذي أريده بعد ذلك؟" تطلعت فيها بملامح تعبر عن التعجب والاستنكار.

- لم أكن أعلم أنك من الذين يهتمون بالمظاهر!

- عشت طوال عمري أحمل مظهرًا مميزًا، مظهرًا رثًا، باليًا، قديمًا؛ فرضته عليّ الظروف التي كنت أحيا فيها. ولكن، عندما التحقت بالأكاديمية ودرست الفن والجمال وتعلمت معنى أن يفني الفنان الكثير من وقته وعمره في جهد وتعب لرسم مشهد جميل تفهّمت قيمة الجمال والتميز، وعرفت ما يعينه التفرد.

لماذا تأتي الجماهير لزيارة المعارض؟ ولماذا تقف أمام أعمال فنية معينة؟ ولماذا عمل فني تحديدًا هو ما يجذب الجميع؟

هناك مثلا سياح يأتون لزيارة المكان؛ ليس حبًا في الفن، ولكن لأن زيارة المتحف ضمن برنامجهم السياحي. وبالرغم من ذلك، تجذبهم الأعمال الفنية نفسها التي يقف أمامها خبراء الفن والباحثون فيه. ما الذي جمع الاثنين على اختلاف خبراتهما وثقافتهما؟ لا شيء سوى التفرد الذي اهتم الفنان بأن يميز به عمله.

فعلامة هذا المتجر مميزة لأن صاحبها أفنى عمره حتى يصل لما وصل إليه. وامتلاك قطعة تحمل العلامة التجارية يضفي على الشخص تفردا وهو الأمر ذاته، بالنسبة لتوقيع الفنان على عمله الفني. في كلتا الحالتين، هو إقرار بالجمال والتفرد والتميز.

بعد أن استمعت ماريان لتلك المحاضرة التي ألقتها عليها صديقتها قالت:

- على أي حال، يلزمك لترتدي ملابسك من هذا المتجر أن يموت لك قريب مليونير وتكوني أنت الوريثة الوحيدة له، أو أن تتزوجي من رجل أعمال فاحش الثراء.

- وحدي من يمكنني أن أفعل ذلك. لم أعتد أن يحقق أحلامي الآخرون.

- يا له من طموح!

7

مرت أربع سنوات. مرت بأيامها ولياليها، أحيانا كحلم جميل، وأحيانًا ككابوس مزعج. مرت خاطفة، مدوية حينا وبطيئة، طويلة، ثقيلة حينا آخر. ولكنها مرت في نهاية المطاف؛ هذا هو المهم. وبمرورها حصلت على شهادة التخرج بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف من أكاديمية فلورنسا للفنون الجميلة؛ أشهر الأكاديميات المتخصصة في الفنون في العالم.

خلال الأعوام الماضية لم تعُد إلى قريتها النائية سوى مرتين فقط. في المرة الأولى، أعادت تشكيل العلاقة بينها وبين أبيها. أخبرته أنه أعظم رجل، وأنها فخورة بأن لها أبًا مثله. انحنت وقبلت يده، وكان ذلك اليوم مميزًا، فقد ملأت السعادة بيتهم البسيط.

وكانت المأدبة مميزة أيضًا على غير العادة. إذ وضعت أمها الدجاجة المحمرة في منتصف المائدة، وطبقًا من الكشك، وطجينًا من البامية؛ وهي أصناف مصرية توقفت عن طهيها منذ زمن بعيد؛ منذ أن أيقنت أنه ليست هناك عودة، وليست هناك جدوى في طبخ أصناف لن تجلب معها سوى حنين وحزن؛ فكل مذاق لطبخة مصرية كانت له رائحة وكانت له ذكرى.

في المرة الثانية، كان الأمر مختلفًا. كان البيت عامرًا بالحزن؛ إذ لم يكن أبوها موجودًا، وأخبرتها أمها التي كانت تلتحف السواد عن رحيله فجأة منذ شهور قليلة. ولم تشأ أن تخبرها حينها؛ إذ لم تر داعٍ لتترك دراستها والمجيء، فكل شيء حدث بسرعة: موته، دفنه وعزاؤه.

أخبرتها أيضًا أنه في ذلك اليوم الذي غادر فيه، جاءتهم رسالة تفيد بأن هيئة الهجرة أجازت طلبهم، ووافقت على اعتبارهم مواطنين إيطاليين صالحين. نعم، بعد كل تلك السنوات، تحقق أمل عاش أبوها على قيد أن يحدث. ليس من أجله، ولكن من أجلها هي حتى يُقيَّد في بطاقة هويتها أنها مواطنة وليست لاجئة.

وقد تحقق أمله؛ ككل الأشياء الجميلة، كل الآمال والأمنيات التي ننتظر تحقيقها ولا تتحقق إلا بعد فوات الأوان جاء الخطاب بعد رحيله.

لم تبكِ، لم تصرخ. بل دخلت غرفتها، وأغلقت بابها عليها، وبقيت هناك في عالم آخر لمدة ثلاثة أيام. تفكر في أبيها الذي دفن في صمت دون أن يهتم لأمر موته أحد، ودون أن يصلي عليه أحد. تفكر أنه لو كان في هذا العالم قدر قليل من العدل، لكان قد خرج في تشييعه إلى مثواه الأخير الكثير من المعزين، الكثير من الناس، من الشعب. ولكانوا قد تسابقوا لحمل نعشه على الأكتاف، وخرجت الحشود في وداعه لأنه أفنى عمره ومستقبله في سبيلهم.

ربّتت أمها على كتفها.

- كثيرًا ما نصحته أن يكف عن الذي يكتبه، لكن دون جدوى. كما أنه لا رجاء ممن كتب من أجلهم.

- هو كتب من أجل الحق، وليس من أجل أحد.

- وما الذي جناه من ذلك؟! لقد خسر بسببه كل شيء!

- ولكنه كسب نفسه.

وجدت أمها أنه لا طائل من الحديث معها، كما كان دائمًا لا طائل من الحديث معه. لا طائل من شيء أبدًا فصمتت.

قبل أن تغادر، طلبت من أمها أن تترك العمل؛ فهي ليست بحاجة إليه. وسوف تتكفل هي بمصاريفها كافّة. لم تقتنع أمها بكلامها، وأخبرتها أن العمل بالنسبة لها ليس من أجل المال. هو ضرورة، حاجة ملحة؛ هو الذي مكنها من الصمود كل تلك السنوات. فرؤية النساء، والتحدث معهن في أشياء هامة وأخرى تافهة كانا يعينانها على مواصلة الحياة. الفرق بين مظهرهن وهنّ قادمات بائسات إلى الصالون وخروجهن منه جميلات وفرحات كان من بواعث سرورها، ويمنحها ذلك أملًا ورضى عن نفسها لقدرتها على جعل أولئك النسوة جميلات. هي التي فقدت الرغبة في أن تجمل نفسها، كانت تجد في تجميلها للأخريات عوضًا لها، كما كان فرحهن تنفيسًا عن حزنها.

كن يطلبن منها قصات شعر، وتصفيفات مميزة لأنهن على موعد غرامي، فكانت تصنعها لهن بطاقة الحب الكامنة داخلها، كما لو أنه موعدها هي. ولا يمكن وصف سعادتها عندما تعود أولئك النسوة في المرات القادمة ويحكين لها أن عشاقهن وأزواجهن أعجبهم ما صنعته لهن. كانت تسعد عند سماعها ذلك، وكانت هذه الطاقة المعطاة تساعدها على اجتياز كل محن ومصاعب الحياة.

8

لم تكتف بحصولها على درجة البكالوريوس، بل لأن طموحها أكبر من ذلك بكثير؛ إذ قررت أن تواصل الدراسة لتحصل على شهادات تؤهلها لمراكز أعلى. فذلك من جهة سيحقق هدفها في التفرد والتميز، ومن جهة أخرى ستفعل الشيء المفضل لديها، فدراستها للفن لم تكن من باب تحصيل العلم فقط، ولكن من أجل شغفها وحبها له. قررت أن تتخصص في دراسة فنون الحضارات القديمة (الإغريقية والرومانية والمصرية) تلك الفنون التي قامت قبل آلاف السنين، وما زال صداها حتى اليوم يتردد في العالم أجمع. سجلت كطالبة في دراسة الماجستير. وسجلت كموظفة في إدارة المتاحف الإيطالية التي ألحقتها بالعمل كأمينة متحف "مستشفى الأبرياء؛ وهو متحف مختلف عن جميع متاحف العالم. المبنى يعد واحدًا من أوائل مباني عهد النهضة في فلورنسا. تمّ بناؤه من قبل المهندس المعماري "فيليبو برونليسكي". قبة المستشفى بنيت على شكل قباب الكاتدرائيات، ونحت بها تمثالان لطفلين. أحدهما يلف حول وسطه القماط وهو لباس الأطفال حديثي الولادة في هذا التوقيت، بينما الآخر يزحزح القماط عن جزء منه فتظهر عورته.

يجمع المتحف بين التاريخ والفن والعمارة. جزء من المبنى كان عبارة عن مستشفى ودار للأيتام في ما مضى. وملحقة به ساحتان للعرض؛ ساحة دائمة تضم أعمالًا فنية لفناني عصر النهضة أمثال "لوكا ديلا روبيا، وساندرو بوتيتشيلي، وبييرو دي كوزيمو". ومن أشهر المعروضات فيها لوحة مادونا والطفل. وساحة أخرى مخصصة للمعارض المؤقتة.

المبنى عبارة عن رواق واسع تتوزع فيه الأعمدة الرخامية واللوحات الفنية وتحف عصر النهضة. وفي نهاية الرواق، هناك أسطوانة خشبية دوارة. أما المنحوتة الأكثر جمالًا وأهمية فهي لعدد من الرضع نحتهم الفنان الواحد فوق الآخر، فيظهرون ككتلة واحدة. وفيها يظهر سبعة أطفال

ملتفين بالقماط بالكامل من الصدر إلى الكاحلين، طفل واحد فقط، السابع من اليسار، هو الوحيد الذي لديه قدم ظاهرة.

في هذا المكان، أعادت تشكيل حياتها، اعتادت فهم الدنيا من منظور مختلف، هذا المكان الذي كان مستشفى ولادة لأمهات لهن ظروف خاصة لا تسمح لهن بتربية أطفالهن. لذلك، كن بعد الولادة يتركن أطفالهن في دار الأيتام. كانت أحيانًا عندما تملك متسعا من الوقت تذهب إلى أرشيف المستشفى الذي يحتفظ بمئات السجلات التي دُوِّنَت فيها تواريخ وأسماء؛ أسماء لأمهات صغيرات، وأطفال قدَّر لهم الزمن أن يعيشوا في مأوى للأيتام، أسماء كانت هنا يومًا، أسماء من زمن فات.

في المناوبة الليلية، كانت في الكثير من الأحيان تسمع صدى صراخ نساء وبكاء أطفال وترنيمات هدهدة بصوت هادئ.

كانت أصوات غريبة يتردد صداها عبر الجدران، عبر الردهات الباردة والممرات الخالية، تجعلها تفكر في شعور أولئك النساء الصغيرات وهن يخرجن من المستشفى بعد الولادة دون أطفالهن. كيف استطعن فعل ذلك مهما كان ضيق الحال وصعوبته؟! المؤكد أن الأمر كان يشبه الحياة والموت معًا. في اللحظة التي يخرج جزء منها إلى الحياة تموت هي.

بعدها، انتقلت إلى متحف آخر مختلف في كل شيء؛ في الإحساس، في المعروضات، في الأهمية. متحف غاليريا ديل أكاديميا "أكاديمية غاليري". عيِّنت في قسم تبادل الأعمال الفنية والمنحوتات بينه وبين متاحف مختلفة في العالم. لم يكن عملها بحاجة إلى جهد بقدر ما يحتاج إلى تركيز وحذر ووعي؛ فالقطع التي يستقبلها المتحف ويصدرها قيمتها لا تقدر بثمن. وكان يجب التأكد تمامًا من أصالة القطع سواء أكانت تلك التي يستقبلها المتحف أو التي ترد إليه مجددًا.

كان هذا المنصب هو النواة الأساسية لفهمها ما يدور حولها في عالم الفن والفنانين والتحف والمعارض والمزادات وتجارة اللوحات الفنية التي تدر المليارات. ومن خلال تعاملها الدائم مع شخصيات شهيرة في عالم الفن وأعماله، أصبح اسمها معروفًا. ليس فقط كأمينة متحف شهير، ولكنّ مهارتها، وقدرتها الفائقة على إدارة الأمور جعلتا الجميع يثق فيها ويقدرها، ولذلك صار اسمها موجودًا بشكل دائم في معظم الدعوات لافتتاح المعارض والمزادات الهامة، وأصبحت صورها وهي

تتوسط مشاهير رجال الفن وتجارته تتصدر الصفحات ومواقع "السوشيال ميديا". وتبدو دائمًا في الصور أخّاذة؛ يمكنها أن تخطف النظر من بين جميع الأشخاص، ووحده اسمها يلصق في الذهن.

بعد مرور ثلاثة أعوام في ذلك المكان، كسبت واكتسبت الكثير من الأشياء التي لم تكن لتحصل عليها لو أنها عملت في مكان آخر سنوات طويلة.

هذه الأشياء أهلتها لتلتحق بالمتحف الأكثر شهرة بين متاحف العالم "أوفيزي". الذي تأسّس عام 1581، ويضم أشهر وأهم تحف العالم، وقد اختصرت وصفه الكلمة الافتتاحية لخبير الفنون "دافيد جاكوب" في "الكتالوج" الخاص بالمعرض، والذي يحصل عليه الرواد مع تذكرته.

(خلال جولة في هذا المتحف، يمكنك أن تحصل على نظرة عامة على التغييرات الهائلة التي جلبتها فنون عصر النهضة، وشكلت الطريقة التي ينظر بها الفنانون إلى العالم. من صالة لأخرى، ومعروضات حقبة زمنية وأخرى، يتيح هذا الترتيب الزمني إحساسًا سريعًا بتغيير الأنماط من التمثيل الفني الثابت إلى تصورات أكثر واقعية وإنسانية، بالإضافة إلى الأعمال التي تشمل الصور الشخصية والموضوعات الرمزية، وحتى المناظر الطبيعية المختلطة بالمواضيع الدينية. إن مشاهدة العديد من أعمال الفنانين القدماء والمعاصرين معًا تمنحك إحساسًا خاصًا؛ وهذا ما ميّز هذا المعرض من بين معارض العالم).

هذا التدرج في المتاحف وفي الوظائف جعلها في وقت قصير واحدة من أهم أسماء أمناء المتاحف العالمية.

ولكن، ليس لهذه الأسباب فقط وصلت لما وصلت إليه. فالأهم من ذلك كله أنها لم تكن تمارس عملها بروتين معتاد من منطلق أنه مجرد وظيفة تدر عليها عائدًا، بل تمارسه باعتيادية التفوق والتميز؛ وهما الأمران اللذان اعتادت عليهما واستطاعت أن تحققهما مدفوعة قبل كل شيء بمحبة عملها. عالم الفن والتشكيل كان البوابة الأسطورية للدخول لعوالم أكثر سحرًا وجمالًا.

9

أصبحت تملك القدرة على التمييز بين من يأتي إلى المتحف مجبورًا لكون الزيارة ضمن البرنامج السياحي الخاص به، ومن يأتي للمغامرة والتقاط الصور ليحظى بعلامات إعجاب أكثر على حساباته في مواقع "السوشيال ميديا"، ومن يأتي باحثًا عن الجمال فيقف أمام العمل يتأمله في صمت، ثم يذهب كما لو كان في موعد معه، ومن يملك الفضول للمعرفة والبحث؛ وهذه الفئة هي التي تحترمها. لم تبخل يومًا بوقتها أو بمعلوماتها على من يطلب لقاءها لتأخذه في جولة في المتحف، أو من يطلب منها الاستفسار عن عمل معين. وفي أوقات كثيرة، تتبادل معهم المعلومات، وتستفيد منهم كما يستفيدون منها. وأكثر هذه الفئة من الطلبة والباحثين. هؤلاء كانوا يرددون اسمها، ويشيدون بها في مقالاتهم وفي أبحاثهم، وفي صورهم ومنشوراتهم؛ مما زاد من سطوع اسمها أكثر وأكثر.

في يوم لمحته من ظهره، كان يقف أمام لوحة "النعم الثلاثة"، بقوام فارع، وظهر مستقيم، يرتدي معطفًا يصل إلى قبل الركبة بقليل. انعكاس الضوء المسلط على اللوحة يزيد من بريق شعره الفضي. أثناء تفقدها المتحف في جولتها الصباحية لاحظت أنه أخذ وقتًا أكثر من المعتاد، ورجحت أنه بما أنه قضى كل هذا الوقت أمام اللوحة فذلك يترتب عليه شيئان؛ إما أن يذهب مكتفيًا بهذا القدر من الجمال دون الحاجة إلى أن يقوم بمشاهدة عمل آخر، أو يطلب من إدارة المتحف إمداده بمعلومات أوسع عن العمل. ولكنه خيب ظنها بذهابه إلى لوحة أخرى. بينما يتأمل اللوحات كانت تتأمله، شعرت بفضول لرؤية ملامحه، انتظرت أن يدير رأسه ولكنه لم يفعل. ثم وجدت نفسها تسير باتجاهه وتقف خلفه مباشرة.

- مرحبًا، هل تريد أي مساعدة؟

انتفض الرجل كمن أوقظ من أحلامه.

- أعتذر لم أكن أقصد...

قاطعها بنبرة مطمئنة:

- لا عليك. أنا فقط كنت... كنت...

رفع كف يده، وأخذ يديرها بما يفيد أنه كان يفكر كثيرًا. وأثناء ذلك اصطدم نظره بالبطاقة التعريفية الخاصة بها التي تعلقها على سترتها.

- رنيم مصطفى.

ثم بنظرة فاحصة لهيئتها تابع:

- هل أنت عربية؟!

- مصرية، وأعتقد أنك أيضًا...

- لبناني.

شعر أبيض ينحسر عن جبهة عالية، عينان عميقتان عنبيتا الاخضرار معشقتان في شبكة من التجاعيد. على مشارف الستين، يبدو وسيمًا تلك الوسامة التي تجبر أي امرأة على أن تؤخذ بها. لم يكن الأمر لتناسق ملامحه وجاذبيتها، بل كان هناك سحر خاص ينبثق منه. وهي التي كانت تعي جيدًا مكمن السحر ومحوره، كانت تعلم قوة ما يملكه هذا الرجل ومدى سطوته.

- إنه لشيء مشرف حقًا أن تعمل امرأة عربية كأمينة متحف بهذه الأهمية.

قالها ثم اعتذر منها لأنه يريد أن يستكمل جولته دونما حتى أن ينتظر ردها.

- في حال أردت أي مساعدة، أنا موجودة.

- أشكرك. سألجأ إلى ذلك بالطبع.

لا تستطيع تفسير ما يحدث لها، وكأن العالم من حولها كله توقف ولا يدور إلا في فلكه هو. للمرة الأولى يحدث لها ذلك. لطالما مر عليها أشخاص من كل شكل ولون، ولكنها كانت كما لو أنها

مدفوعة بقوى سحرية، قوى تجعلها متسمرة مكانها، تنتظر أن يلتفت للخلف ليطلب مساعدتها.

ولكنه لم يفعل. فكرت أن تذهب إليه وتدعوه لفنجان من القهوة. فهو عربي، وهي تملك حنينًا لعروبتها التي لم تحمل منها سوى ملامحها. ستطلب منه أن يحدثها عن مغامرات الشاطر حسن، وعن المارد في قصص ألف ليلة وليلة، أو قصة الحب التي جمعت بين قيس وليلى. ستخبره أن يحدثها عن فتوحات وانتصارات خالد بن الوليد، وطارق بن زياد، والناصر صلاح الدين الأيوبي. ستطلب منه أن يزيح الطبقة الغليظة المعتمة التي تغلف روحها وشعورها بغصة الحلق والقلب كلما سألها أحد هل أنت عربية، وتضطر وقتها أن تقول: "نعم، عربية". ولكنها في واقع الأمر تفتقد ذلك كثيرًا وتفتقده.

كانت سوف تتقدم إليه لتخبره عندما التفت إليها وحياها بإيماءة من رأسه.

- سعدت بمعرفتك... إلى اللقاء.

وقفت تتبعه بنظرها حتى خرج إلى الطريق مُشرعًا مظلته في وجه المطر.

وجدت ثلاث مكالمات من مدير المتحف جاءتها خلال نصف الساعة التي كانت خلالها في القاعة، فاستغربت؛ إنها العاشرة، لماذا يتصل بها ثلاث مرات في أقل من خمس دقائق في هذا التوقيت المبكر؟! هل هناك كارثة قد وقعت؟ عاودت الاتصال به، فجاءها صوته على الفور:

- هل يمكنك المرور علي؟ هناك أمر هام أريد اطلاعك عليه.

كان من الواضح أنه أمر هام فعلًا، فصوت مديرها كان ملئ بالحماسة على غير العادة.

استقلت المصعد للدور الرابع؛ وهو الدور الإداري الذي تشغله مكاتب الموظفين بالمتحف.

قبل أن تجلس بادرها بالكلام:

- لقد تلقيت "إيميلًا" مساء أمس من "مارغريت داميش" أخبرتني فيه أنه تمّ إطلاق تعاون دولي كبير، مشروع مشترك بين المتاحف وخبراء الفن وعلمائه وباحثيه. يشارك فيه أكثر من 35 متحفًا من أشهر متاحف العالم في البحث وراء القطع الأثرية الهامة؛ لتطوير فهم أوسع للمواد

والممارسات الفنية في العوالم والحضارات القديمة. وهم الآن يستعدون للعمل على مشروع هام وخطير مفعم بالإثارة والغموض "مومياوات الفيوم".

عندما نطق بـ "مومياوات الفيوم" اقشعر جسدها، فلطالما كانت هذه المومياوات محل حيرة وشك وفضول بالنسبة لها.

طلبت مديرة الصندوق مشاركة المتحف في هذا المشروع الهام؛ سواء أكان ذلك بتمويل مادي أو بمساهمة علمية. واسمك أول ما خطر في ذهني. أعتقد أن أطروحتك كانت عن الحضارات القديمة.

فابتسمت وهي تخبره بثقة:

- كان عنوان أطروحتي "تمازج الفنون في الحضارات القديمة، مومياوات الفيوم نموذجًا".

- ممتاز. أعتقد أنني بذلك أجدت الاختيار، وبالطبع أمر الموافقة أو الرفض على مشاركتك يرجع لك في المقام الأول.

- بروفيسور أنطونيو، هل تعتقد أنني يمكن أن أفوت فرصة مثل هذه؟!

- حسنًا، سأدرج اسمك وخبرتك في ملف الترشح، وأعتقد أنهم أيضًا لن يفوتوا على أنفسهم هذه الفرصة.

غادرت مكتبه وهي سعيدة ومتحمسة. تعودت على البحث والدراسة والبحث وراء مومياوات الفيوم، والاشتراك في هذا المشروع الهام والمؤثر سيجعلها تحظى بشهرة أوسع. والأهم من ذلك كله أن مومياوات الفيوم كثيرًا ما أثارت تساؤلاتها.

10

من خلف زجاج منزلها، كانت تتابع الإوز الأبيض وهو يسبح في القنوات المائية. هذا المشهد يبعث السرور والراحة في نفسها. منزلها يتخذ شكل مكعب زجاجي، ويقع في أشهر وأهم ميدان في المدينة، ويطل على كاتدرائية سانت ماريا ديل فوري، وشاطئ البحيرة. ولكي تسكن في مكان مميز كهذا، كان عليها أن تدفع مقابل ما يستحقه ذلك. ولأن المشهد يستحق الكثير، كان إيجاره يقتطع جزءًا كبيرًا جدًا من راتبها. كان بإمكانها أن تستأجر منزلًا أقل سعرًا بمساحة أكبر. ولكن مساحة البيت لم تشغلها.

غرفة نوم واحدة ملحق بها حمام، وأخرى للمعيشة، وصالة مربعة، وجدران معلق عليها عدد من اللوحات، ومطبخ مفتوح على الصالة؛ كان هذا كل ما يلزمها.

عوَّضها هذا المنزل عن سنوات من الشقاء عاشتها في منزل طالما كرهته، منزل يقع على أطراف بلدة لم يسمع عنها أحد. وتسكنها مجموعة من الفلاحين وعمال المصانع. بلدة لا يوجد بها مكان ترفيهي للسكان؛ لا حدائق، لا منتزهات، لا دور عرض. المطعم الذي يقع على الطريق السريع يديره رجل وزوجته تجاوزا الستين. قائمة طعامه تضم صنفًا واحدًا وهو "الاسباجتي بكرات اللحم". لا يرتاده سوى سائقي النقل على الطرق السريعة، وكان من النادر مرور سيارات خاصة في هذا الطريق. فهذه القرية كانت بمثابة نهاية العالم.

المميز في تلك البلدة أن كل شيء فيها كان وحيدًا؛ وكأن أكثر من واحد سيُعَد خطأ فادحًا: مخبز، بقال، مستوصف، مكتب بريد، متجر، قرطاسية، مطعم.

يكفي أن تقول: "سأذهب للمكان الفلاني"، ليعرف الجميع وجهتك. ومن المؤكد، كان ذلك مريحًا بالنسبة لأصحاب المحال؛ فهم ليسوا بحاجة للتفكير في عناوين. لم يشغل بال البقال أن يطلق

على بقالته بقالة الأسرة السعيدة مثلًا. ولم يهتم الجزار بأن يطلق على جزارته جزارة المحبة. ولم يفكر صاحب المخبز أن يعلق يافطة على واجهة المكان بمخبز الرضى. فكل ما كان عليهم فعله هو إضافة "ألف ولام": المخبز، القرطاسية، الجزار، البقال.

عاشت في تلك القرية كالعدم مثلها ومثل كل الأشياء بها. مجرد طيف لا قيمة له، تسكن في منزل فقير، متشقق الجدران، لا تدخله شمس. الأبواب متآكلة، الأرضية نخرها السوس، المقابض محطمة، السقف متهالك، الإضاءة شبه معتمة.

الفرق كبير جدًا بين البيتين، كبير لحد أنه لا يمكن استيعاب أن من عاشت في المنزل الفقير هي نفسها من تعيش هنا الآن.

ولكن مع كل ما تملكه، ظل شعور الوحدة يضنيها ويأكل من روحها. وبالرغم من أنها محاطة دائمًا بكم وافر من الناس- في العمل، في المعارض، في المؤتمرات، في الحفلات، في تلبية دعوات الغداء والعشاء- لم يخفف ذلك شعورها بالوحدة، بل ضاعفه. فأن تكون محاطًا بعدد وافر من الأشخاص ولا تستطيع أن تحكي معهم، وأن تقص عليهم مشاعرك، يضاعف إحساسك بالوحدة.

أن تكتفي بالإجابة على سؤالهم لك: "كيف حالك؟"، بقولك: "بخير"، في حين أنك لست بخير على الإطلاق، ولكنك لا تستطيع أن تخبرهم عن ألمك، عن معاناتك، عن مشاكلك، عن قلقك.

لأنك تعلم أن مشاكلك لن تسترعي انتباه أحد. ربما يسمعونك جيدًا، ويضعون على وجوههم تعابير ملائمة لوقع كلماتك. ولكن، في النهاية هم لن يكترثوا.

هي في شوق ليد تربت عليها، يد تلمسها بحنان، يد تخبرها: "اطمئني، أنا أهتم لأمرك".

11

أخبرها مديرها أن إدارة المشروع وافقت على ترشحها، وعليها أن تتواصل معهم لتتم إجراءات الالتحاق الخاصة بها. سعدت كثيرًا بهذا الخبر، وقامت على الفور بإرسال الأوراق المطلوبة كافة. وفي غضون يومين، وصلتها دعوة بالانضمام لحضور المؤتمر الأول للمشروع الذي سيقام في روما خلال الأسبوع المقبل.

نظرة واحدة إلى أسماء المنضمين للمشروع كانت كافية لتعلم أنها وسط نخبة كبيرة من أساتذة الفن ومؤرخيه وخبرائه. وكانت هذه فرصتها، فرصتها لتعرض عليهم نبوغها وتفوقها.

صحيح أنه في مراحلها الدراسية المختلفة، وحتى حصولها على شهادة الدكتوراه، كان جميع أساتذتها يقرون بذلك. ولكنْ هذه المرة الأمر مختلف. فالأسماء التي ستشارك في المشروع من أهم الأسماء في مجال الفنون والآثار بجميع فروعها. وجميعهم يفوقونها كثيرًا في العمر، ويشغلون مناصب كبيرة، وأغلبهم أستاذ كرسي أو يرأسون قسم الفنون في أهم جامعات العالم.

وكانت فرصتها في أن مومياوات الفيوم رسمت لأجدادها، وعثر عليها في وطنها. بالإضافة إلى أن هذه المومياوات رسمت في العهد الروماني، ومن ضمنها لوحات لشخوص رومانية؛ وهي حصلت أخيرًا على الجنسية الإيطالية، فيجب أن تثبت للجميع أنها مؤهلة للبحث في ذلك.

وقفت أمام خزانة ملابسها لتختار ثيابًا تليق بهذا المؤتمر. لم تجد أكثر ملاءمة لهذه المناسبة من تايير من تصميم "نانا ريتشي"، وآخر من من تصميم "دولتشي اند غابانا". تحب تصميماتهما لأنها تمتاز بالكلاسيكية مع لمسة عصرية. أخذت وقتًا أكثر في اختيار الأحذية وحقائب اليد والأحزمة و"الأكسسوار". كانت تعلم أن مكملات الأناقة أهم من الملابس نفسها. إنها كالموتيف بالنسبة للوحة؛ يضفي عليها مزيدًا من الرونق والجاذبية. فاختارت لكل طقم ما يليق به. بالنسبة

للمجوهرات، كانت تحب الزمرد واللؤلؤ والفيروز. وكان حجرها المفضل "الماس" الذي يمنحها طاقة إيجابية عندما ترتديه.

حاولت أن تنام في وقت مبكر عن موعدها المعتاد؛ لتحصل على قسط وافر من الراحة تمنحها النشاط والحيوية. ولكنها ما إن وضعت رأسها فوق الوسادة حتى عاودتها صورة الفتاة مجددًا؛ الفتاة التي تخشاها، التي تطل عليها من خلف لوح زجاج كاتم للصوت فلا تصل إليها كلماتها، ولكن من الواضح من ملامحها أنها تصيح بها وتقذفها بفظائع السباب. وكالعادة، تختفي فجأة كما تظهر فجأة، فتكف عن الارتجاف خشية من رؤيتها، وبعدها دائمًا تلفها الذكريات؛ ذكريات بعيدة تظهر فجأة من دهاليز الذاكرة لتتصدر المشهد.

أخذتها معها لهناك، لليوم الذي كان عليها فيه أن تجمع حقيبتها لتسافر إلى فلورنسا للالتحاق بالأكاديمية. تذكرت قلقها قبلها عندما لم تجد ما يمكنها أن تضعه في حقيبتها. وأن كل ما تملكه معطف مهترئ، وفستان صنعته لها أمها من قماش ثوبها القديم. يومها فكرت في أن تستغني عن المنحة؛ فلم يكن من الممكن أن تطأ قدماها هذه الأكاديمية التي لا يلتحق بها إلا الصفوة بهذه الملابس المهلهلة.

جعلتها ذكرى يد أمها وهي تهزها برفق من كتفها لتخبرها بأن تستعد للذهاب لشراء ملابس جديدة تهتز من جديد. كانت سعادتها يومها لا حد لها. شعرت بحنين جارف لأمها، لسماع صوتها الخفيض الذي يمنح إيحاء بأن أحبالها الصوتية ترتعش، للمس يدها الدافئة؛ حنين لرؤية تعبير الرضى الذي تضعه على وجهها وهي في أصعب الظروف فقرًا وقهرًا.

شعرت بالأسى من أجلها، ولامت نفسها؛ فهي لم تعد تزورها خشية الاصطدام مع هذا المكان؛ المكان الذي يفتح ذكريات الماضي الذي تحاول أن تنساه، ويضعها وجهًا لوجه مع هذا الجزء من حياتها الذي تحاول أن تتنصل منه، هذا الجزء الذي لم تحاول أن تأتي على ذكره مع أحد من أصدقائها أو زملائها أو معارفها. وعندما كانوا يحاولون التسلل إليه كانت تبدل الموضوع بلباقة شديدة. لذا، لم يعرف أحد شيئًا عن ماضيها.

لم يعرف أحد من أين هي؟ وأين نشأت؟ ومن أهلها؟ أين هم؟

قامت بالضغط على رقم هاتف بيتهم، فأجابت أمها بعد جرس طويل بالصوت نفسه الخفيض ذي الارتعاشة.

- أمي، كيف حالك؟

- بخير وأنت؟

- أعتذر لأنني لم أتواصل معك منذ فترة. ولكن، كما تعلمين، ظروف العمل...

قاطعتها أمها بسعال جاف:

- نعم... نعم... أتفهم الأمر. لا داعي للاعتذار؛ أهم شيء أنك بخير.

- هل أنت مريضة؟

- منذ فترة أصابني السعال، ولا يريد أن يتركني. ذهبت للطبيب، ووصف لي علاجًا ولكنه لم يفعل شيئًا.

- يمكنك الذهاب لطبيب آخر.

- سأرى.

- هل المال الذي أرسله لك يكفي؟

- نعم، شكرًا.

- أما زلت تصرين على العمل في الصالون.

- انتبهي إلى نفسك وأتمنى أن أراك في أقرب وقت.

ثم دخلت في نوبة سعال حادة.

- إلى اللقاء رنيم.

وأغلقت الخط دون أن تسمعها وهي تخبرها:

- سأسافر لحضور مؤتمر هام. وفور وصولي سآتي لزيارتك. يمكن حتى أن نلتقي في روما، ما رأيك؟ ونقضي هناك إجازة بضعة أيام.

12

في قاعة المؤتمر، افتتحت رئيسة المشروع الجلسة، وتحدثت عن أهمية هذه اللوحات الفنية والمومياوات لمدة تزيد عن نصف ساعة، واختتمت كلمتها قائلة: "في عام 1887، عثر الباحث البريطاني الشهير ويليام فليندرز بيتري على هذه المومياوات. كان بيتري يبحث عن مدخل هرم الفرعون أمنمحات الثالث، وأثناء ذلك وجد مقبرة رومانية ضخمة عثر فيها على مومياوات. وهذه المومياوات كان ملصوقًا بها وجه صاحبها، وتعتبر من أقدم اللوحات في التاريخ.

مصطلح "صور الفيوم" ليس دقيقًا تمامًا؛ فهو أيضًا يشير إلى صور لمومياوات عثر عليها خارج منطقة الفيوم، في طيبة القديمة، وفي منطقة شلال النيل، والإسكندرية؛ المدينة التي وجد بها عدد كبير من وجوه الفيوم. الغريب عن وجوه الفيوم أنه تم العثور عليها صدفة وبسهولة، ولم يتم التخطيط للتنقيب عنها. ولذلك، فإن دراسة صور هذه المومياوات تثير أسئلة أكثر تصعب الإجابة عنها، وتنتهي بنا من حيث يفضل المرء أن يبدأ.

لذلك، سوف نحاول بقدر الإمكان دراسة هذه القطع الجنائزية المرسومة قديمًا، قديمًا جدًا، وذلك بهدف تطوير اتجاهات بحثية أكثر وأكبر؛ وذلك من خلال المزيد من البحث التعاوني. مشروعنا يطمح في المقام الأول إلى التفكير خارج الفقاعة.

هناك جهات متعددة قدمت تمويلًا ماليًا كبيرًا للمشروع. وعلى الباحثين تقديم ورقة وافية يشرحون فيها النقاط التي سوف يتخذونها كمحور لدراستهم وأبحاثهم، وتحديد ذلك بدقة. نحن هنا قد وضعنا جميع الآليات اللازمة تحت رعايتكم؛ سواء أكانت مادية أو بحثية. ففي النهاية، نريد أن نعرف كل ما يتعلق بهذه القطع، وأن نكشف عن أسرارها التي دفنت معها منذ آلاف القرون.

الهدف الأساسي للمشروع هو فهم الشخصيات التي تمّ تصويرها على اللوحات، واستكشاف الجوانب المادية للأعمال: من صنعها؟ كيف كانت تعمل ورش عمل أولئك الفنانين القدامى؟ وما التقنيات التي تم استخدامها؟ وذلك سوف يتحقق من خلال فحص البقايا المادية للعالم القديم؛ فهو ما سيوفر لنا صلة ملموسة بالأشخاص القدامى وحياتهم".

هب الحاضرون في المؤتمر متحمسين؛ وقدم كل منهم نفسه، واستعرض بشكل سريع ورقة البحث الذي سوف يعمل عليه. من أسماء الذين قدموا أنفسهم، علمت مدى أهمية هذا المشروع؛ فالحاضرون ليسوا فقط من أهم الأسماء في الفن التشكيلي، بل هناك باحثون ومؤرخون في أمور عديدة ومختلفة. مؤرخون في الجغرافيا والتاريخ، ومؤرخون في علوم النبات والأخشاب والمواد العضوية، ومؤرخون في المنسوجات، ومؤرخون في صناعة الحليّ، وباحثون في تراكيب اللون وفي الأحجار الكريمة.

صحيح أن تعريف تاريخ الفن هو البحث وراء كل ما يخص ويحيط بالقطعة الفنية من مظاهر تشكيلية، وما أدى بالفنان لرسمها، والحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في حقبة رسمها. وهذا الكم من المؤرخين والباحثين يؤكد جدية المشروع والقائمين عليه في الوصول لما وراء هذه الأعمال.

قامت بخطوات واثقة لتلقي كلمتها. كانت تبدو أنيقة ومثيرة في "تايير" من اللون الأرجواني وقميص حريريّ أبيض. "الجونلة" تقف عند الركبة، تبرق من تحتها خيوط "شرابها" الكريستالية. لونها الخمري، وشعرها الذهبي المتموج، وعيناها الواسعتان، وتناسق ملامحها، وابتسامتها، وحركاتها، وإيماءاتها... كل هذا جعل الأعين تتسع إعجابًا بها؛ هذا الإعجاب الذي زاد عندما وزع مكبر الصوت في القاعة صوتها الناعم بلكنته المميزة. "في البداية، أود أن أقدم خالص تقديري لجميع السادة الحضور الذين أكن لهم خالص الاعتبار والتقدير، وأريد أن أقدم لكم جزيل الشكر باسم أجدادي المصريين الذين تفضلتم مشكورين بالبحث في تاريخهم وكشف أسرارهم". تعالت همهمات الحاضرين. "أنا رنيم عبد المولى مصرية، وأفخر بقدماء المصريين من أجدادي وحضارتهم التي طالما حيرت العالم. وإنه لفخر لي أن أنضم إلى هذه الكوكبة من الأسماء اللامعة للبحث عن هذه الوجوه والكشف عنها. من ناحية أخرى، لقد عشت طوال حياتي في إيطاليا، وتعلمت فيها، وعملت بها، وأشعر أنني أنتمي إلى هذا البلد وجزء منه. وبما أن أصحاب هذه الوجوه خليط من رومان

ومصريين وإغريق ومتأغرقين أيضًا، فهذا يحمسني كثيرًا للكشف والبحث وراءها. تخصصت في دراسة فنون الحضارات القديمة وكان عنوان أطروحتي "الفن في الحضارات القديمة، وجوه الفيوم نموذجًا". أنا سعيدة بانضمامي للمشروع، وشكرًا لحسن استماعكم".

بالرغم من أن كثيرين قبلها وقفوا على المنصة للحديث؛ كثيرين يفوقونها في العمر والخبرة، ولكن لم تشتعل القاعة بالتصفيق الحار إلا لها.

1

الإسكندرية، القرن الأول بعد الميلاد

منتصف أغسطس، الطقس شديد الحرارة. في "إستاد" الإسكندرية الروماني بتصميمه الدائري، وبمقاعده التي نحتت من الرخام، تجمع الجمهور لمشاهدة هذا الحدث الهام "المصارعة الرومانية" الذي تمت الدعاية له قبل عدة أسابيع، فامتلأت الشوارع بملصقات ورق البردي تدعو لمشاهدة هذا الحدث العظيم. ضجيج يأتي من كل صوب من داخل "الإستاد" ومن خارجه، أيضًا بعد أن منع الحراس دخول باقي الجمهور لمشاهدة العرض بسبب امتلائه بالكامل.

لم تخفت الضجة إلا عندما قرعت الطبول بقوة لتعلن عن قدوم نائب الملك وزوجته لحضور الحفل. أقبل عليهما مسرعين قاضي القضاة وحاكم الإسكندرية، وانحنيا أمامهما لأقصى درجات الانحناء.

نائب الملك في الثلاثينات من عمره، قوي البنية، تبرز عضلات جسده كمنحوتة من قبل نحات روماني يملك الخبرة الكافية في هذا الفن ليظهر جسده بمثل هذا الشكل المتسق المتناسق. وسامته يشوبها بعض من القسوة، ومن الواضح أنها سمة من سمات شخصيته، فلم يحاول أن يبتسم منذ دخوله "الإستاد"؛ حتى وهو يرفع إحدى ذراعيه عاليًا ليحيي الجمهور مرتديًا العباءة الرومانية ذات اللون الأرجواني والمزينة بالأوسمة والنياشين. زوجته يتغنى بجمالها سكان المدينة. فهي ذهبية اللون، رشيقة القد. وأهم ما يميزها عيناها البنيتان الواسعتان تظللهما الرموش الكثيفة. يزين جيدها الطويل عقد مشغول من الذهب ومحلى بفصوص من العقيق. ترفع شعرها وتزينه بإكليل مطعم بالياقوت والماس.

ترتدي عباءة رومانية بيضاء، وفي قدميها وضعت صندلًا "بسيور" ذهبية، فكانت تبدو تحت أشعة الشمس كجنية تضيء وتبرق. جلست مع زوجها في المقصورة الرئيسية، يحيط بهما عدد كثير من الحراس. فبعد ثورة الغلال الأخيرة، أصبح الوضع غير آمن تمامًا، وأصبح نائب الملك يعيش تحت الكثير من التهديدات من الداخل والخارج.

دخلت الفرقة العسكرية الملكية بخطوات منتظمة، وقد ارتدى أفرادها بذلات ملونة وخوذات نحاسية مزينة بالريش. بعدما عزفوا النشيد الوطني للإمبراطورية الرومانية، تقدموا في خطوات منتظمة، وتوقفوا أمام المقصورة الملكية، وأخذوا يضربون الأرض بقوة، ويحيونه برفع أسلحتهم. وبعد أن خرجوا من الحلبة، أعلن بوق بدء الحفل. دخل المهرجون من الأقزام والقرود والحواة. قدموا فقراتهم وسط تجاوب شديد من الجمهور الذي أخذ يصيح ويضحك ويصفق. ثم خرج المهرجون من الحلبة، ودخلت الحيوانات المفترسة (فهود، أسود أفريقية، وعدد من العجول والثيران والغزلان). انقضت الحيوانات المفترسة على فرائسها بعد ملاحقتها واصطيادها الواحدة بعد الأخرى وسط صياح الجمهور.

في ظهيرة ذلك اليوم البعيد من القرن الأول بعد الميلاد. كانت الوحيدة المستاءة والمشمئزة مما يحدث هي سيرينا؛ زوجة نائب الإمبراطور التي جلست منكمشة على مقعدها برعب، تحاول أن تخفي نظرها بيدها تارة، وتغمض عينيها بقوة في أخرى.

بعد أن نهشت الحيوانات المفترسة لحوم فرائسها، نظف الحراس الحلبة من أشلاء الحيوانات وبقاياها، ثم رشوا الرمال على الدماء التي غطت الأرضية. بعدها، دخل الحلبة المساجين الذين تم القبض عليهم بتهمة التحريض على ثورة الغلال؛ عراة تمامًا، مقيدين من أيديهم وأقدامهم بجنازير غليظة.

وجد قاضي القضاة أن تنفيذ حكم الإعدام عليهم هنا في هذا المكان، ووسط هذا الجمهور، وفي وضح النهار، وتحت شمس أغسطس اللاهبة سيكون درسًا وعبرة للمصريين والإغريق والمتأغرقين حتى لا تذهب بهم أفكارهم الرعناء ليحذوا حذو هذه الفئة الضالة.

عددهم يفوق الثلاثين، بأعمار وملامح مختلفة. قواهم خائرة، شعرهم مشعث، لحاهم طويلة. منهم من لم يتجاوز العشرين، ومن فاق الخمسين. وبالرغم من اختلافات العرق واللون، هناك سمة

تجمع بينهم؛ فقد كان يظهر عليهم البؤس الشديد، وذلك جراء أنواع التعذيب القاسي التي تعرضوا لها. علامات الجروح والحروق الغائرة في أجسادهم تكشف ما تعرضوا له من أذى.

تقدم المحكوم عليهم بالإعدام، وعلقوا فوق أعمدة. الجميع ينتظر الطريقة التي سوف يلقون بها مصيرهم. لم يكشف القاضي عنها لجمهور الرومان الذي يتعطش للدم، ويثرثر متخيلًا ومرجحًا أبشع الطرق. ولكنّ أكثرهم وحشية وتوقًا للعنف والدماء لم تصل مخيلته لما دبر لهم. لم يصل لمستوى تفكير أحد أنهم سوف يطلقون عليهم حيوانات مفترسة تم تجويعها عمدًا لعدة أيام.

دخل عدد من الحراس يجرون وراءهم مجموعة متنوعة من أشرس الحيوانات المفترسة: أسود، فهود، ضباع. ثم قاموا بفك أطواقها وأطلقوها.

حاولت سيرينا غض بصرها عما يحدث. نظرت إلى قاضي القضاة الذي رسم على وجهه ابتسامة رضى.

"كيف بإمكانك أن تفعل ذلك؟ ما هذه الوحشية؟"

- سيدتي، هؤلاء يستحقون ذلك وأكثر. إنهم مجموعة من المصريين والإغريق من الرعاع والأوباش.

- كيف تسمح لنفسك بأن تطلق على المصريين والإغريق هذين النّعتين أمامي؟

- أعتذر لك سيدتي. أنا لا أقصد الإهانة بشكل عام. أنا أقصد هؤلاء الحثالة الذين حرضوا على الثورة. ولو كانت الثورة قد نجحت، يؤسفني أن أقول إنك وجلالته وأنا كنا سنكون مكانهم الآن.

وأنهى كلامه بابتسامة صفراء مثل لون أسنانه.

سيرينا تكره هذا الرجل اللئيم، وتعلم المغزى من كلامه. ودت لو تقوم وتشده من لحيته التي يطولها ويهذبها على هيئة الحرف 7 الذي يرمز للعدالة، وتخبره أنه لا يفهم شيئًا عنها.

مجموعة من فتيات روما الجميلات، يرتدين ما خف وشف من الملابس، ويحملن في أيديهن قناني فخار من النبيذ يسكبن الشراب في الأكواب لنائب الملك وحاشيته. تجرعت عددًا منها علها تذهب بعقلها ولا تشعر بما يحدث أمامها. ولكن ما حدث كان عكس ذلك تمامًا، فمرارة مذاق النبيذ

في حلقها، ورائحة الدماء في أنفها، وصراخ المحكوم عليهم في أذنها، ومنظر نهش الحيوانات المفترسة لحومهم الحية؛ كل ذلك أثار معدتها، وجعلها تتقيأ كل ما في جوفها باندفاع شديد أخذ طريقه ليندلق على قاضي القضاة، ويلطخ عباءته البيضاء باللون الأحمر القاني للنبيذ الذي كانت قد تجرعت منه الكثير.

اقتربت من زوجها:

"أشعر بالتعب الشديد. أريد أن أذهب".

أجابها دون النظر إليها:

- حاولي أن تتحملي. ليس من اللائق أن زوجة نائب الإمبراطور تترك العرض وتذهب.

- لا أحتمل الروائح والحرارة. أرجوك!

أشار إلى سكرتيره، وأخبره أن يشرف على ذهاب زوجته. أمر الرجل حاملي المحفة الملكية بالدخول، وأعطاهم أوامر بالإسراع بالذهاب بزوجة النائب إلى القصر.

2

أربعة من العبيد السود، الطوال، الغلاظ، الأقوياء حملوا المحفة من الأمام ومن الخلف، وقطعوا بها الشوارع بسرعة البرق. الغطاء الذي سقفت به المحفة يحجب الشمس، ولكنه لم يحجب الحرارة الشديدة. الطريق من "الإستاد" للحي الروماني طريق طويل. ولكن العبيد اختصروه بعبورهم من الطريق الجديد الذي صممته فرقة من المعماريين الرومان الذين لديهم خبرة في تصميم المباني والطرق، فقاموا بشق طريق بجوار القنال لمرور النائب وحاشيته، وأحاطوه بسياج من الخشب المتين الذي تسلق عليه نبات الياسمين واللبلاب، وتفوح منه روائح منعشة تجلبها نسمات الهواء الرطبة.

عندما وصلت إلى القصر، كانت تشعر بإعياء شديد. ركضت الجواري إلى سيدتهنّ، وغسلن وجهها بماء مقطر بزيت الزهر، ودلّكن جسدها، وروَّحن عنها بمراوح الريش.

كان قصر نائب الملك هو قصر الملكة كليوباترا في السابق، وهو واحد من أجمل قصور العالم. صمِّم على الطراز البطلمي في العمارة، بمسلات عالية، وأرضية رخامية. وأهم ما يميزه منحوتة لرأس قيصرون ابن كليوباترا في الباحة. يتكون القصر من طابقين، وفناء واسع مبلط بالرخام، تتوسطه فسيفساء نحت داخلها تمثال للإلهة "نوو"؛ ربة المياه، وهو ما يفسر اندفاع الماء من فمها.

أربع درجات رخامية واسعة تقود إلى باحة المنزل التي شغلت بالمصاطب الرخامية. ويشغل المطبخ الكبير جانب البيت، وملحقة به غرفة الكرار التي يوضع بها الخزين الذي جلب من روما وإسبانيا وفرنسا والهند وبعض بلاد أفريقيا. إذ اعتاد تجار المشرق والمغرب عند مرورهم على ميناء الإسكندرية بعث ما لذ وطاب وغلا ثمنه وزادت قيمته من الهدايا لنائب الإمبراطور.

القدور النحاسية الكبيرة تنبعث منها روائح الطعام الشهية. المكان ممتلئ بالطهاة والجواري والعبيد الذين كانوا يجوبونه ذهابًا وإيابًا بهمة ونشاط.

توجّهت سيرينا بعد أن هدأت إلى غرفتها بالجناح الملكي بالدور العلوي من القصر، وطلبت من وصيفتها الحبشية التي تحبها كثيرًا أن تخبر جواري الحمام بتحضيره لها. عكست مرآة التسريحة الكبيرة المزخرفة بمياه الذهب التي تشغل حائط المكان وجومها. تبدو كمذهول من أمره. لم تستغرب منظرها، فمنذ دقائق قليلة كانت تجلس في حلبة وسط جمع من الناس الذين يصيحون ويشجعون أثناء مشاهدتهم الحيوانات الضارية تنهش رجالًا أحياء. لم تغب عن مخيلتها عين الفتى التي جحظت رعبًا وهو يقف أمام أسد يزأر بقوة في وجهه. تسمّر الفتى مكانه ثوانيَ، وخرّ صريعًا، والغريبة أن الأسد تركه وذهب ليبحث عن أحياء؛ وكأنه يريد أن يبلغ متعة لم يكن ليبلغها بافتراس جسد ميت.

خلعت التاج الذي يزين شعرها، وفكت ربطته، فانساب كشلال وغطى منتصف ظهرها. ألقت بنفسها على الفراش، وأفكار كثيرة تلف وتدور في رأسها، قطعها طرق الجارية على الباب:

- مولاتي، الحمام جاهز.

جلست تحت قدميها تفك لها خيوط رباط صندلها الذهبية التي تلتف على الساق وتصل للركبة.

في قاعة يغشاها بخار الماء الكثيف، يتوسطها حوض كبير مملوء بالمياه الساخنة جدًا كما تفضلها فيرفع مشرفو الحمام درجة حرارة المياه في الصهاريج. على الجدران، عُلِّقت حوامل وضعت فيها مشاعل نارية ووُزِّعت المباخر في الزوايا والأركان.

كان جسدها يسطع وسط الضباب؛ كما لو أنه منحوت من بلور. استلقت على مصطبة رخامية، واستسلمت ليد المدلكة الحبشية ذات الخبرة الفائقة بأمور التدليك. ومن معاشرتها لسيدتها، أصبحت تقرأها من ملامح وجهها لتكتشف ما تحمله في صدرها من سعادة، أو غضب أو حزن، أو تذمّر... وبناء عليه، كانت تدلكها بطرق مختلفة، وتختار زيوتًا مستخلصة من نباتات معينة؛ كل نوع مسؤول عن علاج شيء ما: زيت اللافندر يزيل التوتر، وزيت النعناع يساعد على الراحة ويجلب النوم المريح، وزيت اللوز يساعد على الاسترخاء، وزيت الورد يحفّز الجسد على الهمة والنشاط، وزيت القرنفل يقضي على الحزن، وزيت القرفة يشعل الرغبة الجنسية.

كانت تعتقد أن سيدتها ستعود من احتفال وهي سعيدة ومسرورة. لذا، أعدت لها خليطًا من زيوت زهور فواحة منعشة. ولكن هيئتها لم تكن تنم عن أي فرح؛ إذ يبدو عليها الحزن والشرود. وكانت حالتها تحتاج إلى أنواع مركبة ومخصوصة من الزيوت.

"عذرًا سيدتي، لكن هذا الزيت لن يأتي بنتيجة. أمهليني بعض الوقت لأصنع لك شيئًا مختلفًا يساعدك على تخطّي هذا المزاج السيئ".

لا صوت لها. هزت رأسها علامة إيجاب. فذهبت الجارية إلى إحدى الزوايا بنهاية الحمام، حيث كانت هناك رفوف رخامية وضع عليها عدد من القوارير بأنواع متعددة ومختلفة من الزيوت. أخذت تقطر منها سبعة أنواع مختلفة بكميات متفاوتة. زيت جلد الحوت كانت قطرة واحدة منه كافية جدًا لتبعث على الأمل والتفاؤل، بينما وضعت عدة قطرات من زيت زهرة اللوز وزهرة المشمش. وهكذا، باحترافية شديدة، كانت تختار من قوارير الزيوت لتصنع لسيدتها ما يمنحها السكينة والسعادة والهدوء.

وبعد نصف ساعة من التدليك بلين ونعومة أحيانًا، وبقوة في أخرى، قامت سيرينا وألقت بجسدها في الماء الساخن.

3

حسّنت الزيوت مزاجها، ولكنها لم تستطِع أن تمحوَ فزع الفتى. الذي لم تستطِع استيعابه حقًّا هو تلك النظرة بالرضى والانتشاء في عين زوجها. تعلم أنه قاسٍ، ولكنها لم تتخيل أن يصل إلى مثل هذه الدرجة. حتى وإن كان الجمهور كله في المدرج يصيح ويصفق ويشجع، ولكن لا دخل لها بهم؛ فهم ليسوا زوجها. ليسوا الرجل الذي تعيش معه في بيت واحد، وتنام معه في فراش واحد، وتشاركه كل شيء.

شعرت بالنعاس بفضل التدليك والماء الساخن فنامت، ولكنها لم تلبث أن استيقظت فزعة على صوت زوجها الذي كان يصيح فيها موبخًا:

"كيف بإمكانك أن تفعلي ذلك؟!"

- أفعل ماذا؟

- تتركين الحفل وتذهبين. إن في ذلك مهانة كبيرة لجلالة إمبراطور روما العظمى.

- وما علاقة إمبراطور روما العظمى في أنني أصبت بالمرض وبالغثيان وبالقرف وتركت الحفل وذهبت؟! ما الذي سوف يشكله ذلك من أهمية بالنسبة لجلالة الإمبراطور؟!

- لأنك بكل بساطة زوجة نائبه، وهذا الاحتفال تعبير عن السيادة الإمبراطورية في أهم مقاطعة لها.

نظرت إليه دون أن تجيبه، فاقترب منها، ورفع ذقنها إلى الأعلى بقوة. كان عرق نافر يبرز بشدة من جانب حاجبيه مُعبِّرًا عن غيظه.

- من الواضح أنك لا تريدين أن تنسي سلوك البرابرة من المصريين والإغريق الذين تنحدرين من سلالتهم. يجب عليك أن تسجدي شكرًا لي لأنني انتشلتك من الوحل، ورفعتك عاليًا، وأصبحت نبيلة تنتمين للإمبراطورية الرومانية.

فصاحت:

"هل حقًا ما تقول؟! سلوك برابرة! وما كان يحدث اليوم في حلبة المصارعة ما الذي تسميه؟ ما الذي يمكننا أن نطلق عليه؟ إنسانية؟ تحضّر؟ علم وتقدّم؟"

- هؤلاء الأوباش يستحقون ذلك ليكونوا عبرة لمن تسوِّل له نفسه خيانة روما العظمى.

لم تحاول أن تناقشه، إذ كانت تعلم أنه مريض بشيء يسمي روما العظمى.

"ولكن، هل يمكنك أن تخبرني لماذا تركت الأميرات الروميات الجميلات اللاتي ينحدرن من سلالات رومية نقية وطلبت الزواج مني؟"

"لأنني أحببتك".

همس لها ذلك في أذنها بصوت عذب، وضمها إليه، فشعرت أنها تذوب بين يديه. ولكن، فجأة أبعدها عنه، وهزّها بعنف.

"ولكن، يمكنني أن أهرس قلبي بحذائي إن كان سيقف حائلًا دون تحقيقي أحلامي".

بين ثانية وأخرى تحوّل لآخر. لم يكن ذلك بغريب عليه. إذ كان شخصية غريبة مضطربة، صعب فهمها، وصعب التعامل معها، وصعبة معاشرتها. وكانت قد بدأت تفهم ذلك وتعلمه تمامًا؛ لذلك بدأت تشعر بالنفور منه وعدم الثقة فيه.

عندما رأته للمرة الأولى في حفل تتويجه نائبًا للملك على مصر هامت به. كان يجلس على المنصة وسط عدد من الفلاسفة والحكماء وأمناء سر مكتبة الإسكندرية ومسؤولي معهد السبرايوم وقاضي القضاة وحاكم المدينة. كان في عباءته البيضاء يبدو كبدر وسط النجوم. وعندما تحدث بصوت هادئ رخيم، كل نساء المدينة فتنّ به.

كانت المرة الأولى التي تراه فيها وكرؤية القمر في السماء؛ نؤخذ به وننبهر، ولكن في الوقت نفسه نعلم أنه بعيد، بعيد جدًا عنا، والوصول إليه ضرب من الخيال. لذلك لم تعبأ كثيرًا للأمر.

وهي تسبح في البحر مع صديقتها المقربة هيرشيا، أخبرتها عن وسامة "ليوناردوز"، عن لون بشرته الذهبي الذي لفحته الشمس، وشعره المموج في حلقات شبه دائرية، ولون عينيه اللوزيتين الذي كان يضيء في شمس الظهيرة وهو يلقي خطبته. تنهدت أكثر وهي تخبرها عن ساعديه القويين، وطوله المفرط، وصدره العريض كمضمار خيل.

ضحكت هيرشيا، وقالت: "من الواضح أنك تُيِّمت به كالساذجات من نسوة المدينة. لا أعرف كيف يمكن أن يعجبكنّ هذا الروماني المغرور! أنسيتنّ كيف يعاملنا هؤلاء القساة المتعجرفون؟ إنهم يبغضوننا ويحقدون علينا لأننا نفوقهم علمًا وذكاء. في الوقت الذي كان فيه أجدادنا يصنعون الحضارات أين كانوا هم؟ لا وجود لهم. لذلك، دائمًا يحاولون أن ينقصوا من قدرنا. ويتفنّنون في طرق إهانتنا ليشبعوا نقصهم. بحق الآلهة جميعها؛ مزارع مصري فقير بسيط أحبّ إلى من ضابط روماني غني ووسيم ذي مكانة".

"تتحدثين وكأنني سوف أزفّ إليه. إنه مجرد إعجاب ليس أكثر".

"ولكن، من الواضح أنه إعجاب مفرط".

ثم أخذت ترشها بالماء بقوة في وجهها: "أليس كذلك أيتها المتيمة؟"

أخذت تسبح بعيدًا عنها وهي تردّد: "نعم، إعجاب مفرط".

13

مدينة فلورنسا 2018

عندما رأت هذه المومياوات للمرة الأولى أثارتها وشغلت تفكيرها. هذه الوجوه كانت ناطقة بشكل يصعب تصديقه. لطالما رأت بورتريهات، ولكن لم تكن قط بمثل هذا الشكل الواقعي. والأهم من ذلك أن هناك نظرة واحدة في عيونها؛ نظرة لا يمكن تفسيرها، وتعبير واحد. وكأنها تريد اطلاعك على أمر ما! ربما سرها الكبير.

استغرقت أكثر من شهر ونصف لتكوِّن قاعدة بيانات تستطيع منها أن تبدأ بحثها. في البداية حصلت على كتالوج وجوه الفيوم الذي نشر وطبع عام 2000، واحتوى على جميع وجوه الفيوم التي عثروا عليها، وأدرجت كل اللوحات بمعلومات عنها: أين ومتى اكتشفت، والمتحف الذي تعرض فيه، وتاريخ رسمها.

عدد اللوحات يقارب 900 لوحة موزعة بين عدد كبير من متاحف العالم. والأغرب من ذلك أنّها مدرجة داخل المتحف الواحد في أقسام مختلفة، فنجدها في قسم الآثار المصرية والرومانية والإغريقية. هذا الخليط في اللوحات التي رسمت وفقًا للمعتقدات المصرية على النهج الروماني والإغريقي في الفن جعلها تائهة بين الحضارات الثلاث.

إن كانت الوجوه جميعها تشبه بعضها بعضًا فيجب دراسة كل شيء في اللوحة بمنتهى الدقة: تسريحة الشعر، الملابس، الحلي. لأنها ستقود للكشف عما هو اكبر وأوسع ومن هذا المنطلق عليها أن تبدأ في بحثها.

فمثلًا، غصن الزينة الذي يمسكه عدد قليل جدًا من الشخوص يشير لحقبة زمنية معينة، ومجتمع معين، وله دلالة معينة. من الملابس نستطيع تعيين المهنة أو الرتبة. فمثلًا، وضْعُ الرجل

طرف عباءته فوق كتفه اليسرى دليل على عمله بالجيش الروماني. وجدت أيضًا أن كثير من اللوحات تشير إلى مزيج عرقي ناتج عن تزاوج المصريين مع اليونانيين ومع الرومانيين.

ولاحظت أن بعض اللوحات تشير إلى أن الفنان استخدم أداة تشبه كثيرًا ما يستخدم في سكين لوح الألوان الحديث. وهذه المجموعة من اللوحات كان أسلوب العمل فيها موحد: العيون بنية من لون الشوكولا الخفيف، والحواجب سوداء، ويظهر التجعد في بعض العيون، والشفاه وزوايا العين بلون أحمر ياقوتي، وتسليط الضوء على حافة الأنف.

بدا الأمر واسعًا ومتشبعًا ومشتتًا، وليس سهلًا إطلاقًا. وكانت تعلم أن البحث وراء ذلك سيستغرق الكثير من الجهد والوقت، وسيكون مبنيًا على نتائج أبحاث أخرى. ولكن، هي المتفوقة دائمًا والمتميزة دائمًا كانت واثقة أنها سوف تصل لشيء ليس بالضرورة أن يكون حقيقة حتمية، ولكنه بلا شك سيكون أقرب إلى الحقيقة.

كانت الاجتماعات تعقد بصفة شهرية لعرض أهم ما توصل إليه المشاركون في الأبحاث. والأعضاء المقيمون خارج إيطاليا كانوا ينضمون للجلسات عبر السكايب. أمّا من لم تسمح له ظروفه، فكان يسجّل مقطع فيديو، ويقوم بإرساله لمشرف الجلسات الذي يعرضه أثناء الجلسة.

خلال الجلسة الأولى تم استعراض نتائج كثيرة حملت اكتشافات هائلة.

تحدث المؤرخ الفني ورئيس قسم الفن الروماني بمعهد أورسو للفنون:

"من الواضح أن جميع الفنانين المبدعين لهذه الأعمال اندرجوا تحت مدرسة واحدة؛ وهي مدرسة "وجوه الفيوم"؛ تلك التي رسمها لأول مرة فنان بطبيعة الحال لم نعرف اسمه. هذا الفنان وضع ثوابت خاصة برسوم هذه الوجوه، وأهمها نظرة العين التي تبدو وكأنها هائمة في مكان آخر، والتي تمنحك إحساسًا بالكآبة والحزن؛ ربّما من أجل الغرض الذي رسمت من أجله. فهي رسمت من أجل أن تلصق على جثامينهم بعد الموت؛ فكيف يمكنها أن تمنحك تعبيرا عن التفاؤل أو السرور؟ هذا الفنان بقدر ما كان ذكيًا، استطاع أن يضعنا وجهًا لوجه أمام الموت الذي تجسده لوحات لأشخاص ذهبوا إلى عالم آخر. لذلك، هذا التعبير الذي من فرط ما رسم على وجوه الشخوص يمنحنا إحساس بأنهم جميعهم شخص واحد. نحن لا ننتبه لملامحهم بقدر ما ننتبه للتعبير

الخفي من وراءها، والذي يسبغ على الروح إحساسًا ثقيلًا بالغم؛ هذا الإحساس الذي لا مبرّر له سوى أننا نقف أمام أشخاص رحلوا".

قاطعه أحد الباحثين: في الواقع، إنّ عندي تفسيرًا آخر. اسمح لي أن أقوله: هذه اللوحات لم ترسم بغرض العرض في البيوت، ولكنها رسمت لمعتقد قدماء المصريين في البعث والخلود. وبالرغم من ذلك، نجدها خالفت ما اعتاد عليه المصريون القدماء، وذلك بلصق الوجه على المومياء. لذلك، من هنا ذلك المغزى وراء ذلك التعبير المحمّل بالكثير من الاستسلام، والذي يتشابه لحد أنه واحد

انتظر المؤرخ حتى أنهى الباحث كلامه وقال:

- هذا لا يختلف كثيرًا عمّا وضّحته. إن هذا التعبير يكاد يكون علامة موحَّدة لجميع الوجوه، وعلى اختلاف الفنانين وخبرتهم؛ وكأن أي تغيير في أسلوب رسم اللوحة لن يعتبر من ضمن هذه المدرسة.

تحدثت إحدى الباحثات:

- ولماذا لا نعتبر أن أهل المتوفى هم الذين كانوا يطلبون أن تتخذ صورة المتوفى هذا التعبير الشائع؟

- كما قلت: شائع! لكثرة تكرارها أصبحت لصيقة بهذا الحدث. أتعرفون ماذا يشبه الأمر؟! إنه تمامًا مثلما نذهب لاستديو التصوير، ويسألنا المصور إذا كنا نريد صورة بمواصفات معينة، فنجيبه بثقة: "إنها صورة رسمية لجواز السفر- للهوية الشخصية- رخصة قيادة". فيصوّرنا وفق معايير محددة. هذا ما حدث في وجوه الفيوم.

تحدثت الباحثة:

- الفرق هنا كبير جدًا. عندما نذهب إلى استديو التصوير فالمصور يستخدم آلة تقوم بعملها وفق تقنيات حديثة وبرمجة معينة، أما في وجوه الفيوم فالعمل يدوي وبأدوات بدائية. ولنوع من الفنون لم يكن موجودًا سابقًا فهذا في حدّ ذاته إعجاز.

- هذا مؤكد فهذه البورتريهات التي قاربت الألف تنم عن إعجاز وإبداع. لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك. وبالنسبة لي، هذه اللوحات تعتبر واحدة من أجمل ما اكتشف في تاريخ الفن.

عاد المؤرخ مرة أخرى للحديث وقال:

- لقد تحدّثنا عن التعبير، وكيف أنه متشابه في جميع اللوحات. هناك أمر أكثر أهمية من ذلك: كيف استطاع هؤلاء الفنانون رسم تعبير واحد بهذه الدقة المذهلة؟ وما السر في ذلك؟

ولمعرفة إجابة ذلك، كان لا بد من دراسة عدد من اللوحات رسمت على فترات زمنية متباعدة لضمان أن الفنان مختلف. لقد قمت بتحليل الألوان بعد وضعها تحت جهاز الموجات الكهرومغناطسية، وكشف فحص الصورة البانورامية أن سماكة الطلاء واحدة، ولم تتبدّل، وأنها رسمت بتقنية واحدة؛ وهي شمع العسل المسخن بمزجه مع ألوان مستخرجة من النباتات، وأهمها كان نبات الفوة الذي يمنح اللون الأرجواني، والذي ظهر بوضوح في أحد اللوحات، والتي تحتوي على الصبغة الأرجوانية، وهي لمومياء مصرية تعود إلى القرن الثاني الميلادي؛ عندما كانت مصر مقاطعة رومانية، وتعتبر أكثر واقعية وأقل شبهًا بالفن المصري في العصور السابقة.

أجابه بروفيسور والتر جيمس عبر السكايب من متحف والترز للفنون في بالتيمور، حيث توجد اللوحة:

- العلامات الأرجوانية في اللوحة توجد على سترته، وهذه العلامة تشير في روما القديمة إلى رتبة عضو في مجلس الشيوخ أو الفروسية.

قاطع الحديثَ بروفيسور ميشيل؛ عالم المواد:

- كذلك ينظر إلى اللون الأرجواني على أنه رمز للموت في بعض الثقافات، ورمز للحياة في البعض الآخر، وارتبط بالملوك في العصور القديمة، ولا يزال حتى اليوم. ولذلك، إن وجوده على هذه الصورة بالذات جعلنا نتساءل عن كيفية تصنيعه وما يعنيه.

أجابه مؤرخ الألوان والنسيج بجامعة ميشجن:

- لم يكن إنتاج الأصباغ عملية بسيطة. إذ يتطلب تصنيع الأصباغ في مصر، استيراد بعض المواد من بعض دول البحر الأبيض المتوسط: مثل جذر الفوة، وكيرميس الحشرات الطفيلية، أو من أماكن بعيدة مثل الهند كاللون الأزرق الداكن. تم "استزراع" أحد الملونات الخاصة والمكلفة للغاية والتي تسمى أرجوانية، والتي يتمّ الحصول عليها من محار الموركس؛ مما تطلب آلاف الحيوانات لإنتاج جرام واحد فقط من الصبغة. وسواء أكان من حشرة أو نبات أو حلزون بحري، فإن جميع العمليات تتضمن استخراج الصبغة والتحضير المعقد لجعلها أصباغًا قابلة للاستخدام ودائمة. لذلك، فنخبة المجتمع وقتها فقط هي التي كانت ترتدي الملابس ذات الألوان الزاهية.

أعلم أن النيلي- وهو مادة مثبتة تلتصق بالألياف وتصبح دائمة- والفوة صبغان يتم إنتاجهما من النباتات، ولكني وجدت مواد طبيعية أخرى لا تتطلب مزج العديد من المواد النباتية: مثل قشر البصل، وقشر الأفوكاد. وبما أن الألوان التي تستخدم في اللوحة مكلفة إلى هذا الحد، فمؤكد أن الفنان يتاقضى مقابل عمله الكثير. لو نظرنا للوحات فسنجد في البحث وراء بعض الأسماء والمراكز التي ألحقت بها، وشكل الملابس، وألوانها، والحلي التي كانت النساء يرتدينها كلّها أدلة على أنها رسمت لصفوة المجتمع، ورجال الجيش الذين كانوا بلا شك يمتلكون المال اللازم لرسم وجوههم لتلصق على مومياواتهم.

شكرته المشرفة على الجلسة، وبدأ باحث آخر في الحديث:

- لقد بحثت في اتجاه معاكس لما قام به بروفيسور "ميشيل"، إذ بحثت وراء عدد من اللوحات التي أُرِّخت من خلال الملابس والحليّ، ووجدت أنها رسمت في توقيت متأخر لوجوه الفيوم. اخترتُ هذه اللوحات بناء على اختلاف جذري في الشكل العام للوحة، ولا أقصد هنا السمة التعبيرية التي تظهر على الوجوه، والتي هي كما ذكر البروفيسور علامة مميزة بالرغم من أن حتى هذه العلامة ربما جاءت مختلفة بعض الشيء، هذا الاختلاف لا يصعب كشفه، ويمكننا ملاحظته. سوف أضع صور اللوحات على الشاشة لتشاهدوها.

قام إلى الجهاز، ووضع شريطًا مضغوطًا، وبدأ في عرض اللوحات. كان عددها حوالى 20 لوحة؛ أغلبها لرجال.

- عندما حدثت الكارثة الاقتصادية في روما المتأخرة ووصلت لمصر ومنها إلى الفيوم، حدث تراجع واضح في الإنتاج الفني، وكان أقل في المهارة والألوان المستخدمة في الطلاء، ونلاحظ في اللوحات التي رسمت في ذلك الوقت أنها لوحات رديئة ورخيصة، أنها ما يقرب من التحول إلى الأسرع والأرخص.

هذه اللوحات مثلًا رسمت بنوع رديء من الألوان، مقارنة باللوحات الأخرى التي رسمت لسادة الرومان من الضباط وصفوة المجتمع وأثريائه. الملابس والحليّ وطرق تصفيف الشعر تظهرهم من عوام الشعب. يمكننا أن نقول إنهم من المصريين أو المصريين المتأغرقين؛ لا نستطيع أن نحدد الهوية. وهذا يشير إلى أنّ بداية رسم وجوه الفيوم كانت لصفوة المجتمع الروماني، وبعدها انتشرت لعامة الناس. ولذلك، تعتبر هذه اللوحات التي أمامنا على الشاشة النسخة الشعبية من وجوه الفيوم، رسمها فنانون ليسوا على القدر نفسه من الإبداع.

قام باسترجاع اللوحات، ووقف عند لوحة:

- من الجائز طبعًا ألّا يكون رسّامو البورتريه في الفيوم هم أعظم الفنانين في العصور القديمة، فلم يكونوا في مستوى عالٍ باستمرار. نلاحظ هنا مثلًا طبقة من الطلاء الغزير استخدم فيها قشر البيض لتجفيف الطلاء بشكل أسرع، وأيضًا لتلطيف ضربات الفرشاة التي لا يمكن تغييرها. وهذا يفسِّر المظهر الشبيه بالرسوم المتحركة للوجه العام المتأخر من "بورتريهات الفيوم". فهذا الوجه الذي أمامنا أقرب منه لمسخ. وبالرغم من ذلك، أبقى الفنان عليه. فبدلًا من إهدار الخشب، فكر أن يبقى العمل على حاله. هذا العمل دليل جازم على أن الفنان لم يتقن عمله.

تحدثت المديرة:

- هذا اكتشاف جيد بالطبع؛ لأنه ينفي أنّ جميع وجوه الفيوم التي رسمت على مرّ الزمن متشابهة في التكنيك أو التقنية.

أبدى أحد الباحثين رأيه:

- عندي اعتقاد مختلف؛ فاللوحات التي ظهرت في فترة زمنية متأخرة من ظهور لوحات الفيوم كان عددها يتناقص شيئًا فشيئًا؛ فما عثرنا عليه من هذه الحقبة أقل من ربع عدد اللوحات على

مدار القرون الثلاثة. فلو تتبّعنا المنحنى البياني فسنجد أن ذروة رسم هذه اللوحات كانت في منتصف القرن الأول من الميلاد، وظل هذا المنحنى متأرجحًا ما بين صعود وهبوط حتى بداية القرن الثالث الميلادي، حيث بدأ في التناقص باستمرار، وفي نهاية الربع الأخير من القرن بدأ في التراجع بشكل كبير. حتى إن الصور التي عثر عليها في ذلك التوقيت عددها لا يتعدى أصابع اليد الواحدة. ولذلك، أرجِّح أن هذه العادة أخذت في التراجع. ونتيجة لذلك، لم يعد الفنان يعنيه إنتاجه، وربما أيضًا أنّ فنّاني هذه الحقبة المتأخرة لم يكونوا مدربين بشكل كافٍ كأساتذتهم الأوائل. وذلك ينفي ما قاله البروفيسور بأن هذه اللوحات أصبحت شعبية؛ لأنها لو شعبية لكانت أعدادها قد زادت وليس العكس.

تحدّث باحث آخر بصوت تشوبه الحيرة:

- هذه اللوحات التي عملت عليها، أين تعرض؟ لأنني أشك في أمر ما وسأعمل عليه، وربّما سيقودنا لاكتشاف مذهل؟

- سأرسل لك عناوين المتاحف التي تعرض بها على بريدك الإلكتروني.

كانت مديرة المشروع تتابعهما بجدية، ثم قالت:

- تنويه هام. هذا المشروع عمل جماعي، الغرض منه الكشف عن هذه اللوحات ومعرفة أسرارها لأنها اكتشاف مهم في تاريخ الفن. لذلك، يجب علينا جميعنا أن نتّحد معًا. على الموقع الخاص بالمشروع، هناك صفحة للأعضاء، لينشروا فيها ما توصلوا إليه لحظة بلحظة. ليس هناك داعٍ أن ننتظر لقاءنا الشهري لنعرض ما توصلنا إليه. ربما كشفك عن شيء ما سيفيد زميلًا لك في عملية بحثه. تمامًا مثلما حدث الآن.

أعلم تمامًا رغبة الباحث في العمل في الخفاء، وعدم الكشف عن فحصه إلا بعد الانتهاء منه. ولكن، هذا لن يجدي نفعًا أبدًا في مشروعنا. فهو عمل جماعي، ويجب أن نتكاتف جميعنا فيه. فإخفاء ما توصّلنا له لن يفيد أحدًا بل سيعرقل ويؤخر. وأعتقد أن إدارة المشروع لم تبخل علينا ماديًا أو معنويًا. فهي تدعمنا بالوسائل كافّة. كل ما أريده هو أن نتواصل بشكل يومي عبر الموقع الخاص بنا لنسرد فيه جميع أفكارنا. أكرر جميع أفكارنا وتساؤلاتنا.

14

عندما تفحصت "الكتالوج" الذي يشتمل على جميع صور لوحات الفيوم التي صورت بتقنية متطورة وحديثة، لاحظت أن هناك مجموعة خاصة من هذه اللوحات وجدت في مقابر مدينة فيلادلفيا لعدد من الرجال.. عندما دققت في صورهم أكثر لاحظت أن هناك شيئًا ما في غريب في ملامحهم. وفي عيونهم تحديدا "الأمر ليست له علاقة بنظرة العين، ولكن في شكل العين".

صاحت كمن اكتشفت شيئًا مثيرًا.

- هذه الصور بها انحراف واضح في حدقة العين.

في البداية، رجّحت أنّ الفنان ربما لا يملك الموهبة الكافية. ولكن، مقارنة ببراعته في توزيع الضوء واللون والاهتمام بالتفاصيل، يصعب تصديق ذلك. شعرت أن وراء الأمر شيئًا آخر.

عثر على هذه الوجوه جميعها في قرية فيلادلفيا بإقليم هوارة بالفيوم. ومن الواضح أن الفنان نفسه هو من رسم اللوحات جميعها؛ فضربات الفرشاة واحدة، والخطوط متشابهة.

أخذت الأسئلة تدور برأسها، وتذهب وتأتي بها. هل هناك عيب فعلًا في عيون هؤلاء الأشخاص وقصد الفنان إظهاره؟! أم العيب فيه هو؟

تجاوزت الساعة الثالثة صباحًا عندما خلدت بصعوبة للنوم. واستيقظت في السابعة بمزاج متعكر يصاحبها دائمًا عندما لا تنعس ساعاتها الكافية. لجأت إلى كوب كبير ومركز من القهوة ليساعدها على الاستفاقة. ولكنّ ما جعلها تفيق حقًا ليس القهوة، بل العيون التي تذكّرتها وهي ترشف الرشفة الأولى من فنجانها.

قرّرت أن تستشير أحد أساتذتها في هذا الموضوع ليؤكّد لها ما إذا كانت ملاحظتها في محلها أم لا. كانت ستتّصل بأستاذ تاريخ الآثار الرومانية الذي تقدره وتثق به. فكرت أن الوقت سيكون مبكرًا جدًا، ربّما مراسلته على الواتس آب ستكون أفضل. كتبت له في عبارة موجزة: "أحتاج إلى رأيك في أمر هام". وعلى الفور، كان رده: "يمكنك المرور عليّ عند الثانية عشرة ظهرًا إن كان يناسبك". في الواقع، هذا التوقيت غير مناسب لها إطلاقًا. ولكنّ الفضول جعل كل شيء مناسبًا.

استقبلها بحفاوة في غرفة مكتبه بمبنى الجامعة. أجابت عن الأسئلة التي أخذ يلاحقها بها عن حياتها وعملها في إيجاز؛ ففهم أن هناك أمرًا مهمًا يشغل بالها ولا يدعها تريد الخوض في أحاديث أخرى.

أرته الصور في "الكتالوج"، وحدثته عن ملاحظتها حول عيون الشخصيات في اللوحات. تأملها بدقة متناهية، ثم خلع نظارته الطبية:

- من الواضح طبعًا أن هناك عيبًا، والفنان قصد أن يظهره. وهناك عدة أسباب تبين ذلك: السبب الأول والأهم أنه فنان متميز ومحترف؛ وذلك ما تظهره أعماله. ولن يقع في هذا الخطأ فنان يملك هذه القدرة الإبداعية. ثانيًا: كان من الممكن أن نعتبره خطأ لو حدث في لوحة أو اثنتين، ولكن انظري، جميع اللوحات بها هذا الشيء. وأعتقد أنها رسالة من الفنان قصد بها أن يُظهر أن أصحاب هذه الوجوه يجمعهم شيء ما.

أنصحك بعرض هذه الصور على طبيب للعيون، فمحتمل أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعانون من مرض بصري. من الجائز جدًّا أن يمدك بمعلومات تفيدك.

دوّن على ورقة بضع كلمات، ثم أعطاها إياها:

- هذا خبير في الأمراض البصرية. أذهب إليه منذ أن ضعف نظري بسبب القراءة والدراسات والبحوث التي لا تنتهي. أخبريه أنك على معرفة بي.

شكرته وذهبت، وكلمة محتمل تتردد في أذنها. "محتمل"، ما الذي تفيده هذه الكلمة؟ لا شيء، هي تجعلنا نتأرجح ما بين أمرين.

عند السادسة كانت في موعدها مع طبيب العيون الذي رحب بها عندما أخبرته أنها من طرف بروفيسور نيكولا راخسين. أسند ظهره على ظهر المقعد، وعقد يديه أمامه وسألها:

- ما شكواك؟

بصوت متردد:

- في الواقع، أنا لست هنا اليوم للشكوى من شيء.

ظهر الاستغراب على ملامحه.

- أعمل على مشروع لكشف حقائق وراء رسوم تاريخية. وخلال عملي، لاحظت شيئًا في عيون أصحاب هذه اللوحات.

كان الرجل يستمع إليها باهتمام شديد. مدت له مجموعة الصور، فتأملها بعناية فائقة بعدد من النظارات المكبرة؛ كما لو أنها مرضى يقوم بفحصهم.

- هناك انحراف في المحاور البصرية لدى هؤلاء الناس، انحراف واضح وشديد.

- وهل هذا يؤكد أنهم كانوا يعانون من مرض بصري؟

- بالتأكيد. وبالإضافة للانحرافات البصرية، هناك أيضًا جحوظ حاد في عدد من اللوحات.

- هذه الأعراض- في رأيك- ما سببها؟

- هناك الكثير من الأشياء التي تؤدي للانحراف البصري. ومن الواضح أن الجحوظ الذي أصاب عددًا من الشخوص نتيجة متأخرة لهذا الانحراف. ومن المعروف أن الانحراف البصري الذي يليه جحوظ في مقلة العين يأتي عادة نتيجة خلل ما في الجهاز العصبي.

ردّدت وراءه:

- خلل في الجهاز العصبي!

- نعم. حدث عارض في الجهاز العصبي المركزي كان له بالتأكيد تأثير على عيون هؤلاء المرضى. وهناك الكثير من الأمراض التي تؤدي لذلك؛ مثل الأورام، ونقص الأكسجين في المخ، وتصلب الشرايين، والتسمم.

نظر إلى ساعة يده، فعلمت أنه اكتفى بما قاله، وأن وقتها معه انتهى. شعرت بالراحة من هذه الزيارة، فالمعلومات التي منحها إياها كانت تؤكّد شكوكها؛ وهي الخيط الذي سوف يقودها في بحثها.

وبالرغم من ذلك، كانت تشعر أن البحث وراء الأمر سيكون كالبحث عن إبرة وسط كومة من القش. ولكن حتى لا يمسّها اليأس، أقنعت نفسها أن الأمر ليس بمثل هذا التعقيد؛ خصوصًا أنّ المشروع يوفّر لها سبل وآليات البحث. هناك فريق طبي من أطباء متخصصين في أشعة الكشف عن الآثار، وهناك أيضًا التمويل المالي.

ومن حسن حظها أنّ هذه المومياوات معظمها معروض في المتاحف الإيطالية، ومن السهولة فحصها.

طلبت اجتماعًا عاجلًا مع لجنة أطباء المشروع، ذهبت للقائهم، وأخبرتهم عن التفاصيل التي توصلت إليها.

- ولكن، ما الذي ترمين إليه؟

كان ذلك سؤال رئيس الأطباء القائم على المشروع. سأله بنبرة غليظة متشكّكة وهو يقوم بضبط وضع نظارته ذات العدستين الغليظتين كقعر كوب على وجهه. ولم تفهم أنه لم يكن سؤالًا بقدر ما هو استنكار؛ إلا عندما همت بالرّدّ قاطعها باللهجة نفسها:

- في رأيك، ما الأسباب الجادة التي تدفعنا لفعل ذلك؟! ليس الأمر مجرد البحث وراء شكوكك، بل يجب العمل على أساس علمي جاد.

- عذرًا. ولكن، أعتقد أنك تعلم جيدًا أن الدافع الأساسيّ وراء بحثنا هو قطع الشك في ما نعتقده بيقين ما سنكتشفه.

لم يجِبها. ولكن، تحدّثت طبيبة أخرى:

- ما فهمته أنك تريدين أن تخضع جماجم هذه المومياوات للأشعة، ولكن للبحث عن أي شيء تحديدًا؟ كل ما أخبرتنا به أن هناك أمراضًا وعيوبًا بصرية في وجوه 7 أشخاص. لقد عثرنا على ما يقارب ألف لوحة. ولو وجدنا في 7 لوحات عيوبًا بصرية، فكم تمثل نسبتهم؟ إنها أقل من واحد في المائة. إذًا، ما أهمية ذلك؟ ما الذي سوف تقودنا إليه معرفتنا أن هؤلاء الشخوص كانوا يعانون من أمراض أم لا؟

بدأت تفقد أعصابها، وظهر ذلك في نبرة صوتها التي اتخذت ارتفاعًا ملحوظًا على غير عادتها:

- ما أهمية ذلك؟ هل حقًّا ما تقولينه؟ الهدف من هذا المشروع هو البحث وراء هذه الأعمال. فعندما نجد 7 أشخاص جميعهم مصابون بمرض بصري واحد، إذًا الأمر يستحق البحث وراءه.

أجابها رئيس الأطباء:

- فحص المومياوات ووضعها تحت الأشعة سيكلف الكثير من الوقت والجهد والمال. لذا، يجب أن نكون متأكدين بنسبة 50 في المائة على الأقل مما نبحث عنه. حتى هذه اللحظة، لم تخبرينا عن الشيء الذي تريدين معرفته تحديدًا والتأكد منه.

نظرت في عينيه مباشرة، وأجابته بالكثير من الثقة:

- أريد معرفة حقيقة ما إذا كان هؤلاء الأشخاص مصابين بأمراض بصرية أم لا؛ لأن ذلك سيقودني لكشف أمر هام.

- وهو؟

- عندما أتأكد من إصابتهم بالأمراض البصرية فسوف أخبرك.

- وأنا بصفتي رئيس قسم الطب والأشعة فلن أجري أي فحوصات على أي من المومياوات، إلا إذا قدمت لي مذكرة خاصة، تطرحين فيها أسبابًا مقنعة. وهذه المذكرة سوف تخضع للدراسة والمناقشة من قبل أعضاء الهيئة الطبية، وبناء عليه يمكننا أن نحدد.

- وهل الأمر يحتاج إلى كل ذلك؟! أليس هذا الاجتماع معكم اليوم والمناقشة التي تخطت الساعة من أجل ذلك؟! لا أعرف تحديدًا لماذا تصعّبون الأمور لمثل هذا الحد!

- عزيزتي، أعتقد أنك لا تملكين الخبرة الكافية في هذا المجال؛ لأنك لو تمتلكينها لكنت ستعلمين أننا لسنا بكل هذه السهولة والأريحية نستطيع أن نبحث ونفحص ونخضع المومياوات لكل من يملك هواجس وشكوكًا.

كان هذا الرد قاسيًا ومجحفًا بالنسبة لها، "لا تملكين الخبرة... شكوك وهواجس"، كانت تريد أن تقوم بصب كوب الماء الذي أمامها على صلعته التي تبرق تحت الضوء.

ولكنها تمالكت أعصابها، وأجابته دون النظر إليه وهي تلملم أوراقها وتضعها في حقيبتها:

- حسنًا، سأكتب مذكرة، وسأدوّن فيها كل شيء، وبناء عليها افعلوا ما تريدون.

- اتفقنا. والآن، هل هناك شيء آخر تودين طرحه على اللجنة؟

كانت الكلمات تخرج من فمه بمعنى آخر: "والآن، هل تملكين هراء آخر لتزعجينا به".

لم تجِبه، بل أخذت حقيبتها وذهبت.

4

مدينة الإسكندرية القرن الأول بعد الميلاد

كانت تجلس وسط حلقة كبيرة من التلاميذ حول كبير معلمي الفلسفة الإغريقية، والمسؤول عن المكتبة في مركز البحوث. تبدو عليه الحكمة، وقد تجاوز الستين من عمره، يتحدث بصوت خافت وهادئ بالكاد يسمع. وكانت دروسه ممتعة، لذلك لم تكن تكتفي بحلقات العلم التي تحضرها يومين في الأسبوع. كانت بعد انتهاء الدرس تهرع إليه في المكتبة، وتتناقش معه في الأمور كافة، وتلاحقه بالأسئلة. ولم يكن يشعر بالمضايقة من ذلك؛ بل على العكس، يعجبه فضولها تجاه العلم والمعرفة. كلما تحدثت ينبثق من عينيها شعاع خاطف ينير روحه. فلم يكن العلم بالنسبة لأكلينويس مجرد معلومات يدخرها في عقله، بل أهميته بالنسبة له تكمن في مد الآخرين بهذه المعرفة.

كان سر انجذابها وشغفها تجاه حلقات علمه أنه يتحدث عن أشياء لم تسمع بها من قبل. إذ يتحدث عن الحرية، وعن المساواة، وعن الإرادة، وعن حق الفرد في تحقيق مصيره. ويدعم أحاديثه بنظريات أرسطو؛ معلمه الأكبر. وفي الوقت الذي كانت تلميذة مختلفة بالنسبة له، كان هو أيضًا يمثل لديها إله العلم والمعرفة.

إله منحوت من كلمات وحروف، لو كسر يومًا سيتحول فتاته إلى أفكار تسبح في الهواء. كانت الجلسات تمتدّ بينهما لساعات طويلة، يتحدثان خلالها عن مواضيع مختلفة؛ عن الحياة السياسية، وواقع الحياة الاجتماعية في حكم الرومان، وينصحها بطرق لتأقلم الفتيات في مثل عمرها مع الأوضاع السائدة. وكانت تستمع إلى نصائحه وتنفّذها بحذافيرها. خبرته مثل مرآة فنار الإسكندرية العملاقة الكاسرة للأشعة، والتي تستطيع رؤية السفن القادمة قبل أن تتمكن العين المجردة من رصدها.

وبينما هي تحضر حلقة علم لمعلّمها في المركز، فجأة سمع هرج ومرج، دخل نائب الإمبراطور هو وعدد من حراسه ومساعديه لتفقد المكان. وذلك بعد يومين من توليه منصبه، وكانت زيارته على رأس جدول مُعَدٍّ لتفقّد الأماكن المهمة في المدينة.

اقترب منه المعلم أكلينويس، وانحنى انحناءة خفيفة، فأشار له بمواصلة درسه، بينما عيناه تجوبان المكان كعين صقر. في ثانية التقت نظراتهما وتشابكت بنظرة طويلة لم يحاول أي منهما أن يفكها. شعرت بقشعريرة تسري في جسدها. لم تجرِّب هذا الإحساس سابقًا. كان يبدو جذابا مما كان عليه في اليوم الذي رأته فيه واقفا على المنصة ويخطب في الجماهير. على بعد أمتار قليلة منها، له حضور قوي وساحر لا يمكن تجاهله.

عندما غادر، غادرها قلبها معه. وفي ذلك اليوم، لم تزُر المعلم أكلينويس بعد حلقة العلم كما تعودت، صارت مشغولة بشيء آخر.

خرجت تتجول هي وصديقتها على شاطئ البحر، كان الوقت غروبًا والجو صيفيًّا معتدلًا. تمشتا حتى وصلتا إلى الميناء. كان فنار الإسكندرية منتصبًا كشاهد على ما يحدث. هذا الفنار المشيد على صخرة تلاطمها أمواج البحر من جميع الاتجاهات، حيث ينتصب تمثال إيزيس فاريا -ربة الفنار- فوق قمته، وتمثال الإله بوسيودن إله البحار والمحيطات بشوكته الثلاثية الشهير عند الإغريق يؤكد على حضارة كانت هنا. حضارة لن ينتزعها الرومان أبدًا، ولن يستطيعوا أن يقضوا عليها. فالإلهة إيزيس تحرسه مثلما تحرس أهل المدينة.

كانت تحب الفنار، وتبهرها درجاته الحلزونية التي تبدو وكأنّها لا نهاية لها. تتطلع بعينيها إلى أعلى فتجده شامخًا وباذخًا يناطح السماء. أبدًا لم يكن مرشدًا للسفن وحدها، كان مرشدًا لأهل هذه المدينة وحارسًا لهم.

الحمالون منتشرون على أرصفة الميناء، ينقلون الغلال والحبوب إلى السفن العملاقة. كان خير أرض مصر وغذاء المصريين يذهبان للإمبراطورية الرومانية العاجزة عن صناعة أي شيء آخر سوى السهر والعربدة والرقص وحلقات المصارعة، بينما تعيش وتحيا على أقوات الشعوب التي احتلت أراضيها. نظرت هيرشيا إلى الرجال وهم يحملون السفن بالصناديق الممتلئة بخيرات الأرض:

"أي عدل ذلك. انظري، إنهم يسرقون خيرنا ليتمتع به الشعب الروماني، بينما نبقى جوعى وفقراء".

"حقًّا، إنه ليس عدلًا. ولكنّ نائب الملك الجديد وعد المصريين بأن الأمور ستتغير، ولن يبقي الحال كما هو عليه".

ضحكت صديقتها بسخرية:

"وهل صدقته؟ ألم يقل ذلك أيضًا من سبقوه؟ جميعهم سواء، لا فرق بين أحد وآخر. إنهم موظفون عند جلالة إمبراطور روما المعظم، ويلبون أوامره. ليس عليهم أن يضعوا قوانين أو يبدلوا شيئًا. الأمور لن تتغير إلا بزوال حكم هذا الرجل الظالم. ما الذي يمكن أن يأتينا من بلد لا تريد نساؤه أن ينجبن فيأتين بالعبيد للإنجاب بدلا منهن. لا أفهم كيف بإمكان المرأة أن تفعل ذلك!"

لاحظت هيرشيا أن صديقتها هائمة في المدى البعيد:

"سيرينا... هل أنت بخير؟"

"لا، لست بخير".

بالرغم من أنها لم تعتد أن تخفي شيئًا على صديقتها، لكنها لم ترغب أن تخبرها بهذه المشاعر التي لم تفارقها منذ لقائه، وعن طيفه الذي لم يغادر خيالها. لم تكن تملك الكلمات المناسبة لتصف بها هذه المشاعر؛ ربما لأنها لم تفهم تحديدًا ما يحدث!

بالإضافة إلى أنها كانت تعلم أن حديثها سيكون موضع سخرية؛ فصديقتها كباقي المصريين المتأغرقين الذين يكرهون الرومان كراهية كبيرة؛ ربما أكثر من كراهية المصريين لهم. الشعب المصري طيب ومسامح، أما العرق الإغريقي الذي يسري في هذه الفئة المتأغرقة فهو عرق لا يسامح ولا يغفر؛ يكره سماع سيرة كل ما هو روماني. فكيف بإمكان صديقتها أن تتقبل أن هناك مشاعر جميلة مستها تجاه الرجل الذي لن يجلب حكمه لهم إلا السوء؟! وبينما كانت هي مهمومة بمشاعرها، كانت هيرشيا مهمومة بشيء آخر.

صاحت في السفن الذاهبة إلى روما عبر البحر:

"أيها الرومان، ما أنتم إلا مجموعة من القساة. لكم منا كل تحقير أيها النهّابون. لم تروّجوا لحضارة، لم تنشروا ثقافة، كل ما روّجتم له هو الإجرام".

"هل لك أن تخفضي صوتك، وإلا كان مصيرك مثل هؤلاء".

هؤلاء الذين تقصدهم وأشارت إليهم هم مجموعة من الرجال تكوموا فوق بعضهم مسلسلين بجنازير غليظة من أرجلهم وأيديهم.

كان من عادة عسكر الرومان تفقّد الميناء للتحقق من الأمن والأمان. وينتهزون وقتها الفرص لفرض الضرائب والغرامات. ومن لا يملك المال للدفع الفوري كانوا يقودونه ويسلسلونه حتى يأتي أحد من أقربائه ويقوم بالدفع.

يأتي من معبد قريب صوت يعلو بالصلاة والحمد والتسبيح للإله أتوم رع إله هليوبولس، والإله توت، وكذلك صلاة شكر لإله الشمس الذي يغمر مصر العليا ومصر السفلى، وابتهالات بالحمد والشكر لإله النيل العظيم. صوت يمنح الشعور بالهدوء والسكينة.

قاطعه بوق سفينة متوسطة الحجم وقفت في الميناء تحمل على متنها عددًا كبيرًا من العبيد مسلسلين بجنازير ضخمة بهيئة معدمة، تفوح منهم الروائح الكريهة. ملامحهم غريبة أقرب للوحوش الآدمية منهم للآدميين.

"انظري، هذا ما يجلبه لنا الرومان! مجموعة من القتلة السفاحين، عتاة الإجرام، يدعوهم في الأرض لينشروا الفساد والكراهية، بحجة ترهيب الشعب بهم. ألا يكفي الجنود الرومان الذين نشروا في كل مكان من المدينة؟! يجوبون الشوارع بعصيّهم الطويلة، يلسعون بها المارة؛ كما لو أنّهم يروضون حيوانات على العيش، وليس بشر."

غابت الشمس في مياه البحر، وغاب معها حلمها. ولكن عندما أضيئت الشعلتان بفنار الإسكندرية شعرت بالاطمئنان.

5

على الطاولة الصغيرة، خبز مصري أسمر وبصل وكراث وجبن وزيت زيتون. راحت تتناول عشاءها مع عائلتها، لاحظ أبوها أنها تأكل دون شهية، فسألها:

"لماذا تبدين شاردة سرينا؟ هل هناك شيء؟"

هزت رأسها بما يفيد النفي، ولكنها كانت تعلم في قرارة نفسها أنه لن يصدقها. فقد كانت تربطها علاقة قوية بأبيها الإغريقي المنحدر من عائلة سليلة حسب ونسب. منذ زمن طويل، قدم جده إلى مصر مع الإسكندر الأكبر الذي أوكّل إليه الإشراف على بناء وتصميم هذه المدينة التي أطلق عليها اسمه.

كان واحدًا من كبار المهندسين، أنعم عليه الإسكندر بالعز والجاه بجانب الألقاب والنياشين التي منحه إيّاها، وأجزل إليه بالمال والعطايا. وبعد موته، نحت له تمثال في فناء مكتبة الإسكندرية نُقشت على قاعدته الرخامية (كبير مهندسي مدينة الإسكندرية). ولأن العظماء يخلدهم الزمن فقد امتد صيته ليومهم هذا، وكما يقولون العرق يمتد لسابع جد...

كان أوكتافيوس يشبه جده في الكثير من الأشياء. لم يكن رجلًا عاديًا، كان يتمتع بالذكاء والثقافة والحكمة والوسامة الإغريقية، وكانت سيرينا محظوظة بأن تحظى بأب مثله. منذ نعومة أظافرها، كان يقرأ لها الأوديسة يحكي لها قصة حصان طروادة. يحكي لها عن أخيل وعن فطرقل والصداقة العجيبة التي جمعت بينهما. كان يقرأ لها مع عرض تمثيلي أعمال سوفوكليس وأريستوفان. وأحاديثه لا تخلو من عبارات ذات معنى لأفلاطون وأرسطو. أحبت الأدب والثقافة والعلوم؛ هذه الأشياء التي أطعمها إيّاها والدها منذ الطفولة، واستساغت مذاقها.

لم يخلع أبوها الفوستانيلا- الرداء الإغريقي المميز- واعتادت هي أن ترتدي البيبلوس في الأعياد والاحتفالات الإغريقية؛ هذه القطعة من القماش بفتحة من الرأس وبلا ذراعين.

وعندما بلغت العاشرة من عمرها، ألحقها بـ "السرابيوم" لتلقي العلوم. وهناك فتنت بمكتبته العملاقة التي وضع نقش على بابها (أن العلم والمعرفة هما السبيل إلى الحرية). طفلة صغيرة بجديلتين تبدو قزمة وسط أرفف الكتب العملاقة، ترفع نظرها إلى الأعلى، وتحاول أن تقرأ اليافطات المعلقة أعلى كل رف. جميعها مكتوب باللغات الهيروغليفية واللاتينية والديموطيقية والآرامية. تحتوي الأرفف على الآلاف من الكتب ولفائف البردي الممتلئة بكنوز العلوم والمعرفة، تراقب موظفي الأرشيف، والمسؤولين عن العناية بالبرديات- وهم يرتدون عباءاتهم المميزة- يذهبون ويجيئون في أنحاء المكان، ويعملون في صمت وهدوء، يرتّبون اللفائف، ويزيلون عنها الأتربة التي علقت بها بعناية فائقة. هناك بردية معلقة عليها يافطة صغيرة مكتوب فيها التاريخ، وذكر بجانبه بين قوسين "العام الأول من فتح الإسكندر لمدينة الإسكندرية".

كانت طفلة ذكية لمّاحة، تملك التوق للمعرفة، أسئلتها تتعدى سنها، ويسكنها الفضول تجاه كل شيء. لفتت بذكائها وتفاعلها معلمي المركز ومشرفي المكتبة من كبار الفلاسفة والكهنة، وأصبحت معروفة ومحبوبة بينهم.

6

أحب والدها أمها، وبالرغم من عادة عائلته الحازمة بأن لا يتزوّج أبناؤها إلا من بنات العائلة نفسها، صمم على الزواج منها وقابل معارضتهم لهذا الزواج بالتحدي، ومع الوقت تقبلت العائلة أمر زواجهما.

كانت تفخر أنها نتاج زواج أب إغريقي وأم مصرية؛ نتاج مزج أكبر وأهم حضارتين في العالم. هذا الأمر منحها مميزات وفضائل لتصبح مختلفة عن الجميع؛ ليس فقط في العقل والتفكير، ولكن في الملامح المميزة. ورثت من أمها لون بشرتها القمحية وشعرها الأسود الفاحم الذي ينسدل على ظهرها فيغطيه كشلال. بينما منحها أبوها لون عينيه البنيتين وأنفًا طويلًا شامخًا وقوامًا رشيقًا فارعًا. فكانت تبدو كأميرة لا إغريقية ولا مصرية. أميرة قادمة من عالم آخر، عالم بعيد لم يسمع به أحد.

وهي حفيدة كليوباترا وأنطونيو. وقد كان لقصة الغرام التي جمعت بين جديها، وسمعتها مرارًا وتكرارًا، وأخذت بها منذ صباها، أثر كبير في حياتها؛ تأكدت أن الحب صانع للمعجزات يملك مقدرة غريبة على تغيير كل شيء، وعلى إضفاء السحر والجمال على جميع الأشياء من حولنا. في قرارة نفسها، تمنّت لو تعيش مثل هذه القصة التي نقشت على جدران المعابد وذكرت في الكتب. أخذت تتضرّع وتبتهل لجميع آلهة الحب إيروس وأفروديت وكيوبيد ليحققوا لها أمنيتها. واستغربت عندما وجدت دعاءها سريع الاستجابة لمثل هذا الحد!

بعد أيام قليلة على زيارة ليوناردوز لحلقة العلم حيث التقت نظراتهما لأول مرة، أوفد نائب الإمبراطور سكرتيرته الخاص إلى منزلهم. جاء الرجل في مركبة ملكية يجرها ثوران، وقفت أمام باب دارهم. خرج أهالي الحي يشاهدون المركبة الملكية المطلية بالذهب، والمنقوش على مقدمتها شعار الإمبراطورية الرومانية. لم يعلم أحد تحديدًا ما الذي يحدث، ولماذا توقفت المركبة أمام باب

بيت السيد أوكتافيوس. أخذوا يضربون أخماسهم في أسداسهم وتعالت الأصوات ودخلوا في مراهنات بتوقّعاتهم.

صوت يقول: "مؤكد ارتكب أمرًا جللًا". فيرد عليه صوت آخر: "لوكان ارتكب أمرًا جللًا لكانت الشرطة الرومانية انتشرت في الحي الآن وطوقت المكان كله". وصوت آخر يجيب: "لم أشعر بالراحة تجاهه أبدًا. كنت أعلم أنه رجل مدعي، هدوؤه واتزانه المبالغ فيهما وراءهما شيء ما. هذا الرجل مؤكد يتخابر مع الرومان، ويندس بيننا ليعرف أسرارنا. هذا يفسر الحملات التفتيشية الأخيرة، والتي ألقت الشرطة فيها القبض على عدد كبير من الإغريقيين". لم تخرس ألسنتهم إلا عندما فتح الباب، وخرج منه السيد أوكتافيوس برفقة السكرتير وجلس بجواره في العربة. شد السائق لجام الثورين فأصدرا خوارًا قويًّا يصم الآذان، وركضا بأقصى سرعة بينما الغبار الذي خلّفاه وراءهما علقت ذرّاته في عيون الجيران التي اتسعت وفنجلت دهشة.

بعدها بيومين، تم إعلان موعد حفل زفاف سيرينا بنت السيد أوكتافيوس على "كورياليس ليوناردوز"؛ وكورياليس تعني أعلى مرتبة ممنوحة خارج روما. لقد هام قلبه حبًّا بها منذ رآها. ورغم أنه من غير المستحب زواج قادة الرومان بغير الرومانيات ولكنه قرر أن يفعلها.

بزواجها منه ستنال "الرومنة"؛ وهو شرف ستمنح به نيل المواطنة الرومانية، بالإضافة للامتيازات الكثيرة التي ستمنح لها لكونها زوجة نائب الإمبراطور. ولكن هذه الأمور لم تهم أوكتافيوس؛ فهو يبغض كل شيء روماني، فكيف يزوج ابنته لواحد منهم؟ ولكن في الوقت نفسه، كان من الصعب أن يرفض. فمصيره ومصير ابنته سيكونان بين فكي أسد، مثل الأسد الذي كان يرقد تحت قدمه في بهو قصره، عندما زاره سكرتيره واخبره أن كورياليس ليوناردوز يريده في امر مهم. وهناك وجده ينتظره في بهو قصره يجلس على مقعد عالي الظهر منحوت على هيئة الإله "فولكانوس" إله النار وصانع أسلحة الآلهة، وأخبره أنه يريد الزواج من ابنته. كانت ترتعد أوصال أوكتافيوس كلما هز الأسد رأسه شمالًا أو يمينًا وعندما قام من رقدته وأخذ يجوب المكان ذهابًا وإيابًا شعر أنه سوف يغشى عليه.

طوال طريق العودة، كان يحمل همًّا كبيرًا. كيف بإمكانه أن يخبر ابنته؟! كيف سيكون مظهره أمامها عندما تستشعر ضعفه أمام رضوخه لطلب نائب الإمبراطور الزواج منها؟ كان قرار

مصيري لا رجعة فيه، ولن يستطيع أن يفعل حياله شيئًا! ولكن، وعلى غير المتوقع هللت أساريرها عندما علمت، واتسعت عيناها فرحة وبهجة. وكان رضاها شيئًا مريحًا أزاح همًّا كبيرًا عن قلبه.

وفي غضون أيام استعدت مدينة الإسكندرية لحفل الزفاف الأسطوري. فغسلت الشوارع، وكنست، وأضيئت أزقتها الضيقة بالقناديل ومشاعل النار، وعلقت الزينات في الأزقة التي سيمر فيها موكب الزفاف.

15

فلورنسا 2018

قادت سيارتها بسرعة مذهلة على غير عادتها، ممّا عرضها للوم المارة وأصحاب السيارات. لم تجد شيئًا تفرغ فيه هذه الشحنة من الغيظ إلّا الكبس على دواسة البنزين بقوة وعصبية.

صفت سيارتها في موقف سيارات المول التجاري، وذهبت للسوبر ماركت الملحق به للتبضّع. التسوق أيضًا وسيلة نجاة للتخلص من نوبات غضبها؛ بالرغم من تحذيرات خبراء التغذية بعدم التبضع في حالة الجوع أو الغضب؛ وهي في هذه الأثناء في الحالتين معًا. لذلك لم تنتبه إلى أنها على غير عاداتها تملأ العربة بمنتجات غذائية غير صحية، وتحتوي على كميات كبيرة من السعرات الحرارية. انتبهت إلى ذلك فقط عندما أخبرتها عاملة الصندوق بالرقم الذي عليها دفعه، ووجدت أنه أكثر مما اعتادت دفعه بمرتين. وهذه الفعلة النكراء ترتبت عليها مشقة نقل كل هذه الأكياس من عربة التسوق إلى سيارتها.

وفيما هي تقوم بذلك، فجأة راودها وجه الفتاة. كانت تتطلع للمشتريات في نهم وتصيح وتصرخ وتتوعد بأصابع يدها. كما لو أنها توبخها على كل هذه المشتريات. فجأة، اختفت لتذهب بها الذكريات إلى تلك الفترة التي كانت تنعس فيها كثيرًا دون عشاء.

كانت دائمًا في تلك المواقف تأخذ بنصيحة أبيها؛ النظر إلى الجزء الممتلئ من الكوب. عندما كانت أمها تشكي وتتبرم من فقر العيش كان يقول لها تملكين منزلًا دافئًا يضمك أنت وأسرتك، وغيرك يعيشون بلا مأوى. لك ابنة جميلة، وغيرك يتمنون أن يرزقوا بأطفال. تملكين صحة جيدة، وغيرك لا يستطيع مغادرة الفراش.

وهكذا، يظل يُحصي ويرصد لها ما تملكه من نعم حتى تصيح فيه: "حسنا... كفى". وبالنظر للجزء المملوء من كوبها؛ وجدت أنها تملك سيارة ونقودًا وبيتًا جميلًا ووظيفة مرموقة. وهي جميلة ويراها البعض مثيرة. وعربة تبضعها من السوبر ماركت ممتلئة بأجود وأغلى المنتجات، فيجب أن تحمد خالقها إذًا.

مرت الذكرى بها ككابوس يزورنا فجأة في منامنا ليعكر صفو نومنا، وهذا ما فعلته بها. اتكأت على السيارة، وانفصلت عما حولها، بينما شريط ذكريات الليالي الكئيبة الباردة يمر في عقلها. وكما نفيق من كوابيسنا على يد أحد يهزنا ويسألنا: "هل كل شيء بخير؟" جاءها صوته: "هل هناك شيء؟ هل تريدين مساعدة؟"

كان هو بقوامه الفارع، وبشعره الفضي الذي يلمع كهلال يضيء حلكة الليل. ارتبكت وتساءلت إن كان مظهرها يثير التساؤل لهذه لدرجة.

- سوف أساعدك.

ودون أن ينتظر ردًّا بدأ في نقل الأكياس من العربة إلى صندوق السيارة. كان يحمل كيسًا من المتجر نفسه، ليس به سوى القليل من الأشياء. فكرت أنه ربما يعيش بمفرده، ولكنها أيضًا تعيش بمفردها، وعربتها تحتوي على ما تحتاجه خمس عائلات.

عندما انتهى، قال:

- سعدت بلقائك.

وذهب ليركب سيارته التي كانت بمحاذاة سيارتها تمامًا. كان على وشك أن يغلق الباب عندما سألته:

- هل يمكنني أن أدعوك إلى فنجان من القهوة؟

أدار لها رأسه، ودون تفكير في عرضها:

- بالتأكيد.

شعرت بالراحة، فقد خشيت أن يعتذر إذ كانت في حاجة للحديث معه، وللتعرف عليه. والأكثر أنها كانت بحاجة إلى "ونس".

كانت تسير بجانبه مسرعة تحاول أن توافق خطواته السريعة. كان فارع القوام لحد أنها هي التي تملك قوامًا ممشوقًا شعرت بجانبه بالضآلة. وفي المصعد سألها:

- مقهى نابولي بيريرا له فرع في هذا المول، أم تفضلين مكانًا معينًا؟

- وهل هناك مقهى أجمل منه؟

ابتسم ثم أخذ يراقب تتابع الأدوار. وعندما خرجا من المصعد، نظر حوله قائلًا:

- أعتقد أننا سنحتاج أن نستطلع خريطة المبني.

- ليس هناك من داعٍ، سأبحث عن موقعه من خلال الهاتف.

وبعد أقل من دقيقة، دارت برأسها باتجاه اليمين، ثم أشارت بيدها قائلة:

- إنه هنا.

بالكاد كانت هناك طاولة فارغة لشخصين في إحدى زوايا المكان العابق برائحة خليط من الحلوى والقهوة.

كانت حركته بطيئة ومدروسة؛ كمن يحسب كل حركة يقوم بها. ورأسه يعبر عن الكثير مما يريد التعبير عنه؛ يهزه بما يفيد الإيجاب، بما يفيد النفي، بما يفيد التحية، التعجب، الاستغراب... كان قليل الكلام بالرغم من جاذبية حديثه. لم يبادرها بسؤال، بينما في جعبتها الكثير من الأسئلة التي تريد أن تطرحها عليه دفعة واحدة، ولكنها وجدت أنه من غير اللائق أن تفعل ذلك. هناك أيضًا ذكاء في طرح الأسئلة كاختيار الوقت والمكان والمزاج المناسب. وأسئلتها له في نطاق التعارف: اسمك، سنك، عملك؟ ماذا تحب؟ ماذا تكره؟ أَوَليست تلك هي الأسئلة التي تطرح في اللقاء الأول؟!

- هل تعيش هنا؟

- أملك منزلًا هنا. أتردد عليه بين الحين والآخر.

- هل تعيش في لبنان؟

- بعد تخرجي من الجامعة في بداية الثمانينيات تركت لبنان، والتحقت بوظيفة في باريس. وبمرور الزمن، كنت أتدرّج في المناصب. ومن خلال هذا التدرج، كان يتحتم علي التنقل للعمل في فروع الشركة في بلدان مختلفة. يمكنك أن تقولي من أقصى الغرب لأقصى الشرق. وبعد تقاعدي، فكرت في العودة للعيش في لبنان مرة أخرى. جربت ولكني لم أستطع؛ فخلال العقود التي تركته فيها تبدل الكثير من الأشياء. صحيح أنني عندما تركته كان الحال مرزيًا، ولكن التغيير الذي حدث على مدار تلك السنوات كان للأسوأ بكثير. ففكرت لماذا أربط نفسي بالعيش في بلد معين ومكان واحد. لي ابنة وحيدة تعيش في أمريكا مع زوجها، لذلك قررنا أنا وزوجتي أن ننتقل للعيش في المنازل التي نقتنيها حول العالم.

- التنقل من مكان إلى آخر؛ يكسر الملل والروتين.

- أنا لا أتنقل من مكان لآخر سعيًا وراء كسر ملل وروتين، بل أفعل ذلك لأني أحب أن أفعله.

وضع النادل كوبين من القهوة وابتسم وغادر.

- وأنت، هل تقيمين بفلورنسا بشكل دائم؟

- نعم، انتقلت للدراسة الجامعية هنا. ومن وقتها استقررت وعشت فيها. إنها مدينة ساحرة.

- وأين كنت من قبل؟

توقفت أمام سؤاله، من المؤكد أنه لن يعرف اسم القرية النائية البعيدة التي نشأت فيها.

- في مدينة صغيرة وبعيدة، لا أعتقد أنك قد سمعت بها. ثم حصلت على منحة دراسية للدراسة هنا.

- مدينة بعيدة ونائية، ثم العيش في فلورنسا! إنها نقلة كبيرة.

- نعم، كبيرة وصعبة. وكان علي أن أواجه كل شيء بمفردي. لم يكن أمامي سوى خيار واحد؛ وهو النجاح لتحقيق ذاتي.

- وأهلك؟

- توفي أبي بعد انتقالي إلى هنا بعامين. وأمي حياتها مرتبطة بالمدينة التي تسكن فيها، ولذلك كان من الصعب عليها الانتقال للعيش معي.

هز رأسه.

- أتعيشين وحدك إذًا!؟

ارتبكت عندما سمعت هذا السؤال. ففي العادة يرمي لغرض معين. غرض تعلمه تمامًا لكثرة ما سئلت هذا السؤال من قبل رجال كانوا يرون في عيشها وحدها فرصة لزيارتها وتفريغ رغباتهم معها. ولكن، هل من الممكن أن يكون هذا ما يقصده؟

أثناء دوران هذه الأفكار في رأسها بسرعة هائلة مع استرجاع سريع وخاطف لجميع الوجوه التي سألتها هذا السؤال، وكمن يدخل في دوامة من الأفكار؛ فتتجمد ملامحه وتتسع عيناه، لمح هذه التعابير الغريبة على وجهها.

فكرت: هل سيكون رده على إجابتها بنعم أن يضع تلك الابتسامة البلهاء التي يضعونها على وجوههم "إذًا، لماذا لا تدعينني إلى فنجان قهوة في منزلك؟" أو مثلًا "هيا بنا لنذهب. سيكون الجو أكثر هدوءًا هناك". ترددت في الإجابة عن سؤاله خشية أن يشبه أولئك الأغبياء.

هز رأسه بما يفيد "ماذا؟"

- نعم.

- إذًا...

عندما نطقها ارتجفت، إذ إنها دائمًا "إذًا" التي يبدأون بها جملتهم الغبية.

- مؤكد أنك تنوين القيام برحلة.

- رحلة!

- هذا الكم من المأكولات والمشروبات الذي تبضعته يكفي عائلة مكونة من خمسة أفراد لمدة شهر كامل.

فزفرت بارتياح وحمدت الله في سرها:

- هل ستصدقني لو أخبرتك أنني لم أنتبه لهذا الكم الكبير من المشتريات إلا عند دفع الحساب؟

علت وجهه ملامح استغراب.

- للأسف، لم أتبع نصائح الخبراء بعدم التسوق في حالة الجوع أو الغضب. وعندما ذهبت كنت أعاني منهما.

ابتسم وأشار للنادل يطلب فنجانًا آخر من القهوة.

- ولكن، ما الذي أغضبك لمثل هذه الدرجة لتقومي بشراء نصف بضاعة السوبر ماركت؟

زفرت بأسى:

- إنه موضوع طويل، اختصاره أنني كنت في اجتماع مع أعضاء اللجنة الطبية في المشروع الذي نعمل فيه للكشف وراء أعمال أثرية، وأخبرتهم أنني أريد صورًا لأشعة مقطعية لعدد من الجماجم وبعض المومياوات. رفضوا، وأمام إلحاحي طلبوا مني تقديم مذكرة أشرح فيها تفصيليًّا الغرض من ذلك، وأسبابه ونتائجه بحجة أنّه لإجراء هذا الأمر يجب أن تكون هناك حقائق مؤكدة سيقودنا إليها وليس للتحقق من مجرد شكوك.

- أعتقد أن ذلك من حقهم؟

- لا، ليس من حقهم. لأن هذا المشروع قائم على كشف ما وراء هذه الأعمال وأسرارها. هذه الأسرار التي هي في الأساس محل شكوك.

- عليك إذًا أن تقنعيهم بشكوكك.

- وهل يعقل أن نقنع أحدًا بشكوكنا!؟

وقتها صمت وكأنه دخل في تفكير عميق، شعرت به كمن انفصل عنها، عن المكان والزمان.

- أعتقد أنك من المولعين بالفن التشكيلي.

- عملت في الكثير من البلاد التي لها تاريخ وثقافة وحضارة كبيرة، ومن الصعب أن تعيشي هناك وتنفصلي عن عوالمها. يجب أن تنخرطي بكل شيء بها، وهذا هو السبب الذي جعلني أهتم بالفنون عامة؛ لأنها مرآة الشعوب، وبالفن التشكيلي بشكل خاص. بعد تقاعدي، بجانب استثماري أموالى في البورصات العالمية فكرت أن أجرب عالم اللوحات الفنية. إنه استثمار جيد ويحقق مكاسب مذهلة.

- في الواقع، أكره اتخاذ الفن كنوع من التجارة والاستثمار، والنظر إليه كما لو أنه مجرد سلعة. ربما تستغرب ذلك مني ولكنها الحقيقة. أشعر بالتعاسة عندما أجد واحدًا من الأعمال الجميلة لفنان عالمي شهير يباع في مزاد، ويتنافس عليه الزبائن. وفي الأخير، يقتنصه أحدهم لنفسه، ويعلقه على جدار منزله، ويتباهى به أمام أصدقائه ومعارفه. وفي كل الأحوال، كم عدد البشر الذين يمكنهم رؤيته!؟ لا أستطيع تصور أن الإبداع يمكن أن يكون حكرًا على أحد.

- وجهة نظر غريبة لسببين: الأول أنك تعملين أمينة لأكبر متاحف العالم، وتملكين خبرة ودراية بهذا المجال. والثاني- وهو الأهم- أن الفنان نفسه يرسم اللوحات لبيعها، ومن المفترض أن من اشتراها ستكون ملكًا له وحده. حتى اللوحات العالمية الشهيرة المعروضة في المعارض اليوم في زمن سابق باعها من رسمها. لا يرسم أحد لوحة بنية الاحتفاظ بها. وهو ليس عيبًا، وليس تجارة كما تظنين.

كانت وجهة نظره مقنعة، وحقيقية أيضًا، ولكنها لم تعجبها. وفي الوقت نفسه، لم تشأ أن تجادله.

نظر إلى ساعته، ثم أشار للنادل يطلب الحساب.

أخرج من جيب سترته الداخلي "كادره" الشخصي، وأعطاها إياه.

- تواصلي معي لنلتقي مجددًا.

أوصلها إلى سيارتها، ثم صافحها بابتسامة واستقل سيارته من طراز مرسيدس التي كانت تصطف بجوارها.

كان في هذا الرجل شيء ما لا تستطيع تفسيره؛ صوته مع لهجته العربية التي يلفظها بلكنة أجنبية لعيشه في الخارج... وقوامه الفارع، أناقته، شعره الفضي، حديثه الرزين الذي يتشكل بطرق إقناع متعددة، هيئته وهيبته اللتان تجعلانه محطّ الأنظار في المكان؛ إذ لاحظت التفات المارة وزبائن المقهى إليهما. والأهم من ذلك شعورها بالراحة معه، والذي لم تشعر به مع أحد. فهي بطبعها قليلة الكلام، ونادرًا ما بادرت رجلًا بالحديث. ولكن معه كان الأمر مختلفًا؛ إذ كانت تهرع إليه كل مرة تراه فيها.

عندما انتهت من رص مشترياتها في أرفف المطبخ والثلاجة كانت منهكة. فكرت أن تخلد للنوم، ولكنها طردت الفكرة، وجلست لكتابة الطلب. حاولت بشتى الطرق أن تخبرهم ما يمثله ذلك من أهمية. ولكنها لم تكن تملك أي حقيقة، فكل ما تملكه هو حدسها الذي يدلها أن وراء هذه العيوب البصرية شيئًا ما، وبالطبع لم يكن من الممكن أن تخبرهم بذلك.

كبّرت صور المومياوات، فلاحظت أن الأمر لم يكن فقط في العيون، بل هناك شيء آخر؛ شيء مختلف عن باقي الصور. صورها كانت بسيطة، معتمة، ليست ببهاء بقية الصور. الأمر لم تكن له صلة بالفقر الذي يتّضح من مظهرها. هذا ليس بدليل ليقنع الأطباء بالكشف عليها.

أيقنت أن جلوسها أمام الجهاز، ومحاولتها معرفة السر لن يفيداها بشيء. عليها أن تذهب بنفسها وتقف وجهًا لوجه أمام هذه الشخوص. يجب أن تستنطقهم ليكشفوا لها عن أمرهم. فتحت الدليل الذي طبعه المشروع، والذي يوضح مكان كل مومياء وتاريخ الكشف عنها. قادها ذلك لشيء غريب؛ وهو أن جميع هذه المومياوات كانت موجودة ضمن مجموعة "ثيودور جراف". وهذا يدل على أن اكتشافها تم في مقبرة واحدة.

غالبها النعاس الذي كانت تغالبه لوقت طويل، فألقت بنفسها على الفراش، وغطت في نوم عميق.

7

الإسكندرية القرن الأول بعد الميلاد

ووفقا للتقاليد الرومانية القديمة ترتب للزفاف واستعدادته بدء من قرن الوفرة الكبير جدًّا من البرونز الذي نحت قبل موعد الزفاف بأسبوعين، على شكل قرن ثور ووضع في مدخل المدينة، وكان تتناوب على حراسته فرقة خاصة من جنود الرومان ليحرسوا الهدايا التي سوف توضع فيه..

تسابق المتملقون من التجار والكهنة الإغريق وبعض المصريين وتنافسوا لوضع هداياهم الباهظة المنقوشة عليها أسماؤهم داخل القرن الكبير، وطبعًا سادة الرومان الذين يسكنون المدينة تفننوا في إهداء العروسين هدايا جميلة ومختلفة.

انتشر خبر زفاف ليوناردز من فتاة نصفها مصري ونصفها إغريقي في مصر كلها، ومن مصر لروما، ومن روما لجميع مقاطعات الإمبراطورية الرومانية في العالم كله. استنكره البعض، واستغربه الآخر، وباركه الكثيرون.

لم يفهم أحد لماذا يقرر فارس اختاره الإمبراطور خصيصًا ليحكم مدينة الإسكندرية أهم عاصمة في الإمبراطورية الرومانية الزواج من فتاة بسيطة لم يسمع بها أحد؛ وهو الذي بإمكانه أن يتزوج أجمل جميلات روما، وذوات الحسب والنسب. احتار الرومان في تفسير الأمر، كما احتار المصريون والإغريقون. عدد كبير رجح أن الأمر لا يعدو عن كونه توطيد العلاقة بين النظام الروماني والمصريين بعدما ساءت معاملتهم لهم في الفترة الأخيرة، وأدي ذلك لكراهية المصريين لهم، وأسفر عن الكثير من الثورات الصغيرة. التي سريعًا كانت تخمدها المحميات، صحيح أنها ثورات صغيرة، ولكن تنبت النار دائمًا من مستصغر الشرر.

وفي الوقت الذي بات الأمر فيه محيرًا للجميع حتى لأقرب الناس لسيرينا، لم يكن محيرًا لها. إذ كانت تلك النظرة التي تشابكا بها في مركز الأبحاث مفتاح الإجابة عن كل شيء. لم تخبر أحدًا بذلك غير صديقتها هيرشيا التي زارتها فور معرفتها الأمر لتفهم منها كيف تم ذلك، وأنهت سيرينا قصتها التي حكتها لها قائلة: "ربما هو الحب من أول نظرة".

"وكيف سيتم الزفاف؟ وهل سيكون على التقاليد المصرية أم الرومانية؟"

أخبرتها أنها حتى هذه اللحظة لا تعرف شيئًا. إلى أن زار منزلهم وفد من عدة أشخاص يحملون الملابس والهدايا، ويخبرونهم عن إجراءات الحفل وطرق تنظيمه على العادات الرومانية فعلمت كل شيء.

اقتربت منها سيدة جميلة في منتصف العمر تقريبًا: "أدعى إفرونيا وأنا المسؤولة عنك".

تبادلت النظرات بينها وبين والديها.

سألها السيد أكتافيوس:

"عفوًا ماذا تعنين بمسؤولة عنك؟"

"منذ هذه اللحظة سيد أكتافيوس سأكون مسؤولة عن ابنتك. سوف أعلمها العادات والتقاليد الرومانية، وسأعلمها كيف تتحدث ومتى؟ وكيف تعامل زوجها؟ سأعلمها أيضًا كيف تهتم بنفسها، وكيف تتجمل، وكيف تختار ملابسها، وماذا تلبس. يمكنك أن تقول إنني سأعلمها أصول العلاقات الاجتماعية".

على غير عادته، خرج الرجل عن هدوئه.

"ومن أخبرك أن ابنتي ينقصها ذلك. سيرينا التحقت بمركز البحوث منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، وتملك من العلم والثقافة والذكاء ما لم تملكه نساء روما جميعهن. لقد تعلمت علوم أكبر وأهم حضارتين شهدهما العالم الحضارة المصرية والحضارة الإغريقية".

فأجابته المرأة ببرود وهي تضع ابتسامة على وجهها:

"حسنًا، ينقصها إذًا أن تتعلم علوم وفنون الحضارة الرومانية، وعادات وتقاليد الرومان؛ وهذا ما سوف أقوم به".

ضحك الرجل بسخرية:

"حضارة رومانية! عن أي حضارة تتكلمين وأنتم تتغذون على خيرات الأراضي التي تستولون عليها؟ لو لم نمنحكم الغلال والحبوب سوف تموتون جوعًا. أي حضارة وأي علوم هذه التي لا توفّر القوت لشعبها وتنتهك حقوق الشعوب الأخرى وتثقلهم بالضرائب حتى تسد رمقها من أموال أهلها البسطاء؟"

أجابته بنبرة تتصنع البرودة:

"يؤسفني أن هذا رأيك. على كل، لن أخبر نائب الإمبراطور بما سمعته منك وإلا فحسابك سيكون عسيرًا، ولن يغفر لك كونك والد المرأة التي اختارها للزواج. وأؤكد لك أنه لن يغير في الأمر من شيئا. إذ ستنال أقسى عقوبة على تهجمك على الإمبراطورية الرومانية. لهذا سأعتبر أنني لم أسمع".

ثم وجهت كلامها لسيرينا بالبرودة نفسها:

- والآن، هل حضرت نفسك؟ سوف نذهب للحمام الروماني الملكي لنستعد لحفل الزفاف. ولا تنسي أن تقيسي التوكا لنتأكد أنه على مقاسك.

هزت رأسها بمعنى لا أفهم.

امتدت يد المرأة إلى صندوق من الخشب محلى بالصدف، وأخرجت منه عباءة رومانية بيضاء كالتي ترتديها نساء الرومان، ولكن الفرق أنها كانت مشغولة بخيوط فضية وذهبية.

"ثوب زفافك، يمكنك قياسه لنتأكد أنه على قياسك ولن يحتاج للتعديل".

أثناء قياسها الفستان، أخبرت إفرونيا السيد أكتافيوس أمر لم يكن في حسبانه:

"سيد أكتافيوس، ابنتك ستتزوج وفقًا للقانون الروماني، وبموجب هذا القانون ستنتقل من سلطتك وولايتك عليها لسلطة الزوج. وبذلك ستحصل على لقب أم العائلة؛ وهو شرف كبير لها ولكم

جميعًا. وستتم طقوس الحفل وفق طقوس طبقة النبلاء "Cum manu".

لجمت المفاجأة لسان الرجل، فلم يستطع أن يعبر عن شيء. هو نفسه لم يفهم: هل عليه أن يسعد بمثل هذا القرار أم يحزن!؟ كان يتمنى أن تبقى ابنته تحت سلطته هو، فهو لا يعرف ما الذي يمكن أن يفعله معها هذا الرجل الروماني المتعجرف. ولكن في الوقت نفسه بزواجها بموجب هذا القانون ستكون نبيلة من نبلاء روم.

عندما خرجت سيرينا بالفستان، لاحظت الوجوم الذي يظهر على ملامحه. نظرت إليه مستفسرة دون أن تسأله. وهو الذي يفهمها تمامًا هز رأسه يطمئنها. وسريعًا ذهبت ملامح الوجوم، وحلت محلها السعادة على وجهه عندما رأى ابنته تبدو كأميرة في ثوب زفافها.

عندما رأتها إفرونيا لمعت عيناها بنظرة مشوبة ببعض الغيرة، ثم هزت رأسها:

"هيّا، سنذهب للحمام".

كان الحمام الروماني الملكي مبلطًا من أسفله إلى أعلاه بالرخام الأبيض والأسود كرقعة شطرنج، منارا بعدد لا نهائي من الشموع، وبروائح عطرة للصابون والزيوت. عدد من الفتيات الجميلات تكفلن بها، فنزعن لها شعر جسدها، ثم فركنها بلوف من وبر الماعز، وبعدها ألقت بنفسها في مغطس معطر، ثم سلمت جسدها للمدلكة التي سكبت كميات متنوعة من الزيوت عليها، وأخذت في تدليكها في حركات محسوبة ودقيقة ومدروسة جيدًا.

بعدها، قامت الماشطة بتسريح شعرها ورفعه في شكل هرمي. ثم نظرت لإفرونيا لتي كانت تشرف على كل ما يحدث، فهزت رأسها للماشطة بما يفيد "جميل".

وفي هذه المساحة الملتبسة التي يغشاها بخار الماء إلى حد أنه من الصعب معه تمييز شيء، كانت الصور جميعها تبدو مشوشة كمستقبل حياتها الذي لم يكن واضحا بالمرة.

8

نصبت المسارح الخشبية في الميدان، وخرجت أعداد كبيرة من الرجال والنساء والعبيد والخدم يرتدون ملابس الاحتفالات، وفتُحت معابد المدينة كلها للزوار، ثم انطلقت سيرينا معلنة سير الموكب. تقدم الموكب الكهنة وهم يحملون تمثال الإلهة إيزيس وأوزيرس ويرتدون فاخر الثياب، ومزينين بالمجوهرات الثمينة، وخلفهم يسير فتيان أصغر يحملون باقات من الزهور، ويسير أمامهم كبير الكهنة حاملا في يده مبخرة نحاسية يأرجحها يمينًا ويسارًا. كما أوفد إمبراطور روما كهنة رفيعي المستوى من المعابد الرومانية: معبد جوبيتر ومارس وكويرنيس للإشراف على مراسم زواج نائبه، وثلاثة من السفراء ينوبون عنه. أثوابهم الرسمية بلون دم الثيران، والشرائط المعقودة على صوالجهم ترمز إلى رتبة كل منهم. كانوا يقفون في الصفوف الأمامية بقامات منتصبة. وخلف صفوف السفراء والكهنة يسير سادة الرومان؛ رجال من علياء القوم وأصحاب المناصب الهامة ونساء نبيلات.

زينت العربة الملكية بأطواق من الورود ليُزَف بها العروسان. بدت سيرينا جميلة في فستان الزفاف. مشطت شعرها كما تمشط كاهنات معبد العذراى شعرهن، وتوجته بإكليل غار مزين بالذهب. بينما ظهر العريس بشكل أنيق وجذاب في رداء أبيض مغزول بخيوط الذهب والفضة. تجمهر الشعب على جانبي الطريق يشاهدون الموكب ويرمونه بالورود. وعندما وصلت العربة إلى ساحة الاحتفال، ترجل العروسان. وضع كبير الكهنة في كل من إصبع الزوج والزوجة خاتمًا من حديد كعلامة لارتباط مصيرهما للأبد، ثم تقدمت أخت الزوج ووضعت يدي العروسين الجديدين فوق بعضهما.

ثم سألها ليوناردوز: "ما اسمك؟"

ردت عليه كما هو متبع في تقاليد الزواج الرومانية والتي دربتها عليها من قبل إفرونيا:

"أينما تكون جايوس أكون أنا".

وبمجرد نطقها بتلك العبارة التي أعلنتهما زوجين، دوى قرع الطبول، ونحرت الذبائح قرابين للآلهة. ومدت الموائد، ووزعت الجعة والنبيذ، وبدأت الفرق الاستعراضية في تقديم عروضها. وعندما دقت الساعة منتصف الليل ترك العروسان موكب الاحتفال وذهبا لقصرهما.

كان انتقال سيرينا من حياتها في بيت أسرتها البسيط للعيش مع زوجها في قصره المنيف كالانتقال من بحيرة هادئة لبحر هائج الأمواج؛ وهي التي لا تجيد السباحة لا تعرف ماذا تفعل!؟ هل تغطس فيها؟ هل تقفز لأعلى لتواجهها وتتصدى لها؟ أم تستسلم وتغرق معها؟

أول مظاهر التغيير الكبير الذي حدث في حياتها بما أنها أصبحت رومانية هو أنه يجب أن تتخذ من آلهة الرومان آلهة لها. كان زوجها مرتبطًا بإله "القمر سين"، وكان يضع له تمثالًا في فناء القصر، وفي ذهابهما ومجيئهما يحييه. وعندما طلب منها أن تفعل ذلك في أول مرة ترددت وارتبكت؛ فهي لا تعرف هذا الإله، ولا تعرف كيفية الصلاة له. وقفت أمامه مسمرة، ولم تفعل شيئًا، فاقترب منها وعلمها كيف تحييه بمد السبابة والوسطى وثني الخنصر والبنصر إلى داخل الكف. ثم وضع تعبيرًا غريبًا على وجهه، كما لو أنه يحذرها من شيء ما

"إنها الطريقة التي يُحيّي بها الرومان إله القمر سين. من الآن وصاعدًا آلهة الرومان هي آلهتك".

ومنذ هذه اللحظة، فهمت ما هي مقبلة عليه. كونها أصبحت رومانية فهذا ليس مجرد لقب ستحمله معها. كان يجب عليها أن تنسل عن كل ما يمت لجذورها بصلة. فلم يكن الأمر بالهيّن؛ فقد كان ارتباط المرء بآلهته ارتباطًا عاديًا، بل ارتباطًا قويًا متأصلًا في الأوصال، ساريًا في الجينات، قابعًا في الأعماق.

وفي القصر الكبير الممتلئ دائمًا بمختلف صنوف البشر ومقاماتهم، من علّية القوم من النبلاء والسيناتورات والكهنة والقضاة إلى المزارعين والطهاة والجوراي والوصيفات، يبدو المكان كخلية نحل لا تتوقف فيه الأصوات أو الحركات. ولكنها بالرغم من ذلك، كانت يومًا بعد آخر تشعر بالوحدة والعزلة.

كان زوجها دائم الانشغال، مهامه لا تنتهي. أنه بمثابة ذراع الإمبراطور اليمنى، والمراسلات بينهما والمراجعات والأوامر لا تتوقف. لذلك، وبعد مرور ثلاثة أشهر على زواجهما، لم تعلم عنه إلا القليل، بينما لم يعرف عنها شيئًا، ولم يحاول أن يعرف. كان يكفيه أن يلمس شعرها ومن ثم تنزلق أصابعه على وجنتيها ثم يضمها إليه ويأخذها برفق وحنان وبقسوة. هذا كل ما كان يعرفه أحدهم عن الآخر.

عندما اشتكت له من شعورها بالملل والفراغ وهما على مائدة الإفطار ذات يوم، صفق بيديه لسكرتيره الخاص، وأمره بإقامة حفل كبير يدعو فيه علياء القوم من نساء الإسكندرية وممفيس. وبعدها بعدة أيام سألها عن شعورها بالملل: هل ذهب؟ تكفلت تعابير وجهها بالإجابة، فأمر بتجهيز السفينة الملكية لتأخذها في رحلة بحرية، وطلب من سكرتيره أن يحضر لها المهرجين والحواة للتفريج عنها.

كانت تريد أن تخبره أن آخر ما ينقصها هو هؤلاء البهلوانات الذين يأخذون في الشقلبة واللف والدوران، هم وقرودهم ونسانيسهم، وهذه الحفلات التي تضم مجموعة من النبيلات وسيدات المجتمع السطحيات اللائي لا همّ لهن سوى الحديث عن تزيين موائد القرابين في بيوتهن، وسرد إنجازات أزواجهن ورصيد ثرواتهم، والتباري في لبس أغلى الحلي والمجوهرات. ما الذي يثير أعصابها منهن حقًا هو عندما يتحدثن عن الآلهة التي زارتهن في المنام، وبشّرتهن بخبر سعيد تحقق فور استيقاظهن؛ وذلك طبعًا بفضل التضحية بالقرابين محبة لها.

بعدها بأسبوع، كرر السؤال: "هل ما زلت تشعرين بالملل؟"

- "أكثر من أي وقت".

ثم أسرعت قائلة خشية أن يرتب لها شيئًا آخر لا يذهب بمللها بل يزيد منه:

"لذلك كنت أريد أن أخبرك بأنني قررت الذهاب لمعاودة تلقي دروسي في مركز البحوث".

دوّى صدى ضحكاته عبر أروقة القصر كله، حتى إنها شعرت أنها تكاد تخلخل جدرانه، وتهز أعمدته، وتخلع بلاطاته الرخامية، ثم برقت عيناه بنظرة للمرة الأولى تراها.

"هل تريدين الذهاب لتلقي دروسك وسط هؤلاء البرابرة!؟ من الواضح أنك نسيت أنك زوجة نائب إمبراطور روما العظمى وحاكم المدينة، وبزواجك مني أصبحت نبيلة من نبيلات روما. هل وجدت يومًا نبيلة تجلس مع بربري؟"

ثم أشار بيده للخادم ليعيد ملء كوبه الفخاري بالنبيذ المسكر:

"أنا لا أتلقى دروسي مع بربر. أنا أتلقى دروسي مع طلبة علم أذكياء من المصريين والإغريق، ونتتلمذ على يد كهنة وأستاذة من أهم كهنة مصر وأثينا".

- وما الذي سوف تستفيدينه من تلقي هذه الدروس؟ لقد وصلت إلى أعلى مكانة في المجتمع بزواجك مني؟

- ها قد قلت بزواجك مني، لذلك فمواصلة دروسي ستجعلني أشعر بالفخر بنفسي، بالإضافة إلى أنني أحب العلم وشغفة بتحصيله حتّى أستطيع تربية أولادنا بشكل عصري ليكونوا مميزين ومختلفين.

- تربية أولادنا! أي أولاد؟! الزوجة الرومانية لا تنجب ولا تربي، بل هناك جواري يقمن بهذه المهمة، أم أنك تريدين أيضًا أن تحطمي العادات الرومانية؟!

ضمّ جانب عباءته على ذراعه وغادر المكان بعصبية. مع كل يوم يمر كان يزدادن تباعدًا. ولم تقربهما الأيام كما أخبرتها أمها بذلك عندما اشتكت لها وهي تبكي "أكاد لا أراه. لا أعرف عنه شيئًا. نادرًا ما يتحدث معي، ولا أعرف ما يدور في رأسه. لا أعرف هل هو طيب حقًّا كما يظهر في بعض الأوقات، أم قاسٍ وعنيف؟"

بعد شهور، أذبلها حزنها وألمها وجعلاها بالكاد تغادر الفراش، ولاحظ هو ذلك، فوافق على مضض على رجوعها مرة أخرى إلى مركز البحوث لتواصل تعليمها. فعادت إليها بهجتها مرة أخرى. استقبلها أساتذتها وزملاؤها في المركز بفرحة عارمة معلنين جميعهم لها أن غيابها طيلة الشهور الماضية ترك أثره على المكان.

اقترب منها أوناس، هذا الشاب الهادئ الحالم دائمًا، الحالم بمستقبل أجمل وحياة أسعد. كانت تربطهما معًا صداقة قوية، وتعجبها أفكاره ورسوماته التي كان يجلبها معه ليريها إيّاها. كان فنانًا

موهوبًا تتلمذ منذ نعومة أنامله على يد واحد من أشهر الفنانين الإغريق "ماكديوس هيروس"، وهو نحات وفنان عظيم تخصص في رسم وجوه للمتوَفّين. وكانت العائلات الكبيرة تطلبه على وجه الخصوص عندما يموت أحد من أفرادها ليرسم لهم وجه المتوفى على لوح من الخشب، ومن ثم يلصق هذا اللوح على جسد المومياء. وكان يتقاضى لقاء ذلك الكثير من الأموال؛ مما جعله من أثرى فناني الإسكندرية. يسكن في بيت كبير يشبه بيوت الملوك، بواجهة من الرخام، وبحديقة فسيحة، وتشغل باحته منحوتات للآلهة. ورغم عصبية ماكديوس المفرطة، واصل أوناس دروسه عنده. كان يعلم أنه فنان عظيم، وهذا ما يحتاج إليه. يحتاج لمن يعلمه الأسس والقواعد. كان يعلم أنه يملك موهبة، ولكنها كالعجين النافش المختمر، يعجز عجّان مبتدئ عن تشكيله. فتكلف ماكديوس بأن يعلمه كيف يتعامل معها، كيف يلمسها ويرققها لتصبح لينة وهشة وتحت طوعه. وعندها يستطيع أن يصنع منها ما يريد.

كان أوناس أكثر تلاميذ ماكديوس موهبة وذكاء. منذ المرة الأولى التي أقبل فيها عليه، بقوامه الفارع وسمرته المحببة وعينيه الواسعتين المتلألئتين، لمح ماكديوس من خلال خبرته وبصيرته الموهبة التي يملكها هذا الفتى، وكان من النادر العثور على تلك المواهب. لذلك صرّح في الكثير من المرات أن موهبة أوناس تفوق موهبته. فهو يحمل عبقرية المصريين القدماء وذكاءهم ورهافة إحساسهم، وتدريبه على يد ماكديوس أسفر عن إبداع فريد ومتفرد.

16

فلورنسا 2018

لقد مر بها الزمن دون أن تشعر. ها هي على مشارف الثلاثين، ما الذي جنته في حياتها ما الذي حققته!

(أحلامها) ولكن هذه الأحلام ينقصها شيء ما، حاولت دائمًا أن تحقق استقلالية أن تشبع نفسها بنفسها وأن تعتمد في تحقيق سعادتها على نفسها فقط.

نجاح تحققه، ، كتاب تقرأه، مكان تزوره، شيئًا تقتنيه، كل هذا سعادة عابرة، لحظية سرعان ما تنتهي ولكن أليس ذلك هو قدر السعادة!؟

منذ أن رأته شعرت بنوع آخر من السعادة، تلك النشوة التي تسرى في الأوصال.

استيقظت برغبة كبيرة في سماع صوته فقامت بالاتصال به، لم تهتم أن الوقت مبكر وغالبا المكالمات التي يستقبلها الشخص في هذا التوقيت تكون على قدر من الأهمية ولكن أليس رغبتها فيه وبه على هذا القدر من الأهمية.

في الوقت الذي كانت تنتظر أن يجيئها صوته ناعسًا، وجدته مفعمًا بالنشاط والحيوية.

- هذه أنا

كان من المتوقع أن يسألها (من أنت؟) ولكنه لم يفعل واصل حديثه وكأنه يحفظ صوتها ويعرفه تمام المعرفة

- كيف حالك؟

بخير. أتمنى أن لا أكون أزعجتك؟

- أبدا، أهلا بك في أي وقت، أين أنت؟

- كنت أستعد للذهاب إلى لعمل

- إذا أردت تناول فنجان من القهوة، ستجدينني في مقهى (بيدوركي) إنه قريب جدا من المتحف

لم تصدق أنها بمنتهى البساطة هكذا وفي كلمتين فقط (إذا أردت.. ستجدينني) أصبحت على موعد معه. وهي التي يملؤها الشوق لرؤيته مؤكد كانت تريد.

ارتدت ملابسها بسرعة، لفت عنقها بإيشارب بألوان قوس قزح ليضفي على مظهرها بزي العمل بعضا من الأناقة والحيوية. ثم ألقت نظرة على نفسها في المرآة لتطمئن على مظهرها وذهبت.

كان الطقس مشمسا هذا الصباح، وكانت فرصة للمقاهي كي ترص طاولاتها بالخارج.

لمحته من بعيد شعره الفضي يبرق تحت أشعة الشمس. عندما اقتربت لاحظت وجود سيدة تشاركه الطاولة شد على يدها يصافحها (بونجورنو) ثم عرفها بها

دينا زوجتي

وهي تصافحها أخبرتها

- أهلا. يزن حدثني عنك

- حقا وماذا قال؟

قالتها وهي تبتسم وتتساءل بينها وبين نفسها تري بماذا أخبرها؟

كانت في منتصف الخمسين، تملك شيئًا من جمال هادئ، ترتدي تايير، شعرها رمادي قصير. في المجمل كانت تحمل مظهر كلاسيكي جاد كمديرة مدرسة.

- قال أنك متحمسة وشغوفة تذكرينه بي عندما كنت في مثل عمرك

ثم وضعت كف يدها على يده وربتت عليها بحنان. كان من الواضح أن علاقتهما قوية ومتينة، يسودها تفاهم وانسجام.

عندما نظرت إليه وجدته يتأملها. ارتبكت وشعرت أنه يقرأ أفكارها ويعلم تمامًا ما يدور. تخيلت أنه ربما يبتسم بعدها قائلًا (لا تحاولي)

- إلي أي شيء توصلت في اكتشافاتك؟

- سوف أذهب إلى روما غدا لزيارة متحف كابيتولين. أعتقد أنه زيارة مهمة وستفيد أبحاثي؟

لم تكن تملك رغبة في سرد اكتشافات ولا في الحديث عن مومياوات. جاء موعدها معه على غير المتوقع، وجود زوجته بجواره أربك مشاعرها تجاهه وفي الوقت نفسه جعلها تلوم نفسها وتشعر بالذنب. كانت مشاعرها جامحة دون رادع بالرغم أنها تعلم تمامًا أنه متزوج فكيف سمحت لنفسها أن تفعل ذلك.

تخليتهما معًا شابين عاشقين يخططان لحياتهما، مؤكد كانا جميلين ممتلئين بالرغبة والحياة

- منذ متى وأنتما معا؟

فاجئهما سؤالها. تطلعت زوجته في وجهها ثم رفعت نظرها إليه كمن تسأله ((عن ماذا تسأل هذه الفضولية؟)) بينما تكفل هو بالرد

- من قبل أن تأتي لهذه الحياة.

أضافت زوجته بنبرة مؤكدة (وسنظل معًا للأبد)

كانت آخر رشفة من قهوتها، بعدها نظرت إلى ساعتها

- على الذهاب الآن، شكرًا لهذه الدعوة الصباحية الجميلة وسعيدة بتعرفي عليك سيدة دينا

- لا داعي لهذه الرسميات يمكنك أن تناديني باسمي فقط

عندما صافحته شعرت بوخز يسري في أنحاء جسدها كتيار كهربائي خفيف

- انتبه لنفسك

ابتسمت وغادرت

هذا اللقاء أثر على يومها جعلها حزينة، مشوشة، لم تفهم لماذا دعاها إذا كان يجلس مع زوجته؟ ربما يريد أن يخبرها أنه سعيد في حياته وتجمعه مع زوجته علاقة قوية، وبعد كل هذه السنوات، لن يسمح لنفسه أن يخوض في علاقة تعصف بتاريخهما معا. ولكن لماذا قد يفكر في ذلك فهي لم تصارحه بشيء!؟ وهل كان بحاجة لمصارحتها يقولون (الصب تفضحه عيناه) وكان كل شيء فيها مفضوحا بحبه.

17

روما 2018

المسافة من فلورنسا إلى روما تقطعها السيارة في خمس ساعات، والطائرة في أقل من ساعة؛ لذلك فكرت في السفر بالطائرة؛ بالرغم من أنها تحب الاستمتاع بالسفر بالسيارة، ومشاهدة الطريق الضيق المتعرج الذي تكسوه من الجانبين أشجار السرو والزيتون، ويظهر كما لو أنه طويل ولا نهاية له مع الأغاني الإيطالية القديمة التي تسمعها والتي تذهب بها لحياة أخرى وعالم آخر.

قبل أن تضغط على كلمة "شراء" التذكرة عن طريق الإنترنت ترددت، هل تسافر بالطائرة أم بالسيارة؟ ثم هزت رأسها "وهل هذا وقت الاستمتاع بالطرق؟!" وفي وقت لاحق، وهي ترتب حقيبتها تساءلت: "ما الذي يركض بها؟ ليس هناك داعٍ لأي سرعة، فهذه الوجوه ذهبت للعالم الآخر منذ أمد طويل!" لكنها كانت مأخوذة بشيء ما، شيء غامض يركض بها ولا تستطيع مقاومته...

وضعت ملابسها في غرفتها في فندق "بونتو سيستو" التي تطل على ساحة بيزا جرابيلتي حيث المطاعم المفتوحة والنافورة الكبيرة التي تتوسط المكان، وذهبت إلى متحف كابيتولين.

واحد من متاحف روما التي تضم بداخلها الآثار القديمة العريقة، ويقع في أعلى قمة تل كابيتولين. ينقسم إلى ثلاثة أجزاء على هيئة شكلٍ مُنحرف، ويرجع تاريخ بنائه لعام 1471 ميلاديًا، ويضم مجموعة كبيرة من التماثيل الرومانية والمخطوطات النادرة، بالإضافة إلى مجموعة من الأعمال الفنية المُميزة التي يعود تاريخها إلى العصور الوسطى.

هناك خمس مومياوات معروضة في قسم الآثار الرومانية بالمتحف. عندما اقتربت منها، وقفت وجهًا لوجه أمام الصور الملصوقة بها أنتابها شعور غريب تجاهها، لم يكن إعجابًا بعمل فني أو تقديرًا أو انبهارًا بحدث واكتشاف. لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. لقد كان هناك خيط سحري

يربطها بها. لمحت شبح ابتسامة على وجوههم؛ كضيف يطرق بابك ولم تكن تتوقع مجيئه قطّ، وها هو يستقبلك بدهشة مرحِّبًا.

وقفت مطولًا أمام المومياوات كما لو أنها تريد أن تستنطقها، وأن تدعها تكشف لها حقيقتها: "من أنتم؟ ولأي الأعراق تنتمون؟ وما سر هذه الإصابة؟ أخبروني إن كانت شكوكي في محلها". ولكن، لم يكن هناك سوى شبح ابتسامة.

دعاها أمين سر المتحف لتناول فنجان قهوة في مكتبه. عملت معه سابقًا أثناء فترة تدريبها، وتعلم أنه مصاب بنرجسية مفرطة.

- أعتقد أن زيارتك اليوم وراءها شيء ما؟

- نعم، أعمل في مشروع مخصّص للكشف عن مومياوات الفيوم.

- وهل تعتقدين أننا مهما بحثنا يمكن أن نصل إلى شيء؟ إنه أغرب عمل فني شاهدته، فكل ما يحيط بهذه الوجوه يكتنفه الغموض.

- وما قيمة العلم إذًا؟ لقد بدأنا في الأبحاث، وتوصّلنا إلى كشف الكثير، وسنعلن عنها لاحقًا.

- في عالم الفن، كشف الأسرار يؤدي للمزيد من الأسرار. إنها حلقة مفرغة.

لا تعلم لماذا كان يجتهد ليخفض من عزيمتها! تكره هذا النوع من البشر الذي يحاول دائمًا أن يقتل رغبة الآخرين، ويحاول أن يحبطهم ويقنعهم أنه ليس هناك أي أمل.

لطالما تساءلت عن طبيعة هؤلاء الناس: هل هم معقدون نفسيًا؟ ألا يملكون أي طموح أو شغف بشيء فيحاولوا أن يطفئوا شعلة أمل الآخرين؟ صادفتهم كثيرًا في حياتها. صادفت من كان مغزى حديثه يعني "لا تحاولي"، ولكنها لم تعطِهم قطّ اهتمامًا، ولم تدعهم يقضمون حلمها.

- على أي حال، هناك جزء من لوحة موجود بالمخزن. أعتقد أنه من الجيد أن تلقي نظرة عليه.

- ولكن، لماذا بالمخزن؟

- هناك جزء منها ناقص.

أخبرها بذلك وهما في طريقهما إلى المخزن الذي استقلّا المصعد للهبوط إليه.

وضع "الكارد" الممغنط على الباب، وعندما دخلا أضاء الأنوار. كانت المنحوتات والتحف مبعثرة في كل مكان؛ تحف تنتظر الترميم، وأخرى تنتظر دورها في العرض. وهناك العديد من الأعمال معطوبة بالرغم من قيمتها الفنية العالية. تمامًا مثل لوحة هذه السيدة التي وقفت تتأملها لتكتشف أنها تقف أمام أيقونة من الجمال والسحر والجاذبية؛ امرأة في نهاية العقد الثاني، يظهر منها جانب وجهها الأيسر، بينما يختفي الجزء الأيمن وكأن أحدهم تعمّد أن يقسم وجهها إلى نصفين. تملك جمالًا أخّاذًا وعينًا ذات نظرة ساحرة. كل ما كان يظهر منها في هذا الجزء من وجهها فاتن: أنفها المرفوع في شموخ، وفمها المضموم على سرها، ونظرة عينيها المتسائلة، وشعرها المجدول الذي يغطي جبهتها، وإكليل الغار الذي يزين رأسها.

- غريبة حقًّا! أين ذهب النصف الآخر!؟

- لا أعلم. عندما التحقت بهذه الوظيفة وجدتها هنا، وتركتها كما هي. أمناء المتاحف ليسوا جميعهم يملكون شغف البحث والاستكشاف مثلك.

قالها واضعًا على وجهه ابتسامة خبيثة.

لم تحاول أن تجادله وتخبره أن دوره كأمين متحف هو الاهتمام والبحث واستكشاف هذه الكنوز، وليس رميها في المخزن. أخبرها محاولا أن يثير اندهاشها

- لقد كانت ضمن المجموعة نفسها

في طريقها إلى الفندق، كان سؤال واحد يلح عليها: أين ذهب الجزء الآخر من اللوحة؟ وهل هذه المرأة تعاني من إصابة أيضًا في عينيها؟ نظرًا لفقد الجزء الأيمن من الوجه كان من الصعب معرفة ذلك.

ذهبت للبحث عن حل للغز، فإذا بها ترجع بلغز أكبر.

جاءها اتّصال من رقمه، فانتابها شعور غريب؛ فرحة مشوبة بالقلق، وتدفق الدم بقوة إلى رأسها، وتسارعت ضربات قلبها وكأنها في ماراثون للركض. حاولت أن تسيطر على صوتها حتّى لا تبدو منهكة من جراء عمل شاقّ؛ هي التي لم تغادر مكانها.

بصوته الواثق: "مرحبًا، طمئنيني، هل أفادتك زيارتك إلى روما؟"

- إلى حد ما.

بعد أن ثرثرا قليلًا، أنهى المكالمة بدعوتها إلى منزله.

- سنعد الليلة الكبة اللبنانية على العشاء. ما رأيك لو تشاركينا؟

بدون تفكير أجابته: "بالتأكيد".

- في الثّامنة، سننتظرك.

بعدما أغلق الخط، أخذت تفكر في قوله "سننتظرك"، لماذا تحدث بصيغة الجمع؟ لماذا لم يخبرها "سأنتظرك"؟ أتراه تعمد أن يفعل ذلك حتّى تفهم أنها بالنسبة له صديقة للعائلة؟ لا... لا لم يكن يحتاج أن يفعل ذلك. من الواضح أن هناك علاقة قوية تربطه بزوجته، فالأمر ليس مجرد رياء ومظاهر. عندما قابلتهما في المقهى كان هناك انسجام واضح بينهما، وعليها أن تفهم أن الأمر بالنسبة له لا يتعدى كونها فتاة تشاركه هويته وهوايته.

وبالرغم من ذلك، مشاعرها تقودها إليه كمنومة مغناطسيا غير عابئة بشيء.

18

أعدت نفسها لهذا العشاء بعناية فائقة. فذهبت لمصفف الشعر، وطلبت منه موديلًا مختلفًا عن المرات السابقة. ارتدت فستانًا من ماركة موسكينو اشترته منذ فترة ولم تلبسه؛ إذ كانت تنتظر مناسبة خاصة تليق به. وكل مرة كانت تمد يدها إليه، يخبرها شيء ما أنه يستحق موعدًا أجمل.

إنه موعد مع المجهول الذي يخبئه لها قدرها مع هذا الرجل. فستان من قماش الموسلين الأخضر المائل للذهبي، هي نفسها لم تفهم حتى كيف بإمكان الأخضر أن يميل للذهبي. ولكن من الواضح أن صانع النسيج قد أدخل في صناعته ألوانًا متعددة كفنان محترف ليظهر في النهاية هذا اللون. رغم بساطة الموديل الذي يلف جسدها كيد حنون، لا شيء إضافي فيه. مجرد قطعة من قماش تلفها حول جسدها بياقة صغيرة تفتح بثلاثة أزرار ذهبية. وبالرغم من ذلك، بدت فيه مختلفة. كان يبرز جمال جسدها ورشاقته، وخصرها النحيل، ومؤخرتها المستديرة، وساقيها المشدودتين. لم تحاول أن تضيف شيئًا عدا قرطين من اللؤلؤ جملت بهما أذنيها.

اشترت باقة من الورود وعلبة شكولا، وبحسب الموقع الذي أرسله لها، يقع المنزل في نهاية شارع ضيق مسدود ببوابة حديدية ذات طلاء مقشر. مربع سكني يحتوي على أربعة بيوت من طابقين، تختبئ وسط أشجار الهندباء والياسمين والسرو التي جعلت من المكان أشبه بمزرعة ريفية بعيدة عن صخب المدينة.

وقعت في حب المكان، وكما نحب شخصًا من أول نظرة نقع في حب مكان من أول خطوة؛ هذا النوع من الانسجام الذي لا يمكن تعريفه.

وقبل الثامنة بقليل طرقت الباب. استقبلها بحيويته المعهودة التي تظهر في أقل حركة من حركاته. صالة واسعة، بها القليل من الأثاث، وهناك درج خشبي صغير يهبط إلى غرفة الطعام التي

تفتح على حديقة مرتبة بأناقة تتوسطها نافورة. كان بيتًا أنيقًا دافئًا يشبهه.

استقبلتها زوجته بترحاب شديد، وتأملتها قائلة:

- تبدين جميلة.

كانت ستجلس على "الفوتيه" الوثيرة عندما شدّها من يدها قائلًا:

- ماذا؟ هل تنوين الجلوس؟! هيا إلى المطبخ لمساعدتنا.

ثلاثتهم في المطبخ. هو يعد طبق السلطة، وزوجته تسكب الطعام في أطباق التقديم، وهي ترص الفطائر المحشوة في "السرفيس".

أغانٍ إيطالية كانت تنبعث من جهاز جرامافون وتعبر غرفة الطعام وتصل إليهم. كان الجو حميميًا ودافئًا، ومنحه صوت المغنية الإيطالية بهجة، وساعد على محو قلقها وتوترها.

لاحظت أن زوجته تقف في المطبخ بكامل أناقتها الكلاسيكية. إذ ترتدي "تايور" و"شراب فوال" أسود، وتنتعل حذاء عالي الكعب؛ تبدو كمدعوة لمؤتمر أو لقاء عمل هام، وليس مجرد عشاء بسيط في منزلها. كانت أنيقة في كل شيء: كلماتها، حركاتها، لفتاتها. وذلك لم يكن تكلفًا بقدر ما هو طباعًا شخصية.

على المائدة، كان الحديث عن الطعام ومطابخ العالم المختلفة: أشهاها وأغربها. هو الذي عاش حول العالم، يملك خبرة كبيرة في ذلك.

بعد العشاء، صعدوا للدور العلوي، وجلسوا في صالة تحتوي على طقم مريح للجلوس وشاشة عرض. فرد ذراعه على ظهر الأريكة، وجلست زوجته بملاصقته. كانت أنامله تربت على كتفها تارة، وتلمس شعرها في أخرى، بينما أسندت رأسها على كتفه. كان مظهرهما كعاشقين وليس كزوجين مرّت على زواجهما عقود من الزمان.

تملكها شعور الحسرة. فالرجل الوحيد الذي أعجبها وتمنت أن يكون لها يداعب أمامها امرأة أخرى. وكما لو أنها انتبهت فجأة، سألت نفسها: "ما الذي أفعله هنا؟" تجلس أمامهما هادئة، وبداخلها

قوتان تتصارعان؛ عقلها الذي يؤنبها على تفكيرها في هدم هذا الكيان، وقلبها الذي يحرضها على حبه.

نظر إلى ساعته:

- مرت أكثر من نصف ساعة على تناول الطعام، أعتقد أنه وقت كافٍ لتناول الحلوى، ما رأيك؟

- أنا لا أهتم بهذه الأشياء. أضع على المائدة أمامي جميع الأصناف "الحادق" والحلو.

- ولكنّ هذا خطر على الصحة. صحيح، أنت ما زلت في عمر الشباب، ولكن جميع المشاكل الصحية في الشيخوخة تكون نتيجة إهمالنا لصحتنا في شبابنا؛ الإفراط في الطعام، في التفكير في الجنس.

ردت زوجته: "نعم، وخاصة الإفراط في الجنس".

تبادلا النظرات هي وزوجها وضحكا.

ثم قام برشاقة، وشدها من يدها: "هيّا للمطبخ، ساعديني في إحضار الحلوى".

شد على قبضة يدها بقوة دغدغتها، وشعرت برجفة تسري في جسدها كله. أشار إلى رف مرتفع:

- اجلبي الأطباق من هنا، أما "الشوك" ففي هذا الدرج.

ثم توجه إلى الثلاجة وفتحها، وأخرج منها قالب حلوى كريم كراميل.

حاولت أن تسحب الأطباق من الرف، ولكنه مرتفع فلم "تطله".

لاحظ ذلك فمازحها قائلًا:

- حتّى وأنت تنتعلين كل هذا الكعب؟!

- إنه يقترب من السقف. هذا يحتاج لمصعد.

فاقترب منها، ووقف خلفها تمامًا، ثم أمسكها من خصرها ورفعها فجأة بخفة.

- هيّا، تناوليه.

فاجأتها الحركة وأثارتها وأدهشتها. كفّ يده تقبض على خصرها بقوة، وتفوح منه روائح مختلطة من عطره وتبغه. معلقة في الهواء، لم تخف لأنها كانت تشعر بأنها بين يد أمينة قادرة على أن تحميها. بالخفة نفسها التي رفعها بها أنزلها. أرادت بعدها أن تلقي بنفسها في حضنه، ولكنها وجدت نفسها تضع مسافة بينهما.

- من الأفضل أن تحملي القالب وأنا أحمل الأطباق حتى لا تكسريها.

كان يقول لها ذلك وهو ينظر مباشرة إلى عينيها هذه النظرة التي تعلمها جيدًا. هذه النظرة التي يتأمل بها اللوحات. يكتشف بها العالم من حوله. أبدًا لم يكن ينظر من خلال عينيه، بل كان ينظر بروحه؛ فهي القادرة على كشف أسرار الآخرين، وتعلم أنه كشفها.

هل كان الكريم كراميل شهيًا إلى مثل هذه الدرجة التي أثنى بها عليه؟ لم تستطعمه، إذ كان هناك مذاق آخر بداخلها لم تذق غيره.

والآن، وقد تناولت العشاء والحلوى والقهوة، وثرثرت وضحكت، لم يكن عليها غير أن تحمل حقيبتها وتذهب. شكرتهما على العشاء والأمسية الجميلة.

أوصلها للباب، وربت على كتفها بمودة متمنيًا لها أحلامًا سعيدة.

باتت ليلتها وهي تشعر بضغط يده على خصرها، برائحته، بنظرته.

في صباح اليوم التالي، كانت تريد أن تتصل به لتخبره أن أمنيته لها بأحلام سعيدة تحققت، فقد كان رفيقها في الحلم. وكعادتنا عندما نقضي ليلنا برفقة شخص عزيز علينا في حلم، نستيقظ والرغبة تملأنا في رؤيته. ولم يتوقف الأمر على رؤيته والحديث معه، بل كان أكثر من ذلك، أكثر من ذلك بكثير.

أرادت أن تصرِّح له بمشاعرها. نعم، كانت ترغب جدًّا في ذلك. ولكن، من الصعب أن تفعله.

ربما خشية من ردة فعله؟ فماذا لو صدّها وأغلق الباب في وجهها؟ عندها، لن تستطيع أن تحدثه مرة أخرى، لن تستطيع أن تفعل ذلك.

ولكن، يمكنها مصارحته بطرق أخرى. كتبت له على الواتس آب: "شكرًا على تلك الأمسية الجميلة، وعلى العشاء الشهي. لو أخبرتك أنها كانت من أسعد أمسيات عمري، فهل ستصدق ذلك؟"

أعقبت كلماتها بقلب، ولكنها ترددت فحذفته، ووضعت بدلًا منه وردة.

قرأ الرسالة فور وصولها إلى هاتفه، ورد مباشرة قائلًا: "يو ار ويلكم".

غاظها رده، فهي تخبره أنها أسعد أمسية في حياتها، وهو يرد أهلا بك.

حاولت أن تشغل نفسها عن التفكير فيه بعملها وأبحاثها. ولكن، كلما حاولت كانت تفوح رائحته في أنفها وتشعر به قريبًا... قريبًا جدًا منها. كان الأمر أصعب من تجاهله، لذلك عندما حانت الساعة الثانية عشرة موعد الراحة، خرجت للمشي حتى المطعم لتتناول سندويتش وفنجان قهوة. ربما تستطيع أن تزيحه من رأسها لدقائق. ومع أول قضمة من السندويتش رن هاتفها برقمه. ردت بلهفة وفمها محشو بفتات الخبز:

- أهلًا.

- عزيزتي، أرجو منك أن تكفي عن...

صمت، ثمّ: "ابقي معي لحظة".

هنا دق قلبها بشدة. سيطلب منها أن تكف عن ماذا؟ عن مراسلته؟! عن الإطالة في النظر إليه لأن ذلك لفت انتباه زوجته؟! أم تراه سيطلب منها أن تكف عن رؤيته؟ عن حبه؟

- عذرًا، قابلت أحد الأصدقاء وكان يلقي التحية. ذكّريني، فيمَ كنا نتحدث؟

بصوت مرتبك:

- كنت تقول أرجو منك أن تـ...

- نعم... نعم، تذكرت، أن تكفي عن الشكر على الدعوة وعلى الطعام وكل الأشياء البسيطة التي لا تستوجب الشكر أبدًا. لقد أصبحت فردًا من العائلة.

عادت لها روحها مجددًا، وعاد معها صوتها الذي كان ممتلئًا بالحيوية عندما أجابته:

- أعدك، لن أفعل.

- هناك عمل فني أريدك أن تلقي نظرة عليه. إنه ضمن مجموعة خاصة برجل أعمال كوري.

- متى؟

- الليلة، في حدود التاسعة مساء. سأمر عليك، هذا طبعًا لو كان وقتك يسمح بذلك.

- سأنتظرك.

قضت بقية ساعات يومها في انتظار أن تأتي التاسعة. قبلها بقليل، أرسلت له موقع منزلها على الواتس آب.

كان في انتظارها أمام البيت في سيارته المرسيدس السوداء بمقعدين وفتحة للسقف تركها مفتوحة. يرتدي بذلة كحلية وقميصًا أبيض، وشعره الفضي يلمع تحت ضوء القمر ببريق خاطف. ركبت قبل أن ينزل ليفتح الباب. لم تكن هذه الشكليات تهمها إطلاقًا. فما يهمها أن تكون معه.

سألها:

- ما اسم عطرك سيدتي؟

- إنه عدة أنواع من العطور. لم أعتد أن أضع عطرًا واحدًا.

- لذلك كل لفتة منك لها عبير مختلف وأخاذ. توليفة من الزهور والنباتات. خشب... عنبر... فانيليا... شكولا... ويسكي...

- من الواضح أنك اطلعت فعلًا على مكوناته.

- لست في حاجة لذلك، إذ يكفي أن أقترب منك. أقترب منك جدًّا لأشمها.

اقترب بوجهه منها، كان على حافة صدرها. استنشق عطرها كما نستنشق عبير زهرة ونضع بعدها هذا التعبير على وجوهنا؛ تعبير بمتعة الجمال المتناه.

ما الذي يريده منها هذا الرجل؟ لماذا يتلاعب بمشاعرها؟ نظراته وكلماته وتصرفاته وراءها شيء ما! شيء ينفي تلك الرسمية التي يحاول أن يظهر بها ويفرضها على علاقتهما.

- هذا الشخص الذي سنزوره واحد من أثرياء العالم، وأشهر جامع لوحات كوري، وأعتقد أن لقاءك به مهم.

- ولمن هذه اللوحة؟

- انتظري وستعرفين.

يعيش رجل الأعمال الكوري على أطراف المدينة في قصر في موقع خلاب تقع على مرتفع بين غابات ووديان. وضع السيارة في المدخل، بينما تكفل حارس بركنها.

- مرا بالكثير من البوابات الإلكترونية حتّى وصلا إلى الداخل. لم تستغرب هذا الأمر، فمعظم أثرياء العالم أصبحوا يعيشون على قيد الخوف، ويختفون في صوامعهم الخاصة محيطين أنفسهم بأسوار عالية وحراسة أمنية مشددة. لكن، ممَّ يخشى هؤلاء الحمقى؟ وعلامَ؟ أعمارهم أم ثرواتهم؟ ترى، أيهما أهم بالنسبة لهم؟

خرجت من شرودها على صوت أشبه بصوت ضفدع يخبرها أنه تشرف بلقائها. جاوز السبعين من عمره، قصير، وبصلعة تلمع تحت أضواء ثريات قصره المتلألئة. عدد قليل من الحضور ربما لا يتعدى أصابع اليد الواحدة، ويظهر أن جميعهم كانوا معجبين بالفن، من أثرياء المجتمع.

قادهما إلى صالة عرض تشغل مساحة القصر كله في الدور السفلي للمبنى. حيث مجموعة من اللوحات السيريالية لأشهر فنانيها معروضة للبيع.

النُدل يطوفون بصوانٍ عليها مختلف أنواع السيجار، وأخرى عليها كؤوس الشمبانيا. مد الكوري يده، والتقط سيجارًا أسرع حارسه الشخصي الذي لا يفارقه بإشعاله له. وقف يتأمل اللوحة من خلف دخان سيجاره الكثيف وكأنه يشاهدها للمرة الأولى، وكأنها ليست من مقتنياته.

سألها يزن:

- ما رأيك؟

تكفل الرجل بالإجابة نيابة عنها:

- ماذا تعتقد سيكون رأيها في أجمل عمل سيريالي؟

- رينيه مارغيت بالتأكيد أعماله لا تحتاج إلى أن أبدي فيها رأيي.

أؤما الرجل برأسه بما يفيد "برافو".

- هل تعرفين ما السر وراء غموض وكآبة أعماله؟

- أعتقد أنها الحرب الألمانية على بلجيكا. إذ كانت فترة مدمرة تأثر بها الفنان كثيرًا.

ودون أن ينطق، أصدر صوتًا من فمه بما يفيد "لا".

- ماتت أمه منتحرة بإلقاء نفسها في النهر. وعندما اكتشفوا جثتها كانت الأسماك قد التهمت نصفها وشوهت ملامحها، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يتعرفوا عليها بسهولة. لذلك في لوحات كثيرة له كان يخفي وجوه أبطاله بقطعة قماش.

كان يخبرها بذلك وهو يتأمل اللوحة، وكأن ما يشاهده أمامه هو جثة المرأة وليس مجموعة من رجال معتمرين القبعات يقفون أمام نافذة لغرفة خاوية.

- يا له من حادث مأساوي!

- عذرا، سأترككما.

ثم بخطوات تترك صدى وراءها على خشب الأرضية غادر.

- يطلب فيها 10 ملايين يورو.

- تستحق.

- نعم، أعتقد أنه بعد عدة أعوام يمكنني أن أطرحها للبيع بسعر مضاعف.

- ولماذا بعد عدة أعوام؟ يمكننك فور الحصول عليها عرضها بسعر أعلى.

ضحك بسخرية أثارت ضيقها.

- من الواضح أنه ليست لك دراية كافية بهذا السوق؟ هناك بند مهم في عقود البيع ينص على عدم البيع إلا بعد عدة سنوات؛ أقلها ثلاث سنوات؛ ليضمن أن عملية الشراء لم تكن من أجل التربح؛ بالرغم من أنه يعرف طبعًا أن السبب وراء الشراء هو التربح. ولكن، حتى لا يشعر بالاستغفال؛ فهو يعلم تمامًا أنه في استطاعة المشتري البيع بسعر أعلى. ولكنها قوانين البيع والشراء في عالم الفن.

- في الواقع، إنني خبيرة في الأعمال الفنية، ولست خبيرة في البيع والشراء.

- عليك أن تكوني خبيرة فيهما أَيضًا بجانب خبرتك في الفن؛ فذلك سوف يدر عليك الكثير من الأموال.

- ومن قال إنني أريد الكثير من الأموال؟

- ومن منا لا يريد؟

- يمكنك أن تحسبني قنوعة.

- عفوًا، المسمى الأفضل هو يمكنك أن تحسبني غبية.

ثم أشار بسبابته على رأسها:

- غبية لأنك لا تريدين أن تستغلّي ذكاءك وخبرتك.

اقتربت أصوات أقدام رجال وسيدات عرفها بهم. الأسماء من تلك التي نطالعها في الصحف والمجلات ويكتب قبلها الملياردير والثري وسيدة الأعمال. كانت الجلسة بالنسبة لها سيئة جدًا ومملة؛ بالرغم من أن الحوار كان حول أكثر شيء تحبه وشغوفة به. ولكن، عندما يدار بشكل آخر يصبح الأمر مختلفًا.

لم تعد ترى في هذه اللوحات أمامها على الحائط أعمالا إبداعية، بل تحولت في نظرها إلى سلع تجارية لا فرق بينها وبين الساعات والهواتف والسيارات. تحولت القبعات في لوحة ماغريت إلى رزم للبنكنوت، الواحدة فوق الأخرى.

في السيارة باركت له شراء العمل، فأخبرها ألا تخبر أحدًا في الوقت الحالي.

- اطمئن، لن أخبر أحدًا بهذه الصفقة.

ردد خلفها في استنكار:

- صفقة!

- أعتقد أنه الاسم الملائم لها.

- كم عمرك رنيم؟

- كبيرة بما يكفي لأفهم ما يدور حولي.

أوقف السيارة جانبًا، وأخرج من "التابلوه" دفتر شيكات، ثم وضع رقمًا وقام بالتوقيع عليه ومده لها.

- ما هذا؟

- إنها نسبتك؟

- نسبتي في ماذا؟! معقول! هل فهمت أنني أقول ذلك حتى تضع لي نسبة؟ هذا آخر شيء أفكر فيه! كيف يمكنك أن تكون قد فكرت في ذلك؟

- مهلًا... مهلًا، ما كل ذلك؟ هذا عمل. لقد طلبت منك أن تساعديني فيه، وهذا حقك.

- لقد ساعدتك بدافع صداقتنا.

- وما المشكلة في أن تكون بيننا صداقة وعمل؟ أنت خبيرة فنية، وأنا رجل أعمال، وأعقد صفقات بيع وشراء في اللوحات الفنية.

شعرت بالضيق... ضيق كان سيفضي إلى البكاء، ولكنها كتمت دموعها. لا تعرف لماذا شعرت بالمهانة بأن يمد لها شيئًا. هل السبب أنها لا تريد ماله بل تريد أكثر من ذلك؟ هي تريد قلبه.

- احتفظ بمالك. لا أتقاضى مقابلًا على الخدمات التي أقدمها لأصدقائي.

- كلنا في سنك يتملكنا الشعور بالحماسة والوفاء والإخلاص، ومع الوقت يتأكد لنا زيف كل شيء حولنا، وأنه من الأفضل لو أننا سعينا لاقتناص الفرص. خذي مني هذه النصيحة، فأنا في عمر والدك.

- لا تبالغ، أنت لست في عمر والدي.

- ليس بالضرورة أن أكون في مثل عمره، ولكن لو أنجبت فور زواجي لكانت ابنتي في مثل عمرك.

ما الذي يحاول أن يوصله إليها؟ هل يريد أن يفهمها أن معاملته لها بلطف لا تتعدى كونها شُعورَ أبٍ تجاه ابنته؟

لم تجِبه، جلست على حافة المقعد وطوقت نفسها بذراعيها. هكذا كانت تفعل عندما تصاب بخيبة أمل. وكان كل ما في ليلتها مخيبًا للآمال؛ بدءًا من هذه البوابات الإلكترونية التي مرا بها، وذاك الرجل الذي له رأس ضفدع، ثم انتهت بهذه العبارة التي ظل صداها يتردد في أذنها "في عمر والدك". لم يتحدث حتى وداعها بكلمته المعتادة.

- انتبهي لنفسك.

خلعت حذاءها، وألقته بإهمال في الردهة، بينما ألقت "المانطو" في غرفة الجلوس. الفستان وباقي الملابس منثورة هنا وهناك، لم تحاول حتّى أن تزيل "الماكياج" عن وجهها الذي تلطخ بسبب الدموع.

كان يجب أن تفيق من أوهامها وتتأكد أن هناك الكثير من الأشياء التي تقف حائلًا بينهما: ليس العمر وحده، بل بيته وزوجته؛ هذا الكيان الذي ظل يبنيه على مدى عقود طويلة. لكنها كانت متشبثة به كطفل صغير متشبث بذيل فستان أمه يخشى أن يتركه ليتوه منها وسط الزحام. فكرت في سبب الشعور بالأمان الذي يمنحها إياه. شعور الأمان الذي يمنحنا إيّاه بعض الأشخاص ليس بحاجة إلى مواقف مادية تبرهن عليه وتؤكده؛ فهو شعور معنوي لا يحتاج لأدلة وبراهين. وكانت كلما وقفت في محيطه تشعر بأنها تستند إلى جدار قوي لن يدعها تسقط أبدًا. هي التي عاشت عمرها وحيدة تستند على جدار روحها.

وكأن كل شيء في الكون تآمر عليها هذه الليلة؛ فبدلًا من أن تقضي أمسية جميلة برفقة الرجل الذي تحبه حدث العكس. وعند تصفح "إيميلها" قبل النوم، وجدت "إيميلًا" من اللجنة الطبية يخبرونها فيه أن ما جاء في التقرير الذي أرسلته لهم بخصوص فحص المومياوات تم رفضه لأن الأسباب المذكورة لا تستدعي فعل ذلك.

في صباح اليوم التالي، رسم ما حدث بالأمس معالمه على وجهها. لاحظ ذلك مديرها فسألها باهتمام: "هل هناك شيء؟"

اكتفت بالإيماء برأسها بما يفيد النفي.

كان هناك شيء يخبرها أن وراء العيوب البصرية في عيون أولئك الأشخاص أمرًا ما، وباكتشاف ما هو ستصل لكشف الكثير من الأسرار. الأمر ليس مجرد تكهن، بل كان بالنسبة لها يقينًا. ولكن رغم يقينها بذلك لم تستطع أن تقنع اللجنة به.

إذًا، ما الذي عليها أن تفعله؟ لن تستطيع أن تواصل العمل في المشروع وتنسى أمر عيون أولئك الأشخاص وكأن شيئًا لم يكن. ربما عليها أن تعتذر عن الاستمرار. ولكن، حتّى لو اعتذرت فستعيش مؤرقة بذلك الأمر الخفي. تلك العيون ستظل تلاحقها في صحوها ومنامها لمعرفة ما حدث لأصحابها.

مرت الأيام ثقيلة وهي تفكر في قرار. لم تتخلّ يومًا عن تحقيق هدف لها، إذ كانت دائمًا تملك إصرارًا وتحديًا، واستطاعت بهما أن تتغلب على الفقر والعوز والنبذ والتنمر.

كانت في محل الزهور تختار باقة من زهورها المفضلة عندما رن هاتفها برقمه. لم يهاتفها منذ لقائهما الأخير الذي مرّ عليه أسبوع. ولم تحاول أن تفعل. سألها ن كانت تملك الوقت لشرب فنجان قهوة معه. ولم تكن تملك غير "نعم" لتجيبه بها.

ذهبت إليه بهيئتها كما هي. لم تحاول حتى أن تلقي نظرة على نفسها في المرآة. كانت محبطة وتعيسة، ولاحظ ذلك فور رؤيتها. سألها عن السبب، وبآخر رشفة من فنجانها كانت قد أخبرته بكل شيء.

دخل في تفكير عميق، ثم قال بنبرة واثقة:

- سوف أمّول لك بحثك بالكشف عن المومياوات.

فأجابته بسخرية:

- هل تمزح؟ عفوًا، ولكن هل تعلم كم سيكلف هذا؟

- لا تشغلي بالك بهذه الأمور. سأقوم بدفع التكاليف كافة.

- وما الذي يجعلك تفعل ذلك؟ إنه أمر...

فقاطعها:

- من الواضح أنك نسيت أنني مهتم بالفنون. اهتمامي بالفنون في المقام الأول نابع من حبي لها، وليس من أجل الصفقات والربح كما تعتقدين.

- لا... أنا لا أستطيع أن أورطك في ذلك. ماذا لو لم يسفر هذا البحث عن شيء!؟

- وقتها سنطمئن إلى أن تلك المومياوات كانت بصحة جيدة.

قالها وهو يبتسم فشاركته الابتسام. أشارت بيدها بما يفيد "لا يهم".

- دعك من هذا. انسَ الموضوع.

- عندما احتجت إليك قمت بمساعدتي. وأنا أيضًا سوف أساعدك. هذا واجب الأصدقاء مع بعضهم.

- ما الذي تقوله!؟ مساعدتي لك لم تكلفني شيئًا! ليس هناك وجه للمقارنة.

- لماذا أنت عنيدة إلى هذا الحد؟

فكرت لبعض الوقت، ثم وكأنها وقعت على اكتشاف مذهل:

- سأبلغ المؤسسة عن عرضك بالتمويل ليضموك ضمن قائمة الممولين.

- ولماذا؟

- وجود اسمك في تمويل مشروع مهم مثل هذا سوف يمنحك الكثير من الأشياء: الشهرة والاحترام والتقدير. سيختلف الأمر تمامًا بعدها عند عقدك صفقاتك؛ لأنك ستدخلها ليس كمجرد هاوٍ وإنما كأحد رجال الأعمال المهتمين بالفن لحدّ أنه يمول مشروعًا بهذه الأهمية. هناك الكثير من الأشياء التي ستحصل عليها بمجرد وضع اسمك ضمن قائمة الداعمين للمشروع.

- لا أنا أفكر بهذه الأمور. ولكن، إذا كان هذا سيريحك فلا بأس. أهم شيء أن تكوني سعيدة.

يا إله السموات، بكلمات منه رفعها من أسفل الأرض لتركض هناك بين السحاب والنجوم "أهم شيء أن تكوني سعيدة"، لم تسمع هذه الكلمات سابقًا. فهي لم تشغل تفكير أحد يومًا إن كانت تعيسة أو سعيدة. لم يهتم أحد يومًا بأن تكون سعيدة. كانت تريد أن تضمه إليها وتشكره.

قامت بالاتصال بمديرة المشروع وأطلعتها على الأمر من الجوانب كافة، وذكرت لها مدى إحباطها من عدم موافقة اللجنة على فحص المومياوات. فاعتذرت لها عن رفض اللجنة؛ لأن الدعم المادي يجب أن يؤكد حقائق وليس لبرهنة شكوك. أما عن إدراج اسم هذا الشخص ضمن قائمة الممولين فستعرض الأمر على مدير إدارة المشروع، ولكن قبل كل شيء يجب أن يُقدِّم ملفًا مفصلًا عن أهدافه وطموحاته، بالإضافة إلى قيمة التمويل الذي سيدعم به المشروع. هناك نسبة معينة يجب أن تدفع حتّى يسمح بإدراج اسمه ضمن قائمة الممولين.

أغلقت الخط معها، واتصلت به لتخبره عن تفاصيل المكالمة.

- لا تقلقي، سأجعل مدير أعمالي يقوم بالأشياء كافة وسيتواصل معك بعدها.

شعرت بسعادة غامرة لأن حدسها لم يخذلها، وشعورها بالأمان معه كان حقيقة وليس وهمًا.

بعدها بيوم تلقت مكالمة من مديرة المشروع؛ التي دائمًا تتحدث بسرعة تمنح الطرف الآخر إحساسًا بأنها تحدثه وهي على عجلة وتهرول وسط زحام للحاق بالحافلة أو بالقطار.

- هناك خبر سعيد، وخبر سيئ. ما الذي تودين سماعه أولًا؟

- دعينا نبدأ بالجيد.

- الجيد هو أن النسبة المطروحة أعلى بكثير من الحد الأدنى، وذلك سوف يمنحه فرصة كبيرة لوضع اسمه ضمن اللائحة.

- والسيئ.

- السيئ أنه ذكر أن هذه الأموال لدعم البحث الخاص بك، والشروط تنص على عدم وضع أموال معينة في اتجاهات معينة؛ بمعنى أن جميع مبالغ التمويل توضع في حساب خاص بالمشروع وتصرف عليه.

- ولكن السبب الرئيس لتمويل المشروع هو لدعم بحثي بعد رفض اللجنة.

- حسنًا، أفهم ذلك، وسوف يقوم الصندوق بالطبع بتمويل بحثك في المقام الأول. ولكن علينا ألا نأتي على ذكر ذلك. كما أن تمويل بحثك لن يكلف مليون دولار.

- مليون!

- نعم، لقد وضع مليون دولار. ألم يخبرك؟

تجاهلت سؤالها، ولكنها لم تستطع أن تتجاهل المفاجأة التي وقعت عليها والتي جعلت صوتها بالكاد يخرج.

- فهمت وجهة نظرك، وسوف أخبره بها.

- في حال موافقته، أرجو أن يبدل هذه الصيغة في الطلب. إلى اللقاء.

تساءلت، لماذا عساه يدفع كل ذلك؟ كان من الواضح أنه ثري، ولكنها لم تكن تعلم أنه على هذا القدر من الثراء. فعندما يقرر شخص أنه سوف يتبرع بهذا المبلغ في سبيل الكشف عن شيء ما فمن المؤكد أنه يملك أضعاف أضعافه. ولكن، من المؤكد أنه يعلم أن بحثها لن يكلف كل هذا المبلغ، فلماذا فعل ذلك؟ هل مثلًا للتفاخر بذلك بين الوسط الفني؟ ولكنه في الأساس كان يرفض الفكرة.

أخذت الأسئلة تذهب وتأتي بها. كان بإمكانها أن تضغط على رقمه لتحصل على إجابة تخلصها من حيرتها، ولكنها لم تفعل! هناك شيء ردعها عن فعل ذلك، ولا تعرف ما هو.

9

الإسكندرية القرن الأول الميلادي

كان ماكديوس يقيم مدرسة لتعليم الرسم في الدور السفلي من منزله، وكان الإقبال شديدًا على الالتحاق بمدرسته. ولكنه لم يقبل إلا من يملكون موهبة حقيقية. أما أولئك الفتيان والشباب المدللون الذين يريدون الانضمام لمدرسته دون موهبة أو حتى رغبة، وإنما فقط لمجرد أن يذيع صيتهم ويتباهوا بين الناس بأنهم يتتلمذون على يد الفنان الشهير "ماكديوس هيروس" فلم يكن يقبل بهم.

زاره يومًا ابن سناتور روماني شهير، وطلب منه أن يعلمه الرسم. حاول ماكديوس معه وبذل جهدًا. وعندما علم أن تعبه معه سيذهب أدراج الرياح- إذ لم يكن يملك أدنى موهبة أو رغبة- طلب منه عدم المجيء مجددًا، ونصحه بأن يتعلم شيئًا آخر كالصيد مثلًا أو الفروسية وربما المصارعة الرومانية. غضب الشاب وهاج وماج، وأخذ يصيح: "من تظن نفسك لتقول لي ذلك!؟ أنت لا تعدو عن كونك إغريقيًا حثالة". ثم أشار إلى تلاميذه الذين كان يجلس من بينهم أوناس قائلًا: "انظر إلى تلاميذك من البربر، إنهم حثالة مثلك. كيف ترفضني أنا الروماني وتقبل بهؤلاء الرعاع؟" وبهدوء شديد، أجابه ماكديوس: "يمكنك أن تذهب إلى سيوة هناك لتشاهد معبد أمون، أو إلى طيبة وممفيس لتشاهد الأهرامات. وبما أنك تعيش في الإسكندرية، يمكنك الذهاب إلى مكتبة الإسكندرية. إنها قريبة من هنا، والذهاب إليها لن يكلفك الكثير من الوقت. وعندها فقط ستعلم من هم المصريون ومن الإغريق، وستفهم من يكون الرعاع الحقيقيون. إنهم عزيزي مغتصبو الأراضي، وآكلو قوت الفقراء، وسارقو الشعوب، من يصدّرون قسوتهم وجهلهم للعالم أجمع".

بعدها بعدة ساعات تم حبسه. وعندما خرج بعد سبعة أشهر وذلك بفضل تدخل شخصية مهمة للعفو عنه، كان شخصًا آخر فقد بريقه وأصبح معتمًا. لم يعد يسير بخطوات واسعة وممتلئة

بالنشاط والحيوية كعادته، بل أصبح كمن يجر ذيل خيبته وراءه. ولم يمارس بعدها الرسم مرة أخرى. لم يفهم أحد السبب. إذ لم يعلم أحد أنه خلال فترة حبسه تعرض لصنوف شتى من التعذيب؛ أقساها تهشيم عظام أصابعه عمدًا حتى لا يعود للرسم مجددًا.

انفضّ عنه الوصوليون والمنتفعون، وبقي معه فقط المخلصون، ومنهم أوناس الذي لم يتركه لحظة، وجدد الثقة مرة أخرى في قلب ماكديوس، ثقته بأن في هذه الحياة أشخاصًا طيبين رغم قلتهم، وثقته في حدسه الذي أخبره عن نبل هذا الفتى منذ أن رآه للمرة الأولى.

أوكل ماكديوس إدراة المرسم لأوناس، وجعله يعمل تحت إشرافه. لم يخبر أحدًا أن عظام أصابعه تم كسرها؛ فبالنسبة له كانت هي عنفوانه، هي ما يبقيه على قيد الشغف، قيد الأمل. وخبر تحطيمها على أيدي الرومان كان سينتشر في أرجاء المدينة، ومن المدينة ستتناقله الريح عبر البحر إلى أثينا، وعندها الكل سوف يثرثر: "حطم الرومان أصابع ماكديوس. يا له من مسكين!" لا فرق بينه وبين العبيد الذين تضج بهم السفن في الميناء، ويتم خصيهم قبل بيعهم في سوق النخاسة.

الوحيد الذي علم سره هو أوناس، ووعده بألا يخبر به أحدًا. عندما كانت أسرة المتوفى تطلبه لرسم صورة له، كان يعتذر ويخبرهم أنه سيرسل فنانًا آخر أكثر قدرة وموهبة منه.

بالفعل تعلم أوناس هذا الفن من معلمه، وتعلَّم منه طريقة رسمها وإخراجها بهذه الكيفية التي تجعل الرائي يقف كثيرًا أمامها ويتفكر في سرها. فهذه الصور التي ترسم لأموات كان يجب أن تعزز الشعور بالفقد وبالحزن. والأهم منهما اللغز المتمثل في الموت؛ فيجب أن تجسّد وقع الانتقال من عالم لآخر.

لذلك أخبره أن الأمر ليس فقط نقل الملامح، بل يجب أن تعبّر هذه اللوحات عن لحظة الموت ورهبته ودهشته أمام قدر مقبل عليه لا يعلم عنه شيئًا. وهذه العبارة التي أخبره بها ظلت دائمًا لصيقة عقله تستدعيها الذاكرة كلما بدأ في رسم لوحة جديدة

(هذه الشخوص ستقوم يومًا ما من رقدتها الأبدية، ويجب أن ترى أثر ما تركته عليها لحظات الانتقال للعالم الآخر. كل ما يحتاج إليه الأمر هو البصيرة. وما لاحظته خلال عملي هو أن نسبة كبيرة تشترك في التعبير نفسه؛ تعبير شخص استسلم لمصيره. هذا الاستسلام يمنح الرضى، لذلك كانت هناك دائمًا مسحة خفيفة لأثر ابتسامة.)

كانت اصعب مرة هي المرة الأولى التي ذهب فيها لرسم شخص متوفى، عندما أزاح الرجل الغطاء عن وجه زوجته، ارتعدت أوصاله وارتد خطوتين للخلف بالرغم من أن المرأة ظهرت وكأنها في نعاس عميق. ومع الوقت اعتاد ذلك وألفه.

لم يكتفِ أوناس بما أخبره إيّاه معلمه، إذ لم تتوقف أعماله على تجسيد لحظة الانتقال، بل بالنسبة له ذهب أبعد بكثير. فيمعن النظر في الماضي البعيد لهذا الشخص، ويستحضره بخياله عندما كان يملأ الدنيا بالضجيج والنشاط، ويستحضر لحظات سعادته وبهجته، ولحظات حزنه وألمه، يتخيله وهو يقدم القرابين للآلهة لترضى عنه وتحقق أمنياته، ويتخيله وهو يتمتم بالدعاء لتحقيق هذه الأمنيات، ثم وهو ينشد أناشيد الفرح والمسرة ويرقص كثيرًا عند تحقيق هذه الأمنيات. أوَليس المغزى من حياتنا هو الأمنيات؟ في البداية نسعى جاهدين لتتحقق، ثم ننتظر أن تتحقق، وعندما تتحقق نبحث عن أخرى، وهكذا تمضي الحياة أمنية بعد أخرى؛ منها ما يتحقق ومنها ما لا يتحقق. ثم في النهاية، نذهب إلى مصيرنا المحتوم.

يقولون إن التلميذ يتفوق على معلمه، ودراسة أوناس للفلسفة جعلته يفهم الكثير عن الحياة وعن الموت؛ لذلك جاء رسمه لصور الوجوه معبرا عن مسيرة حياتهم التي كان يستطيع أن يستشفها من ملامح الجثمان الراقد أمامه. وكما يجلس الطبيب الشرعي لتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة، كان هو من خلال ملامح الوجه يستطيع أن يتخيل كيف كانت حياة هذا الشخص.

10

عندما وجدها أمامه أخبرها بنبرة معاتبة:

"آخر شيء يمكنني توقعه هو زواجك من هذا الرجل".

"ماذا تقصد بهذا الرجل؟"

"أقصد هذا الرجل الذي يحكم المدينة بموجب أنه نائب الإمبراطور، وليس عليه فعل شيء سوى تنفيذ ما يمليه عليه إله روما المعظم".

"هذا عمله".

"نعم، أعلم. وجميعنا نعلم أن السرقة وسفك الدماء والضرائب الباهظة والقتل بوحشية هي صميم عمله".

صمتت ولم تجِبه، بل تصنّعت أنها مشغولة بمطالعة البرديّ بيدها، بينما تحوّلت نبرته هذه المرة للسخرية:

"ولكن، أخبريني عن إحساسك بمعاشرة رجل كهذا. أم أن سعادتك بحصولك على لقب زوجة النائب طغت على كل شيء".

"حسنًا، رسالتك وصلت. هل هناك شيء آخر؟"

تطلع إلى الأسورة على شكل حية التي تضعها حول ذراعها.

"إنها تليق بك".

"شكرًا".

ثم تركته وذهبت إلى المكتبة، وهناك التقت بالكاهن أماديوس؛ واحد من المشرفين عليها.

ابتسم مرحبًا عندما شاهدها، وسرعان ما تحولت هذه الابتسامة إلى تعبير استفهام عندما لمح الدموع في عينيها، فمزح قائلًا:

"لا تخبريني أنك تبكين من شوقك لي".

ابتسمت وهي تمسح دموعها بيدها:

"أنا حقًّا اشتقت إليك كثيرًا".

"ولكن، لماذا تبدين غير سعيدة؟"

"لأنني لست كذلك".

ثم قصّت له كل شيء. حكت له عن مخاوفها، عن حزنها، عن الرجل الذي تعيش معه ولا تعرف عنه شيئًا، عن الرجل الذي تحبه وتخشاه، عن الرجل الذي يداعبها بحنان وعطف ليلًا، وعلى مائدة الإفطار صباحًا تسمعه وهو يوجّه أوامره لمعاونيه بالقتل. حكت له أنها تشعر بأنها وحيدة وحزينة.

كانا يجلسا أحدهما مقابل الآخر. يبدوا ضئيلين في هذا البهو الواسع وسط البناء الضخم، بينما تحيط بهما أرفف المكتبة العملاقة.

ربّت على يدها: "أتفهم ما تقولينه. ولكنه زوجك، وليس عليك فعل شيء آخر".

سعل سعالًا خفيفًا ثم أضاف:

"أعلم أنه شديد القسوة، ولا هم له سوى تنفيذ أوامر القيصر الظالمة التي أدت لقيام ثورة في البكول".

رددت خلفه بدهشة:

"ثورة!"

- نعم، لقد خرج الأهالي جميعهم: فلاحون وعمال وكهنة يندّدون بالظلم الواقع عليهم. ويدافعون عن زرعهم وقوتهم ورزقهم ولكن الأمر تطور لأكثر من ذلك؛ لقد تصادمت قوات الثوار هناك مع عسكر الرومان وضباطهم، وحدثت مواجهات كبيرة انتهت بفرار الرومان إلى القرى المجاورة بعد أن فقدوا السيطرة على الوضع.

- ربما حديثك هذا يفسر المزاج السيئ جدًّا لزوجي، وتلك التعليمات القاسية التي أسمعه يلقيها على معاونيه بالقبض على رجال وقتلهم. ولكني لم أفهم تحديدًا ما الذي يحدث! تخيل أنني أعيش في قلب الحدث مع من يوجّه ومن يخطط، ولكنني لم أعلم عن هذه الثورة شيئًا. حياتي في ذلك القصر الكبير بمنأى عن كل شيء. أشعر أنني في سجن، لا أعلم بما يحدث خارج قضبانه العالية.

- ما حدث تأخر حدوثه. إنه رد فعل طبيعي ومتوقع. فقد أصدر الوالى الروماني الذي هو زوجك مرسومًا فرض فيه ضرائب جديدة على الزرع، على الملابس، على الأثاث، وحتى على الزواج والطلاق! لم يدع شيئًا إلا وفرض عليه ضريبة. وليست ضرائب قليلة، إنها أموال باهظة. ستكون عبئًا كبيرًا على الشعب، وخاصة في هذه الأوضاع الاقتصادية المؤلمة. ومن لا يدفع فمصيره الحبس مدى الحياة بتهمة التهرب الضريبي.

عندما وُزِّع المنشور غضب المواطنون ونظموا ثورة ضد هذه القوانين الجديدة، قادها كاهن مصري يدعى "ايسيدوروس" استطاع توحيد صفوف الفلاحين لمجابهة الفرق الرومانية التي جاءت لكي تقمع الثورة. ونجح في هزيمتهم، وهذا النصر أوقد حماسة المصريين الذين انتفضوا من سباتهم ضد الذل والظلم والهوان، وامتدت الثورة إلى مدن أخرى.

ثم نظر حوله وأخفض من نبرة صوته إلى حد الهمس:

"وهنا في الإسكندرية يجهزون لخروج ثورة كبيرة أيضًا".

ارتبك فجأة وكأنه تذكر شيئًا:

"لا أعرف هل من الغباء أن أخبرك بهذه الأخبار؟ لقد نسيت أنك زوجة نائب الإمبراطور وأحدثك كما لو أنك ما زلت سيرينا الفتاة الذكية الممتلئة بالأمل والحماسة والتي ترفض الظلم والاستعباد. هل نسيت سيرينا أحاديثنا ومناقشاتنا الطويلة عن طغيان الرومان؟ لماذا فعلت ذلك؟ لماذا ذهبت إلى الجحيم بقدميك!؟"

"ما زلت سيرينا نفسها التي ترفض الظلم والاستعباد. ولكنني لم أعد أملك الأمل أو الحماسة".

"صعب أن يفقد الإنسان الأمل. عليك أن تتشبثي به على الدوام".

"الأمل غادرني عندما شاهدتهم منذ أيام يطلقون الوحوش الجائعة لتنهش أجساد الرجال، ويصيحون لتشجيعها لتنهش أكثر وأكثر. أي أمل تعتقد أنه علي أن أتشبث به بعد ذلك؟ بعد أن تيقّنت أن هناك وحوشًا آدمية لا تقل قسوة وتوحشًا عن الحيوانات؛ لدرجة أنني أصبحت أشك في صدق كل ما تعلمته هنا في هذا المكان من تعاليم أرسطو عن الإنسانية".

"ليس عليك فقد الثقة والأمل والتشكيك في تعاليم معلمنا الأكبر أرسطو؛ لأن في هذه الحياة هناك جانب للخير وجانب للشر".

قالها وهو يربت على كتفها، ثم أنهى كلامه قائلًا:

"أرجو أن لا يعرف هذا الحديث أحد سوانا؛ لأنني بذلك سأكون قد أفشيت سرًّا كبيرًا وخطيرًا، وأنا لا أريد أن أكون هذا الرجل مفشي الأسرار".

"اطمئن. أعرف ما تفكر فيه. أنا سعيدة بقيام ثورة ضد الظلم والطغيان؛ حتى لو كانت هذه الثورة ضد حكم الرومان الذي يمثله هنا زوجي".

11

كانت العربة الملكية التي يجرها الثيران تنتظرها بالخارج عندما التقت أوناس الذي كان يركب على محفة يسير بها العبيد. التقت نظراتهما، ولمحت على وجهه تعابير السخرية، فرفعت وجهها إلى الأعلى في شموخ.

كانت تكره أن تفعل ذلك، أن تعيش دور الملكة. ولكنه أجبرها بسخريته منها على فعل ذلك. لم تفهم لماذا يعاملها بهذه الطريقة؟ فمن المفترض أنه يفهمها ويحفظها جيدًا! لقد رافقته في دروس العلم منذ وقت طويل، ومن ثم تحولت تلك الزمالة لصداقة متينة وقوية. كانت تخبره عن أدق تفاصيل حياتها، وكان يخبرها عن الوجوه التي يرسمها، ويحكي لها قصص أولئك الموتى والتعابير المختلفة التي يلمحها على وجوههم. يحكي لها عن ابتسامة حالمة وكأن صاحبها يحلم حلمًا جميلًا، وعن تعبير متشنج ومتخوف، وتعبير بالاستسلام التام.

وعندما يلاحظ تأثرها يبدل الموضوع، فيحاول أن يحكي لها عن أشياء لطيفة ومسلية، ويلقي نكات فتأخذهما الضحكات. بالرغم من اختلاف العمر والعرق والثقافة، هناك شيء استطاع أن يجمعهما؛ شيء واحد استطاع أن يوحدهما، أن يضمهما تحت جناحه وأن يلفهما ويأخذهما معه. إذًا، كيف استطاع وهو الذي تربطه بها علاقة قوية ومتينة أن يشبهها بالحية؟

عندما وصلت إلى القصر هذا اليوم، كانت حالتها النفسية سيئة. إذ إن فقدان صداقة أوناس وثقته بالنسبة لها شيء مرير لا تحتمله أو تقوى عليه. أخذت تلوم نفسها، لماذا خرست عندما أخذ يصب عليها وابل سخريته واتهاماته لها؟ لماذا لم تدافع عن نفسها؟

لمعت فكرة في رأسها، فقررت تنفيذها دون تفكير. في السابعة عندما ارتدت ملابسها العادية، وليس تلك التي أجبرت على ارتدائها منذ زفافها؛ ملابسها التي تحمل هويتها وليس الثوب

الروماني الذي لا يشبهها. كانت تعلم أنه اليوم يعقد أحد اجتماعات المجلس والتي تنتهي بعد منتصف الليل. وبعد مناقشة ما يدور في أنحاء المدن والقرى، تمتد موائد العشاء، وبعدها موسيقى وغناء ورقص تقدمه عاهرات من روما ولن يعود زوجها قبل مطلع الشمس.

تسللت خفية من الباب الخلفي للقصر بعد أن تأكدت أنه ليس هناك حراس يمكنهم رؤيتها، واتجهت مسرعة تسلك أزقة ضيقة تحفظها تمامًا، وهي تمني نفسها بوقت سعيد ستقضيه مع صديقها الذي يملك حسًّا فكاهيًّا بعد أن تبرئ نفسها أمامه وتخبره أنها غير راضية إطلاقًا عن سياسة زوجها. فمن المؤكد سيصفح عنها، وكعادته سيصطحبها إلى مرسمه ليعرفها على الوجوه التي يرسمها ويختلقا معًا قدرًا لهم، قدرًا عاشوه في حياة سابقة.

ولكن عند وصلت لبوابة القمر حيث يقع منزل أوناس. أصابتها خيبة أمل عندما وجدت المشاعل مطفأة والظلام والسكون يلفان المكان فكرت أنه ربما يكون في المرسم.

خمس درجات رخامية قادتها إلى المرسم الذي يشغل قبو المنزل، وله مدخل منفصل عن الباحة. وكان ظنها في محله؛ إضاءة خافتة تضيء المكان بالداخل. وجدت الباب مواربًا، فأزاحته بيدها ودخلت بهدوء.

تناهت إلى سمعها همهمات رجال تكاد تسمع. ببطء وحرص شديدين تقدمت عدة خطوات. كان عدة أشخاص يلتفون حول مائدة مستديرة في ضوء خافت، يتحدثون بصوت خفيض، ويظهر أنهم يخططون لشيء سري وهام.

اختفت وراء لوح خشبي. إذ لم يكن من الممكن أن تعلن عن وجودها، فزيارتها له في مرسمه وفي هذا التوقيت ستثير الكثير من الأقاويل والشائعات.

انتبهت لصوت أجش ذي بحة ارتفع فجأة. كان صوتًا تحفظه تمامًا؛ إنه صوت المشرف أماديوس، ثم سمعت صوت الفنان الذي تتلمذ أوناس على يده. حاولت أن تتذكر اسمه، ولكنها لم تستطع. ولكنها متأكدة من نبرة صوته التي تشبه صفير الريح؛ لقد قابلته عدة مرات عندما كانت تزور أوناس في المرسم. الغريب أن المعلم كلاديويس موجود هنا؛ وهو الذي نادرًا ما يغادر المكتبة!

فجأة، فقد البعض هدوءهم، وتعالت أصواتهم، ودخلوا في نقاش حاد فهمت منه أنهم يخططون لثورة لتكون إحدى تبعات ثورة البكولية هنا في الإسكندرية، والتي قامت في عدة أقاليم منذ أسابيع كما أخبرها أماديوس.

حرصت أكثر على الاختباء، فظهورها لن يثير الأفكار والأقاويل فقط، بل سيكون محل شك وريبة. فهي ليست موضع ثقة حتى من أقرب الناس إليها من الجالسين على المائدة؛ تذكرت نظرات السخرية التي رماها بها أوناس وندم أماديوس بعد أن أخبرها عن الثورة ورجاؤه لها أن لا تخبر أحدًا أبدًا.

19

فلورنسا 2018

في السابعة كانت متمددة على أريكة على طراز "مدام ريكاميه" بغرفة المعيشة. على الحائط لوحات فنية للفنانة الفرنسية "كريستا كيفير" التي تتسم أعمالها بالحياة والديناميكية. كانت خبيرة في توزيع الإضاءة في لوحاتها بشكل يبعث على الصحو والحياة. في إحدى الزوايا، كانت هناك طاولة متعددة الأرفف وضعت عليها جهاز جارامفون ووحدة سي دي، وماكينة صناعة القهوة، ومكتبة صغيرة. كانت غرفة معيشتها تشبهها؛ بسيطة وملائمة لطبيعتها ومزاجها.

تستلقي على الأريكة، وتستمع لأغانٍ إيطالية قديمة، وتشرب الكابتشينو، وتفكر في قيمة هذا المبلغ الذي وضعه يزن في الصندوق. كانت تعلم أنه مبلغ تافه بالنسبة لهذه المبالغ التي يضعها جامعو اللوحات وتجار التحف في تمويل المشاريع من هذا النوع، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك بنية الربح غير المباشر؛ فهذه الأموال التي يضعونها اليوم ستدر عليهم بعد غد أضعافها. دائمًا ما شعرت بالحنق على هؤلاء؛ ليس فقط لأنهم يتخذون من الإبداع تجارة، ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك. أكثر من ذلك ليجعلها تكرههم وتحنق عليهم وتحتقرهم. فهي الطفلة ذات الجدائل الطويلة التي لطالما عانت في طفولتها من الجوع لأن مبلغ الإعانة الذي كانت تقدمه إدارة اللجوء لأسرتها لم يكن يسد الرمق، وكان كل شيء بحياتهم بخلاف الطعام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع يعتبر ترفًا لا يحق لهم مجرد التفكير فيه.

واليوم تعلم أن أحدهم قرر وضع مليون دولار في حساب المشروع. هل يعلم هذا الرجل ما الذي يمكن أن يفعله هذا المبلغ!؟ يستطيع أن يسد جوع قرية بحالها من الفقراء المعدمين. ويمنح الدفء لعدد كبير من الأسر التي تعيش في مخيمات اللاجئين على حدود الدول. هذا المبلغ يمكنه أن يمنح الشبع والدفء والأمان.

كان هاتفها يرن برقمه، ولكنها على غير العادة لم تركض كطفلة سعيدة بفستان العيد لتجيبه. شعرت بأن هناك شيئًا ما، شيئًا يجثم بثقل على روحها. رفضت أن تستسلم لنوبة البكاء، فارتدت ملابس الرياضة، ونزلت للتريض. كانت ليلة دافئة، فالسماء صافية، والقمر منير، والنجوم براقة. مشت على طول البحيرة دون وجهة لخطاها. كانت تحب هذا الشعور؛ أن تمشي دون هدف ودون رفقة. ولكن في هذا المساء، كانت ذكريات الطفولة البائسة هي رفيقها في التريض.

في الثانية عشرة رن هاتف مكتبها، وأخبرها الموظف بأن هناك ضيفًا يريد رؤيتها ويدعى يزن علم الدين.

- دعه يدخل.

استغربت من هذه الزيارة الصباحية، وتساءلت: لماذا لم يخبرها بمجيئه؟

طرق الباب طرقتين، ودخل مسرعًا، وقف في منتصف الغرفة، وتحدث مباشرة بنبرة قوية وجادة:

- لن أعطلك عن عملك. بالأمس، تلقيت "إيميلًا" مهمًا من إدارة المشروع، يريدون عدم تحديد اتجاهات معينة في كيفية صرف المال الذي سوف أشارك به لأنه سيدخل في الصندوق الخاص بالمشروع، ويحق لهم التصرف به كيفما أرادوا طالما أن الأمر متعلق بمومياوات الفيوم. وطبعًا أنت تعلمين أنني سأشارك في تمويل هذا المشروع خصيصًا من أجل الكشف عن شكوكك.

أجابته باستنكار:

- وهل وضعت مليون دولار للكشف عن شكوكي!؟

نظر إليها متسائلًا:

- وهل هذا يضايقك؟

- إنه يثير استغرابي.

- لقد وضعت هذا المبلغ لمساعدتك في بحثك حول كل ما يتعلق بهذه المومياوات. هل تعتقدين مثلًا أن الأمر سيتوقف على فحصها بالأشعة!؟ حسنًا، وبعد ذلك، ماذا لو أسفرت هذه

الفحوص عن وجود شيء. ألن يقود ذلك للمزيد من الفحوصات والبحوث؟ وكل ذلك سيتطلب المال.

كان كلامه مقنعًا. كيف لم تفكر في الأمر بمثل هذه الطريقة؟ أو أن ما تسبب في مضايقتها حقًا هو ثراؤه الفاحش، ثراؤه الذي وضّح الفرق بينهما، وعرى فقرها، وكشف مواضع النقص في نفسها وروحها.

هي تكره كل الأثرياء في هذا العالم. لم تكره المفكرين، وأصحاب النفوذ، وأصحاب السلطة، وذوي الأسماء اللامعة، والأقوياء، وذوي الجمال، والأذكياء، والمتأنقين، والنشطين، بل هي تكره الأثرياء لأنها عاشت تحت خط الفقر.

- نعم، صحيح.

- إذًا، ما المشكلة!؟

هل تخبره بالمشكلة؟ أتحدثه عن أنها عانت طويلًا من العوز والبؤس والفقر.

وضعت ابتسامة على وجهها:

- ليست هناك مشكلة. ولكن إدارة التمويل لا تمنح الحق للممول بأن يحدد طرق صرف النقود. تحدثت مع مديرة المشروع، وتفهمت الوضع. هي فقط تريد منك أن ترسل الملف دون ذكر أن هذه الأموال للمساعدة في بحثي، ومن جانبها هي ستفعل.

- وهل تثقين بها؟

لم تجِبه، فهي لا تعرف تمامًا كيف تدار الأمور داخل هذه المؤسسة. والغريب رفض اللجنة فحص المومياوات بحجة أن ذلك سيكلف الكثير من الأموال في الوقت الذي تصرف ضعفها على اكتشافات أقل أهمية.

- خذي وقتك في التفكير. تبرُّعي بهذا المبلغ من أجل عملك فقط. لو قلت نعم فسأودع الأموال، ولو قلت لا فلن أفعل. في انتظار مكالمتك، إلى اللقاء.

وفيما هو يهم بفتح الباب، استدار لها وصوّب إبهامه باتجاهها كمن يصوّب مسدسًا تجاه أحد.

- عندما أقوم بالاتصال بشخص ولا يجيب ألتمس له عذرًا بأنه مشغول أو نائم أو مزاجه سيئ ولا يستطيع الرد. ولكني لا ألتمس له العذر في حال لم يعاود الاتصال بي بعدها.

تعلم أنه ليس من الذوق عدم معاودة الاتصال به. وتعلم أيضًا في قرارة نفسها أنه الشخص الوحيد على وجه البسيطة الذي تبتهج أساريرها بمجرد رؤية اسمه على شاشة هاتفها.

قامت بطلب رقم المرأة التي تتحدث بسرعة فائقة تمنحك إحساسًا أنه يجب أن تصغي جيدًا لتلتقط ما تتفوه به حتّى لا يفوتك شيء. ولكن هذه المرة، طلبت منها أن تشرح لها بهدوء ما سوف يتم.

- سوف نضع تمويل بحثك في المقام الأول، ولكن هذا المشروع نتعاون فيه كمجموعة وليس كفرد، لذا سيكون من الأنانية أن نضع هذه الأموال لخدمة عملك أنت فقط. وأعتقد أن ذلك لن يرضيك أيضًا، فمهمة المشروع هي الكشف عن السر وراء هذه المومياوات. وكل الأموال التي سوف تصرف ستكون في صالح ذلك. بالإضافة إلى أن الممول طبعا سيمنح العديد من الامتيازات في سوق الفن، ويكفي أن اسمه سيوضع ضمن قائمة مهمة تسعى بدون مقابل للكشف عن أسرار هامة في تاريخ الفن. ربما تتصورين أن هذا المبلغ كبير، ولكن أمام وضع اسمه ضمن قائمة من أهم وأشهر الأسماء في مشروع كبير، مثل هذا وقتها لا يعد شيئًا. لا أعرف نوايا الممول، وهل يفعل ذلك لحبه للفن والاكتشافات؟ أم لأنه من أولئك المهووسين بثرائهم ويريدون الحصول على قيمة ونفوذ. وربما هو "دادي شوجر".

ثم أعقبت كلامها بضحكة سخرية؛ هذا السلوك ضايقها فأجابتها بحنق:

- لا، هو ليس دادي شوجر، هو إنسان محترم له عائلة يحبها ويقدرها، ويفعل ذلك من أجل حبه للفن وليس أكثر.

بعد أن أنهت المكالمة، أخذت تفكر في معنى حديثها. لم يكن أبدًا هذا "الدادي الشوجر" بالنسبة لها. صحيح أن هناك فرقًا كبيرًا في العمر بينهما، وصحيح أنه فاحش الثراء، ولكن شخصيتها وشخصيته من المستبعد جدًّا أن تربطهما علاقة من هذا النوع. هي لا تحتاج إلى "دادي شوجر"، هي تحتاح إلى رجل يمنحها الأمان الذي قضت عمرها محرومة منه.

وزيارته لها اليوم تنفي أنه من أولئك المهووسين بأن يبرق اسمه في الوسط الفني. فهو ينتظر ردها، ولو أجابته بنعم فسيتم التحويل بضغطة زر من هاتفه الخلوي. أما لو قالت لا فلن تتم هذه الضغطة أبدًا. وفي الوقت نفسه، سوف يقوم بمساعدتها، وستضمن أن جميع هذه الدولارات ستدخل في تمويل بحثها هي فقط. ولكن اسمه وقتها لن يدرج ضمن هذه القائمة الشهيرة، ولن يحظى بمكانة في سوق الفن. وكما أخبرتها المديرة "ستكون من الأنانية أن نضع هذه الأموال في خدمة أبحاثك أنت فقط". إنما قمة الأنانية حقًّا أن تقول "لا" لتحظى بكل هذه الأموال لتمويل أبحاثها وتحرمه من وضع اسمه في قائمة الممولين.

قامت بالاتصال به، وأخبرته بموافقتها. لاحظ شيئًا ما في صوتها، لم يكن صوت شخص سوف يحقق حلمه في الكشف عن أبحاثه، بل كان صوتًا مترددًا حزينًا.

- هل هناك ما يضايقك؟

- أبدًا. ربما هو الشعور بأن ما فعلته كثير جدًّا. لم يسبق لأحد أن منحني أي أموال.

تركته يتحدث، وجالت بها الذاكرة في دهاليز ماضيها. لم يمنحها والداها أبدًا أي مصروف. لم يكن من فائض ليمنحاه لها. طوال سنواتها الدراسية لم تتجه وقت الفسحة لكشك بيع الحلوى وتشتري بسكوتًا أو شوكولا أو عصيرًا كباقي زملائها. لم تضم يدها على أوراق مالية وتذهب بها للأسواق لتشتري فستانًا أو حذاء جديدًا. هذا لم يحدث قطّ. والآن، يأتي هذا الرجل ويتبرع من أجلها بكل هذه الأموال وكأن الحياة حرمتها لتدخرها لها وتمنحها لها إياها دفعة واحدة. كم أنت طيبة وسخية أيتها الحياة!

- عليك أن تكوني سعيدة. فجهدك وشغفك وراء الكشف عن هذه المومياوات هما سبب حماستي. أنا لم أقدمها هبة أو عطية ولكن للكشف عن أسرار عظيمة

- وبهذه المناسبة، هل يمكن أن تقبل دعوتي على العشاء الليلة؟

لحظات من الصمت قطعها قائلًا:

- سأسافر باكرًا إلى باريس، ويوجد الكثير من الأشياء عليّ إنجازها قبل السفر. هل يمكن أن نؤجل الدعوة إلى حين عودتي؟

- ومتى ستعود؟

- لم أسافر يومًا وقد قررت سابقًا موعد عودتي. فأنا أدع كل شيء للظروف، ربما بعد ثلاثة أيام... ثلاثة أشهر.

صاحت:

- ثلاثة أشهر!

- ربّما. أخبرتك، لا أعلم.

- إذًا دعني أراك. يمكننا أن نكتفي بتناول القهوة.

بعد برهة من الصمت، تخيلت أنه يتطلع فيها إلى ساعة معصمه:

- في الثانية عشرة في المقهى ذاته.

أخبرها أن وقته ضيق، وعليه إنجاز الكثير من الأشياء، ورغم ذلك تصر على مقابلته. لم تتصور أنها ألحت عليه للقائها.

جلست في انتظاره قبل الموعد بقليل. اختارت طاولة في زاوية المكان يمكنها منها مراقبة بوابته الدوارة. وما بين الدقيقة والأخرى، كانت تتطلع عبرها. تنتابها مشاعر متضاربة، مزيج من القلق والتوتر والسعادة؛ عبرت عنها بنقر أظافرها على زجاج الكوب تارة وعلى الطاولة في أخرى، وضرب حذائها بالأرض مع شعورها بالحرارة والتعرق في باطن يدها. هذه عاداتها عندما تفقد السيطرة على نفسها. ولكن، لماذا كل هذا القلق والتوتر؟ لم يسبق لها أن انتابتها هذه المشاعر عند الجلوس في انتظاره! الأمر لا يحتاج إلى تفسير، مشاعرها تجاهه تتصاعد بشكل سريع وكبير.

رأته يدور مع الباب ويرفع يده يحييها، علق سترته على ظهر المقعد كعادته، وأشار للنادل بالمجيء.

- "ماكتو دوبل" من فضلك.

ودون أن يسألها:

- ولاتيه.

كان من الواضح أنه مشغول، ولا يملك الوقت لينظر إلى قائمة المشروبات.

- كيف حالك؟

- أشكرك لمجيئك بالرغم من مشاغلك الكثيرة.

- لا يمكنك أن تتخيلي ما فعلته لأحصل على وقت لهذا اللقاء.

- ولماذا؟

تجرّع رشفة من "الماكتو" الذي وضعه أمامه "الجرسون" للتو، ثم سألها باستنكار:

- لماذا!؟

- لماذا كلفت نفسك عناء ذلك؟

كانت تريد استدراجه للكشف عن حقيقية مشاعره تجاهها. ولكنه كان أذكى من ذلك.

- لأنه من الغباء إضاعة موعد مع امرأة جميلة مثلك.

كمن يريد أن يخبرها "أليس هذا ما تودين سماعه؟". ولكن، لا ليس هذا ما تود سماعه. حقًّا أي امرأة تحب أن تسمع كلمات الغزل من الرجل الذي تحبه، ولكنها مؤكد ستكون أسعد امرأة في الدنيا لو أخبرها أنه يحبها.

- لو توقف الأمر على تلبية دعوات النساء الجميلات لك فلن تجد ما يكفي من وقت.

ابتسم.

- حسنًا، دعينا نضيف عدم تفويت موعد مع امرأة جميلة وذكية وعزيزة مثلك.

رن هاتفه فاعتذر منها للإجابة عليه، ودخل في محادثة طويلة باللغة الفرنسية بينما كانت تفكر في الكلمتين اللتين أضافهما للعبارة لكي تكتمل. هل يعتقد أنها بمثل هذه السذاجة!؟ ليضيف كلمتين لا تعنيان أي شيء. فما أهمية أن تكون ذكية ليلبي طلبها للقائه.

و"عزيزة" هذه الكلمة التي من كثرة استعمالنا لها في أحاديثنا مع أشخاص لا يمتّون لنا بصلة فقدت مصداقيتها وأصبحت تعبيرًا مشاعًا ومتداولًا بكثرة وبلا معنى.

- ما سبب سفرك المفاجئ إلى باريس؟

- لم يكن مفاجئًا. هذا الموعد مرتب له منذ شهر على الأقل. هناك مزاد ستعرض فيه قطع فنية نادرة من أفريقيا، ويهمني جدًّا المشاركة فيه. فكما تعلمين، الفن الأفريقي زاد سوقه مؤخرًا، وأصبحت أعمال الفنانين الأفارقة تلاقي الكثير من الاهتمام وتباع بأسعار خيالية. أعتقد أن هذه السنوات هي سنوات الفن الأفريقي دون منافسة، وهذا شيء جيد؛ لأنه قد حان الوقت للالتفاف ورؤية فنون أخرى وثقافات أخرى. ألست معي في ذلك!؟

أبدًا. لم تكن معه. لم تسمع حتى ما الذي كان يقوله. كان تفكيرها منصبًا على "لم يكن مفاجئًا"، كان يرتب نفسه للسفر دون أن يخبرها. ولو لم تحدثه بالأمس وأجلت المكالمة لوقت متأخر من اليوم، فمن المؤكد كان سيجيبها "عذرًا، لن نستطيع تناول العشاء معًا لأنني أحدثك من باريس". شعور حانق مسها. هي بالنسبة له شخص غريب كأولئك الذين هم خارج خطط حياتنا.

- ولماذا عليك أن تبقى هناك شهرًا؟

- هناك مشاغل أخرى. ربما تنجز في وقت قصير أو تطول لا أعلم.

لمح تعبير البؤس عليها، فربت على يدها:

- مؤكد سنتواصل. وعليك مواصلة حياتك، والاستمتاع بها. فالحياة ليست عملًا فقط، بل هناك الكثير من الأشياء الجميلة يمكنك فعلها.

- مثل؟

- العلاقات. شابة في عمرك يجب أن يكون لها رفيق.

رددت خلفه:

- رفيق!؟ ما الذي تعنيه بكلمة "رفيق"؟ زميل؟ صديق؟ حبيب؟

- أحب هذه الكلمة لأنها مفتوحة على معانٍ كثيرة ولا تتسم بالخصوصية. ولكنها قائمة على ود ومحبة هما اللذان يقودان العلاقة ولا شيء آخر. لذلك أنت في هذه العلاقة حرة لأنك غير مرتبطة بشيء، غير مرتبطة بوعد أو بواجبات. أحيانًا مع صديقك أو حبيبك لا تسمح لك العلاقة بفعل ذلك. نقابل الأصدقاء، أحيانًا كثيرة بدافع واجب الصداقة. وتستمر علاقتنا مع حبيب لوعد أعطيناه إياه منذ زمن بأننا لن نتركه أبدًا، وتنفيذًا لهذا الوعد تستمر علاقتنا به بالرغم من موت الحب. وبذلك يكون علينا الاستمرار في علاقات فقدت مصداقيتها وقيمتها وفقدنا شغفنا بها.

لخّص بحديثه كل شيء عن إدراكه لمعنى العلاقات. هو يحب العلاقات المفتوحة التي ليس لها مسمى، والتي لا تقيدك بشيء، ولا تلزمك بشيء.

ما إن أنهى درسه عن العلاقات حتى نظر في ساعته:

- علي الذهاب الآن.

أضاف وهو يرتدي "الجاكت":

- سعدت بهذا الوقت القليل معك.

قامت لمصافحته، اقترب منها وطوّقها بذراع واحدة، وطبع قبلة خاطفة على وجنتها.

- اهتمي بنفسك.

وبطرف أصابعه لمس جانب وجنتها كما نداعب طفلًا صغيرًا.

20

في صباح اليوم التالي، تلقت مكالمة من مديرة المشروع أخبرتها فيها أن المبلغ الممول قد دخل في حساب المشروع. وأن اسمه أدرج ضمن هيئة الممولين.

- أشكرك عزيزتي لأنك أقنعت أحدًا بالتبرع والانضمام للمشروع.

لم ترد. مؤكد لم تشأ أن تخبرها أنها في حقيقة الأمر ما أقنعته به هو العدول عن فكرة تمويل المشروع ودعمه.

فور وصولها للمتحف، تلقت "إيميلًا" من اللجنة الطبية تخبرها فيه بالموافقة على البدء في وضع المومياوات تحت الفحص الطبي، وذلك بعد أن درست اللجنة الأفكار المطروحة، ووجدت أن ما جاء فيها في غاية الأهمية، ويمكن أن يؤدي لاكتشافات مهمة.

بعد قراءة الإيميل، ضحكت بسخرية. كانت تريد أن تتصل برئيس اللجنة الطبية؛ ذاك الشخص الصفيق ذي الصلعة الدائرية كمركب فضائي لتقول له: "تبًّا لك"، ولكنها عوضًا عن ذلك نقرت على مجموعة من الحروف تفضي في النهاية بكلمات من الشكر والمودة "شكرًا لكم، أنا في غاية الامتنان لقبولكم طلبي".

هكذا هي الحياة، يجب أن تتقن فن الرياء لتستطيع أن تستمر في العيش وسط مجموعة من الأفاقين... أن تبتسم في الوقت الذي عليك فيه أن تبصق... أن تشكر في الوقت الذي عليك فيه أن تشتم.

بعد عدة أيام من مواصلة فحص المومياوات بخضوعها لأهم وأحدث أنواع الأشعة، كان منها جهاز مهم يستخدم في وحدات الكشف في الطب الشرعي (SPEX CrimeScope vivl)

ويتم فيه التحكم في الطول الموجي للضوء المنبعث بواسطة عجلات ترشيح تمكن من فحص الأشياء في ظل ظروف إضاءة تتروح ما بين الأشعة فوق البنفسجية أي آر إلى الأشعة تحت الحمراء يو في.

عمل جميع أفراد اللجنة بمنتهى الجد، وكثفت جميع جهودها للكشف عن هذه المومياوات، فكانت جميع الاحتمالات تؤخذ بعين الاعتبار؛ لذلك كل نتيجة حتى لو باحتمال ضئيل ربما تقود لنتيجة أخرى كان يؤخذ بها بعناية.

وبذلك يكون التقرير الذي أسفرت عنه النتائج ليس هناك أي شك بصحته؛ بالرغم من غرابة الأمر وريبته.

ختم رئيس اللجنة الطبية كلمته في الاجتماع الذي عقد مباشرة بعد الانتهاء من الفحص قائلًا:

"وبناء عليه، فإن هذه المومياوات التي خضعت للكشف عليها، تم التأكد من إصابتها بمرض عصبي يصيب مركز الإدراك في المخ، وينتج عن تعاطي نوع معين من الأعشاب النباتية بشكل يومي، ولفترة طويلة. وهذه الأعشاب تحتوي على مواد سامة لها تأثير فتاك".

كانت تجلس وسطهم وتشعر بالزهو بنفسها، فها هي شكوكها التي سخروا منها سابقًا في محلها.

حقًّا، إنه اكتشاف مذهل. ولكن، ماذا عساها تفعل به!؟ هذه النتيجة لم تكن هي النهاية كما يظن البعض، بل كانت البداية.

"من فعل ذلك؟ ولماذا؟..." هذه التساؤلات التي شغلتها طويلًا ألقتها عليه لدى اتصاله بها.

- الكشف عن ذلك أمر في غاية الصعوبة. تفصلك عنهم آلاف السنين. ما توصلت إليه اكتشاف مذهل يحسب لك. لا تتعبي نفسك من شيء لا جدوى منه.

- ولكن، ألا تجد أن الأمر يستحق!؟

صمت ولم يجبها.

- هذا هو الفرق بين الباحث والتاجر. فما يهم الباحث هو الإصرار على كشف ما توصل إليه وتسليط الضوء على أهميته. في حين أن ما يهم التاجر هو التربح من هذه الاكتشافات. وكلما زادت أهمية القطعة الفنية زاد الربح، وبذلك يفني الباحث عمره في سبيل كسب التاجر. إنها معادلة ظالمة.

- مبدئيًا، اسمه جامع لوحات فنية وليس تاجرًا.

- "جامع لوحات" لقب مهذب وأنيق يليق بنوع العمل. ولكن في النهاية هو تاجر.

مرت فترة صمت قطعها بأن اعتذر قائلًا إن عليه إنهاء المكالمة لأمر هام وضروري.

كانت تريد أن تخبره بأنها اشتاقت إليه، ولكن شيئًا ما عقد لسانها.

شعرت باللوم لأنها حدثته بهذا الشكل غير اللائق؛ بالرغم من أن ما تحدثت به هو الحقيقة. ربما كان عليها أن تجملها قليلًا.

21

استيقظت صباح ذلك اليوم وفكرة واحدة تدور في رأسها؛ السفر إلى حيث كان أولئك الأشخاص يعيشون. لقد قرأت كل ما يتعلق بخصوص اكتشاف هذه المجموعة من المومياوات، وتأكدت أنه عثر عليها في مقبرة جماعية في قرية فيلادلفيا؛ وهي إحدى المدن الحديثة في ذلك الوقت التي بنيت في مدينة الفيوم في العهد الروماني.

حاولت أن تستعيد ما درسته عن الحضارة الرومانية القديمة، ولكن ذاكرتها لم تسعفها بشكل جيد. عدد من المعلومات المتفرقة. كان أهمها "رسالة كلاوديوس إلى الإسكندرية"، وهي بردية تم العثورعليها عام 1921 وتضمن الرد الكامل للإمبراطور كلاوديوس (41 - 54م) على مطالب الإسكندريين واليهود الذين سارعوا بعد توليه عرش روما بإرسال الوفود الرسمية إليه لتهنئته وعرض مطالبهم عليه.

لم يكن عليها أن تحاول تذكر ما درسته عن هذه الحقبة التاريخية، إذ يكفي أن تذهب للمكتبة الوطنية، وهناك في قسم الفنون والعمارة المصرية والرومانية القديمة ستجد كل شيء.

"الفيوم كانت تسمى قصر الطفل الملكي في عهد الفراعنة، ورمز معبودها هو الكبش، ثم انفصلت في العصر الروماني اليوناني لتصبح المقاطعة الحادية والعشرين، وسميت ارسينوي الثانية؛ نسبة لاسم زوجة بطليموس السادس. عندما تولي حكمها لملك فيلادلفوس منح الأراضي لأقاربه الإغريقيين والمقدونيين فأصبحت مدينة كوزمبولتاية هيلانسيتية الثقافة مختلفة عن سائر المدن المصرية. يعيش فيها يهود وإغريق وأرمن وروم. كانت جميع هذه الأجناس المختلطة تسكن أحياء المدينة لذلك أصبحت اهم المراكز السياحية. كتب عنها جميس بيكي في كتابه عن الرحلات الأوروبية إلى إقليم الفيوم في ذلك الوقت، مستشهدا برسالة هيرماس، وهو واحد من أكبر موظفي

الدولة بالإسكندرية في العصر الروماني، بعثها إلى اسكلبيادوس حاكم الفيوم، وحثه فيها على الاهتمام بالزائر الروماني والحرص على راحته خلال فترة زيارته.

لم يكتفِ بطلميوس الثاني بوضع اسم زوجته على إقليم الفيوم تأكيدًا على حبه واعتزازه بأخته وزوجته في الوقت نفسه، وهي الملكة "أرسينوى الثانية"، بل أنشأ داخل الإقليم الذي يحمل اسمها مدنًا لتكريمها ورفعها وتقديسها. ومن أشهر هذه المدن "ثياديلفيا"، وتعني "الإلهين المتحابين"، ويحمل التأليه لكل من بطلميوس الثاني وزوجته أرسينوى، واسمها حاليًا "بطن اهريت"، وتقع في الجنوب الشرقي من قصر قارون. أما المكان الثاني الذي قدست فيه الملكة "أرسينوى" فهو قرية "فيلادلفيا" التي أنشئت عام 270 ق.م خصيصًا لتكريم وتقديس الملكة "أرسينوى" ورفعها لمصاف الآلهة. وترجع أيضًا أهميتها لوجود القصر الملكي بها، وكان الملك يستمتع بإقامته في هذه المدينة ويمارس رياضة الصيد المحببة له. وكان يتم في هذه القرية احتفال مقدس للملكة "أرسينوى الثانية" في شهر مسرى (أغسطس) من كل عام. كل ذلك منح "فيلادلفيا" قدر كبير من الأهمية التاريخية، بالإضافة كان لها تخطيط نموذجي حديث ومنظم، ثلاثة شوارع رئيسية تجري من الشرق إلى الغرب، يحد تخومها على الأقل 27 مسكنًا مبنيًا بكتل الطوب اللبن. وتعرف المنطقة اليوم باسم "كوم الخرابة الكبير" شرق بحر وهبي شمال شرق الفيوم. وظلت المدينة الأولى والكبرى في منطقة الفيوم، حتى هجرت حوالى القرن الخامس الميلادي، الحفائر النموذجية الوحيدة التي أجريت في الموقع كانت في 1908-1909 بواسطة F.Zucker & P.Viector وقام بها متحف برلين، وكشفت عن الكثير من الحقائق المدهشة وبرديات ونصوص من أهمها "أرشيف زينون"؛ وهي مراسلات بين أبوللونيوس ووكيله زينون، تعدت هذه الخطابات الخمسين خطاب، وقد عاش أبوللونيوس في عهد حكم بطلميوس الثاني، يعد واحدًا من أكبر ملاك الأراضي؛ حيث كان يمتلك أراضيَ في فيلادلفيا بالفيوم، وكذلك في إقليم منف، وكانت تزرع قمحًا وشعيرًا وذرة وسمسمًا وكتانًا، وأشجار الكروم والفاكهة. ولقد كانت هذه المزرعة عزيزة عليه لذا نرى من الوثائق كيف أنه كان يوجّه ويراقب بحرص كل ما يجري فيها، وكان يرسل من الإسكندرية كميات كبيرة من شتائل الأشجار لغرسها هناك.

بعد أن انتهت دونت هذا العنوان في مفكرتها "كوم الخرابة الكبير" شرق بحر وهبي شمال شرق الفيوم.

هل كان قرار سفرها نابعًا من وراء بحثها خلف هذه المومياوات؟ أم أنه كان نتيجة رغبة ملحة تدفعها لزيارة وطنها ورؤيته، هذه الرغبة التي ظلت تكبتها لسنوات طويلة؟ كانت تشعر تجاهه بحنين خفيّ وتتملكها القشعريرة كلما سمعت اسمه. كان بالنسبة لها كشخص أحببناه كثيرًا دون أن نراه، ولكن في الوقت نفسه هناك علاقة ملتبسة تربطنا به. وكانت أحيانًا تلقي بذنب ما حدث لها ولعائلتها على شعبه وناسه، وعلى حكامه ومسؤوليه.

عندما كانت تسمع أباها يحكي عن ذكرياته وعن حنينه وأشواقه، ينتابها احساس من يسمع لحنًا جميلًا تنساب موسيقاه في روحه. وعندما يبدأ في الشكوى ويلقي باللوم على من تسببوا في أذاه، ينقلب اللحن الجميل إلى نشاز. هذه العقدة أصبحت ملازمة لها، وكان عليها أن تتخلص منها. وكما ينصح الطب النفسي، العلاج من العقدة في أغلب الحالات يكون بمواجهتها.

قدمت تقريرًا لإدارة المشروع بأن ما أسفرت عنه نتائج الفحص الطبي أمر في غاية الأهمية، ويجب مواصلة البحث وراءه بشكل موسع ومفصل. وبناء عليه، قررت السفر إلى مكان العثور على تلك المومياوات ليتسنى لها البحث بشكل أفضل.

فور إرسال الإيميل، تلقت مكالمة من مارغريت مديرة المشروع. وكانت نبرتها ساخرة وهي تسألها:

- عن أي شيء ستبحثين هناك؟ هذه الشخوص عزيزتي لاقت حتفها منذ أمد بعيد. على أي أدلة أو معطيات تعتقدين أنك ستعثرين؟

- أليس غريبًا أنك من تقولين ذلك؟ منذ متى توقفت الاكتشافات عن مومياوات قدماء المصريين!؟ كل يوم يسفر عن اكتشاف جديد. كل يوم هناك كشف لسر جديد!

- تأكدنا أن أولئك الشخوص تعرضوا لأمر ما؛ ربما جريمة. ولكن هل تعتقدين أنك سوف تعثرين على القاتل بعد كل هذه القرون!؟

- ألم تسمعي مقولة أن الجاني دائمًا يترك أثرًا وراءه. سأبحث عما تركه الجاني وراءه. وأعتقد أن الوقت وقتي، والجهد جهدي. والمال موجود، فما المانع إذًا؟

- يا لك من عنيدة...!

- سوف أقوم بإرسال "إيميل" وافٍ أدرج فيه النقاط التي سوف أعمل عليها، والوقت الذي سوف أحتاج إليه، والتكلفة المالية.

- إلى اللقاء رنيم.

أغلقت الخط وهي تدرك تمامًا أنها تسبها في سرها.

22

حضر الصيف مبكرًا هذا العام. كانت السابعة، والشمس ساخنة تتوهج من خلف زجاج الشقة الذي لو لم يكن من النوع الذي يمتص الحرارة لكانت قطعة من جهنم.

بينها وبين الصيف كراهية شديدة. فبالنسبة للناس، الصيف يعني الشاطئ والبحر والأمسيات الصاخبة، وهذا الصيف لم تعرفه. كان ترطيب الجو خلال هذا الصيف في شقتهم الصغيرة عديمة التهوئة يقع على عاتق مروحة قديمة صدئة الأجنحة تحدث صريرًا رتيبًا وهي تدور ببطء شديد. وبدلًا من تلطيف الجو، كان الأمر يزداد سوءًا.

في اليوم الدراسي الأول بعد إجازة الصيف الطويلة، الذي يخصص كالعادة لحكايات زملائها عن إجازاتهم. تسمعهم يثرثرون عن البحر وأمواجه، وعن الرمل والقواقع والمحار و"الآيس كريم"، عن البكيني وزيوت الشمس والاستلقاء على الرمال. تنصت لحكاياتهم عن بيوت من الرمل وأشعة شمس المغيب وحفلات الشاطئ. تنصت وتتخيل ما يقولونه، وتحلم به، فتجد نفسها تركض على الشاطئ وشعرها يتطاير خلفها، بينما تداعب أشعة الشمس وجهها. تركض على شاطئ لا نهاية له. تركض مسرعة لتلحق بشيء ما. لكن، ما هو هذا الشيء!؟ لا تدري.

وعندما يسألونها عن إجازتها، عن عطلتها وصيفها وكيف قضتهما- هل سبحت في البحر؟ هل تذوقت "الآيس كريم" المثلج بطعم فاكهة المشمش والبطيخ؟ هل تعرفت على حبيب؟ وينهون أسئلتهم دائمًا بسؤال واحد بنبرة الشك: لماذا لم تكتسبي لونًا؟- تبقى صامتة. وعندما يلحّون، تقول لهم "في وقت آخر". وكان هذا الوقت لا يأتي أبدًا؛ إذ تتهرب منهم يومًا بعد يوم، حتى تغيب عن عقولهم ذكريات الشاطئ. وفي صيف السنوات التالية، اعتادت أن تسير لمسافات طويلة تحت لهيب الشمس، وحرارة الأسفلت تلسع باطن قدميها بسبب حذائها المهترئ. تسير وتسير في قيظ أغسطس، حتى أغشي عليها يومًا. وفي المشفى، شخّص الطبيب حالتها بضربة شمس قوية. لم تفهم أمها سبب

سيرها تحت قيظ الشمس بالساعات، ولم يفهم أبوها، ولم يفهم الطبيب، ولم تفهم صديقاتها، وحدها كانت تعرف.

مع قدوم كل صيف، تحوم هذه الذكريات داخل رأسها كذبابة لزجة، وللهرب منها تذهب إلى الشاطئ القريب من بيتها؛ وهو واحد من أجمل شواطئ العالم. قبلها تستعد لهذا الموسم الذي تكرهه، وبالرغم من ذلك، عليها استقباله بكامل أناقتها؛ كما لو أنها تخرج له لسانها: "ها أنا جميلة وأنيقة رغمًا عنك". من متجر "براه" المتخصص في ملابس البحر تحصل على مجموعة من أحدث موديلات المايوهات بألوان صاخبة. تشتري فساتين الشاطئ الخفيفة. وحقائب البحر المصنوعة من القش. وتشتري صنادل الرمل، وتولي عناية خاصة لاختيار أجود كريمات حماية البشرة والزيوت التي تمنح درجات عالية من اللون البرونزي؛ حتّى إن من يراها يعتقد أنها لا تفعل شيئًا في حياتها سوى الاستلقاء على الرمال. وعندما تنظر في المرآة كانت تبتسم. فالآن فقط بإمكانها الرد على زميلتها التي داومت كل عام أن تسألها السؤال نفسه بنبرة الصوت نفسها وبدهشة النظرة نفسها: "ولكن، لماذا لم تكتسبي لونًا؟"

في ظهيرة ذلك اليوم، كانت قد حضرت حقيبة البحر وضعت فيها الزيوت والملابس والمنشفة وارتدت فستانًا للبحر قصيرًا وقبعة من "الخوص"، وتوجهت إلى "فلورنسا بيتش"؛ هناك حيث يمكنك أن ترى أثرى أثرياء العالم في عريهم وبللهم وهم يتمايلون على أنغام الموسيقى التي يلعبها أشهر الدي جي في العالم، وبأيديهم زجاجات البيرة وأكواب الويسكي.

ابتعدت عن مكان الحفل، وذهبت لأبعد مكان في الشاطئ. دهنت جسدها بزيت الشمس واستلقت على "شيزلونج"، ووضعت سماعتي الأذنين، وبدأت في قراءة رواية.

ولكنها ظهرت لها من جديد كعادتها دائمًا، إذ كانت تلاحقها في الأوقات التي تقرر فيها أن تنتقم من ماضيها. عندما ترتدي أغلى الملابس انتقامًا من مظهر رث، وعندما تتزيّن بأغلى المجوهرات انتقامًا من فقر مدقع، وعندما تذهب لأفخر المطاعم انتقامًا من الجوع، أو ترتاد أشهر الشواطئ انتقامًا من أوقات قضتها في لهيب الصيف.

فتاة في عمر الرابعة عشرة، ترتدي ثيابًا بالية، وتربط شعرها في جديلتين، تلصق رأسها بلوح زجاجي وتتطلع إليها عبره، فيتفلطح أنفها، وتتشوه ملامحها، وتبدو كمسخ قبيح. ترمقها بنظرة

متوعدة، فتظهر كما لو أنها تقول شيئًا. ولكن الزجاج الذي يفصل بينهما عازلًا للصوت، ولكن ما تقول يبدو سباب... شتائم قذرة... تهديد... وعيد. تحاول أن تزيل هذه الصورة من عقلها، صورة هذه الفتاة المريعة التي تنظر إليها بكراهية شديدة. تغلق عينيها علها تمنع نفسها من رؤيتها. ألقت بالرواية جانبًا، وخلعت السماعتين، وركضت تلقي نفسها في البحر. سبحت بعيدًا... بعيدًا. ولكن، كلما كانت تبتعد كانت الذكرى تقترب.

وفيما هي وسط الأمواج، قررت الذهاب لطبيب نفسي. كان الأمر في السابق يحدث على فترات متباعدة، ولكنها الآن تلاحقها دون هوادة. بشكل لا يطاق. إنها تأتي دائمًا لتفسد عليها أجمل أوقاتها. الذهاب لطبيب نفسي لم يكن يشكل عندها أي مشكلة على الإطلاق، ظلت دائمًا تؤجل زيارته لاعتقادها أن كل شخص طبيب نفسه. فبدلًا من الذهاب للفضفضة مع الطبيب عن عقدها النفسية، يمكنها أن تتحدث بها لنفسها، وتتأمل فيها، وتبحث وراء حدوثها، محاولة اجتزاز جذورها. فعلت ذلك في كثير من الأوقات، ولطالما تساءلت: لماذا تظهر لها هذه الفتاة وتنهال عليها بالسباب؟ ولماذا تشعر أنها تخشاها إلى هذا الحد؟ ولكنها لم تصل أبدًا إلى إجابة.

في موعدها الأول مع الطبيبة، سألتها: "هل هذه الفتاة تشبه أي شخص تعرفينه؟"

هزت رأسها بقوة "لا"، ولكنها. كانت تعلم من تشبه.

من سؤال لآخر، تنتقل بها من مرحلة لأخرى، ومن ذكرى لأخرى، ومن زمن لآخر. حتّى إنها بعد الجلسة استغربت كيف تجولت بها هذه المرأة بكل هذا الذكاء في دهاليز ذاكرتها، وجعلتها تحكي لها على الكثير من الأشياء التي كانت قد اعتقدت أنه النسيان طواها؛ سألتها قبل خروجها من الغرفة التي تختلف كثيرًا عن غرف الأطباء النفسيين. الإضاءة لم تكن منخفضة، فأشعة شمس النهار تتسلل إليهما من خلف ستار النافذة، والأثاث "مودرن"، والطبيبة نفسها كانت تبدو أكثر شبابًا وعصرية. ولكنها كانت واحدة من أفضل المعالجين النفسيين في فلورنسا، والجلسة معها تساوي عددًا كبيرًا من اليوروهات.

- هل ستصفين لي أدوية أو ما شابه؟

- دواء لأي شيء؟

- لعلاج حالة الذعر التي تعاودني كلما زارتني هذه الفتاة.

- ليس هناك داعٍ لذلك. حالتك لا تحتاج إلى دواء.

قامت لوداعها.

- مع معاودة الجلسات سوف تصبحين أفضل بكثير.

لم تفهم كيف أنها ليست في حاجة لدواء. حتى إنها عندما سألتها عن المهدّئ الذي اشترته من الصيدلية دون وصفة طبية لأن الصيدلي جارها منحها علبة عندما أخبرته أنها تعاني من نوبات ذعر قالت لها:

- لا أنصح به. ولكن، إذا كان يفيدك فيمكنك أخذ كبسولة
عندما تعاودك الحالة. ولكن، من الأفضل أن تتجاوزيها
بدونه.

خمنت أن الطبيبة لا ترى حالتها بمثل هذا السوء الذي تتصوره وتشعر به.

قبل رحلتها، كان عليها القيام بتأدية مشوار هام؛ زيارة مدينتها لرؤية أمها. لم تكن تحب القيام بهذا المشوار الذي يفصلها عن واقعها ويضعها وجهًا لوجه أمام الحقيقة التي تحاول أن تهرب منها.

منذ وصولها أصوات صرير بوابة الحديقة عند دفعها، ووقع خطواتها على حصى الأرضية، ثم على الدرجات الخشبية الثلاث، وصدى رنات الجرس البلوري... تدوّي في جسدها وترعشه.

لم يتغير شيء؛ طلاء الحائط المتقشر، وألواح الباركيه المتشققة، ولمبة السقف التي تخفت فجأة ثم تضيء، وصنوبر المطبخ الذي ينقط بوتيرة اعتيادية.

مكتب والدها موضوع في إحدى الزوايا؛ طاولة اقتطع أشجارها بنفسه لينكب بالساعات مدونًا ألمه. مسكين، لم يعرف أن ألمه لن يعني أحدًا غيره، ولا فائدة ترجى من تدوينه. من عساه

يهتم بما دوّنه عن ألمه... عن معاناته... عن مأساته؟! من عساه يهتم بكيف أُهين، وكيف خذل، وكيف رمي بعيدًا!؟

لم تكن الأشياء فقط هي التي لم تتغير في هذا المنزل؛ كما لو أن طاقة هذه البقعة الصغيرة جدًّا من العالم حريصة أن تُبقي كل شيء كما هو. ليس الأشياء وحدها، ولكن البشر أيضًا.

ها هي أمها لم تتبدل. ظلت دائمًا وفية للماضي، لحقبة العوز والفقر. كانت كل منهما تجلس قبالة الأخرى على مائدة مستديرة. وضعت أمها دورقًا به ليمون مثلج، وكوبين، وقطعًا من البسكويت. بدت لها كشخص قصي.. بعيد، كمن ترك شخصًا على سطح جزيرة نائية، وأبحر بدونه.

أمها بصوتها الخفيض الذي بالكاد يسمع وهذه المرة- أصبح أكثر خفوتا بعدما أنهكه التعب- كانت تسعل بين الكلمة والأخرى. نظرت للأكياس الكثيرة التي جلبتها معها.

- لم يكن عليك أن تجهدي نفسك بشراء كل هذه الأشياء، فأنا لا أحتاج إليها.

- إنه غذاء يا أمي: لحوم، دجاج، خبز، حلوى... ألا تحتاجين إلى الغذاء!؟

- حساء دافئ بالنسبة لي كافٍ، أو قطعة من الخبز ومن الجبن.

- هذا لأنك اعتدت على ذلك، لأنه كان وحده المتاح. ولكن الآن لماذا تصرين على العيش في هذا الفقر والتقشف؟! انظري إلى مظهرك، تبدين أكبر من عمرك بعشرات الأعوام. انظري حولك إلى النساء في مثل عمرك، يذهبن لأطباء التجميل ليظهرن أصغر وأجمل، ويذهبن للنوادي الرياضية ليكتسبن لياقة ورشاقة، ويأكلن أكلًا صحيًا للمحافظة على صحتهن. وأنت أخبريني، لماذا تفعلين ذلك بنفسك؟ لماذا تتشبّثين بالماضي بمثل هذا الشكل؟ في زمن سابق، الحياة أجبرتنا على العيش كذلك. ولكن أخيرًا وقد أنعمت علينا وتلطفت وأصبحت أملك الكثير من المال نستطيع به أن نعوّض أيام الحرمان، لكنك ترفضين وتتمسكين بها.

لماذا تصرين على العيش في هذا المكان وترفضين أن تأتي لتقيمي معي في أجمل مدن العالم وتودعي مدينة الأموات هذه؟!

أعرف وأنت تعرفين أن هذه الحياة فرضت علينا ولم تكن اختيارنا. وكنت نفسك تحمّلين أبي مسؤولية ما كنا فيه. صحيح، أنك لم تتفوهي يومًا بكلمة، ولكنك كنت تعبّرين عن ذلك بطرق أخرى: صمتك، حزنك، جفاؤك معه، وازدراؤك له. كان ذلك واضحًا... واضحًا جدًّا.

انتظرت حتّى انتهت من كلامها، وبالنبرة الخفيضة الهادئة ذاتها سألتها:

- ماذا تحبين أن أعدّ للغذاء؟

- أنا لن أبقى للغذاء. سوف أسافر إلى مصر، وأردت أن أسألك: هل تودين القدوم معي؟

هزت رأسها بما يفيد "لا" دون إجابة... دون أي انفعال واضح... وكأن هذا الاسم لا يعني لها شيئًا. ثم همست

- لقد انقطعت روابطي بها منذ أمد. المكالمات والرسائل كل شيء انقطع، ولم يعد لي أحد هناك بعد رحيل أمي وأبي وسفر أخي للعمل بدولة خليجية. أعتقد أن صديقاتي بالكاد يتذكرنني؛ هذا إن كنّ على قيد الحياة. زيارتي لها ستفتح أبواب ذكريات أغلقتها منذ زمن.

- وأسرة أبي؟

- أسرة أبيك انقطعت علاقتنا بهم قبل مجيئنا إلى هنا. فقد تعرضوا لتفتيشات ومضايقات واستدعاءات متتالية من الشرطة، فخافوا على أنفسهم. ولكن، ما الذي ألهب عاطفتك فجأة وجعلك تقررين السفر للبحث عن أهلك؟

- أنا مسافرة للعمل وللبحث عن أجدادي... أجدادي قدماء المصريين. ولكنني فكرت قبل البحث عن البعيدين جدًّا بالبحث عن الموجودين.

- لا أنصحك. نحن بالنسبة لهم أصبحنا عدمًا؛ لا وجود لنا. البحث عنهم مثل "لمام" خرق ينبش بخطافه أكوامًا من الفضلات.

وفي طرقات هذه المدينة البائسة كانت تعاودها أجواء صباها. في طريق عودتها، مرت بسيارتها على مصنع النبيذ الذي كان والدها يعمل فيه. تذكرت عندما كان ضغط العمل يدعوه للمبيت هناك، فتكلفها أمها بالذهاب إليه بصحن به طعام. كان الليل حالكًا، والظلام دامسًا، تسير بحرص وبيدها

صحن، وبالأخرى مصباح. المكان يعبق برائحة النبيذ والفحم. لا شيء يقطع السكون سوى حفيف أشجار الدلب. تنظر إلى المرآة الأمامية، فيظهر خلفها رجل خمسيني يرتدي "افريول" العمل وفوقه معطف أسود حائل ذو كمين مفرطي الطول، وينتعل جزمتي ثلج. شعره داكن مصفف إلى الخلف، وخداه غير حليقين. يسير متوجسًا مع كل خطوة يخطوها؛ وكأنه يخشى أن تنزلق قدمه. طيف متعثر الخطوات توارى خلف السنين. ثمة برميل يتدحرج، تسمع صدى صوته جيدًا في دهاليز الذاكرة. وكلما ابتعدت بسيارتها كان ضجيجه الحزين ينأى شيئًا... فشيئًا.

عندما تخرج إلى الطريق السريع تشعر أنها خرجت إلى الحياة، إلى النور. كل شيء يعود مجددًا، حتّى هاتفها يعاوده الرنين الذي كان قد انقطع بسبب سوء التغطية.

ظهر اسمه على الشاشة ولكنها لم تجب. لم تكن في حالة تسمح لها بالحديث مع أحد، إذ كانت لا تزال عالقة هناك.

تذكرت عندما قصّ عليها حكاياته، وأخبرها أنه في عام كذا سافر إلى كذا وأقام في فندق كذا لإنجاز مشروع أو إتمام صفقة، وفي تلك السنوات كان في أوج رجولته وقوته وعنفوانه. كان رجل ناجحًا وطموحًا، يجوب بلدان العالم شرقًا وغربًا، بينما هي وقتها طفلة بجديلتين تلقب باللاجئة، تبيت دون عشاء، وترتدي ملابس بالية. ربما لو قابلها مصادفة في طريقه كان سيضع يده في جيبه ويمنحها صدقة وهو ينظر إليها متحسرًا، ثم سرعان ما ينسى أمرها ويذهب ليحتفل رافعًا كأسه بمناسبة عقده صفقته الجديدة التي ستدر عليه الملايين.

لماذا على أحد أن يغتنم لنفسه كل هذه النعم بينما يعيش غيره ذليلًا!؟ فجأة، شعرت تجاهه بشعور غريب؛ وكأنها تحمّله ذنب ما كانت فيه. على غير عادته، عاود الاتصال مرة أخرى ولم ترد. لو أجابته كانت ستصيح به قائلة: "عندما كنت تأكل عشاءك في مطاعم وفنادق خمس نجوم، كنت أنا أحلم برغيف من الخبز".

رفعت مسجل السيارة، هل كانت مصادفة أن يبث الراديو أغنية "DARK PLACES"؟ تعلم تمامًا أنه ليس هناك شيء يأتي عن طريق الصدفة، كل شيء مرتب ومحكم

23

كانت على وشك أن تغلق باب شقتها وراءها وتذهب عندما رن هاتف المنزل. استغربت، من الذي يطلبها في هذا التوقيت المبكر؟

على الشاشة ظهر رقم منزلهم في تلك القرية البعيدة. بصوت ناعس أخبرتها أمها:

- هناك شخص يمكنه أن يفيدك في رحلتك لمصر؛ هذا إذا كان ما زال على قيد الحياة.

- ولكن، من هو هذا الشخص؟

- معرفة قديمة.

دونت رقم هاتف الشخص واسمه وسألتها

- هل تحتاجين إلى شيء من هناك؟

بعد برهة من الصمت تنهدت قائلة:

- لا. لا شيء. فقط انتبهي لنفسك.

في الطائرة، فكرت في هذه العلاقة الغريبة التي تربط أمها بوطنها. استغربت كيف لا يمسها الحنين تجاه أي شيء هناك! كيف بإمكان الوطن والأهل والأصدقاء أن يصبحوا غرباء عنا بمثل هذا الشكل!؟ وبشتى الطرق نهرب من ذكرياتنا فيه ومعهم لأنها تستدرجنا لأحداث مؤلمة.

لا تعلم لماذا تذكرت أغنية سيلين ديون الفرنسية (أريد أن أتكلم مع أبي) وأخذت تردد كلماتها

(أرغب أن أنسي الوقت.. كي أتنهد للحظة واحدة.. أن أغلق القوس بعد الرحلة.. وأذهب حيث يدفعني قلبي.. أرغب أن أرجع على آثارى.. حيث هي حياتي.. حيث هي مكاني.. وأن أحرس الماضي.. في دفء حديقتي السرية.. أريد أن أعبر المحيط.. وأن التقى بطيور النورس المحلقة.. أن أفكر بكل الذي رأيته يومًا.. أريد أن احلق نحو القمر.. أريد حتى أن احمي الأرض.. ولكن قبل كل شيء.. أريد أن أتكلم مع أبي)... وجدت نفسها تبكي نعم كانت تريد أن تتكلم معه، كانت تريد أن يكون معها، أن يذهب ويأتي بها في وطنها ويعرفها عليه.

مشاعر غريبة انتابتها عندما أوشكت الطائرة على الهبوط: قلق، توتر، توجس، و شغف.

بعد أن أنهت إجراءات الوصول وخرجت من البوابة، وقفت تنظر حولها وعلى وجهها تعبير غريب؛ كمن التقى أخيرًا شخصًا تعرّف عليه منذ فترة عن طريق المراسلة وحدثت بينهما علاقة قوية ومتينة، وبعد مرور الكثير من السنوات التقيا.

وجوه أليفة، ومبتسمة، وحميمة تحيط بها في كل مكان: سائقو التاكسي والليموزين الذين هرعوا إليها يعرضون عليها توصيلها لوجهتها، وبائع الفل الذي أقبل عليها مانحًا إيّاها طوقًا منه، وأهل وأصدقاء ينتظرون وصول ذويهم، ويوزعون الابتسامات المرحبة على جميع الواصلين، وكأنهم يرون في كل واصل مَن ينتظرونه.

فتحت نافذة السيارة، وأخرجت رأسها من الزجاج، وأخذت تنظر لكل شيء حولها بدهشة طفل يتطلع إلى دمية معروضة في واجهة محل للعب الأطفال.

سألها سائق التاكسي بالإنجليزية التي يعرف منها بضع كلمات يستعملها في الترحيب بزبائنه من السياح، ولسؤالهم عن وجهتهم:

- مرحبًا بك في مصر سيدتي، من أي بلد أنت؟

فأجابته بفخر:

- أنا من هنا.

لم يفهم الرجل ماذا تعني بأنها من هنا؛ فمظهرها لا يشير إلى ذلك أبدًا! ولم يحاول أن يستفسر، بل أقنع نفسه بأنه لا داعي للتورط في محادثة لن يفهم منها شئيًا. فهو غير ضليع في الإنجليزية.

أقامت في فندق مينا هاوس. اختارته لإطلالته المميزة على الأهرامات. أخيرًا هي وجهًا لوجه مع هذا البناء العبقري، هذا البناء الذي حيّر البشر على مر الزمن، والذي لا أحد يعرف سره وخباياه؛ حتّى أقدر وأذكى خبراء الآثار في العالم.

موظفو صالة الاستقبال في الفندق، وعامل "الأسانسير"، وحامل الحقائب يتطلعون إليها مبتسمين ومرحبين، كما لو أنهم يقولون: "أهلًا وسهلًا بك في وطنك".

لم تفعل شيئًا غير أنها غسلت وجهها من عناء السفر، وبدلت ثيابها بملابس أكثر حرية: قميص من القطن، وبنطلون من الجينز، وحذاء رياضي. ثم نزلت تزور الأهرامات.

وقفت أمام البناء الضخم، فشعرت كم هي ضئيلة؛ كحال كل من يقف أمامه. وكأن قدماء المصريين قصدوا ذلك، قصدوا أن يُشعروا من يقف أمام أثرهم الذي يدل عليهم، يدل على وجودهم هنا ذات يوم، بمدى ضآلتهم أمامه.

كان كل شيء في المكان مختلفًا: الطقس، رائحة الهواء، اللون الذهبي للصحراء. كل شيء كان يعيدك 7 آلاف عام للخلف.

وهي التي تتقن أن تذهب في رحلات خاطفة عبر الزمن. أغمضت عينيها، وتخيلت أنها وسط الآلاف من عمال البناء أقوياء البنية الذين يبدون كعمالقة. يذهبون ويجيئون، يصعدون ويهبطون، تسمع صخب أحاديثهم ودندناتهم بالأغاني والترانيم للتغلب على مشقة العمل وتعبه.

إنهم هنا، تتعاقب عليهم الأيام والشهور والفصول، يعملون ويعملون ويبنون.

عندما عادت للواقع مجددًا، التقطت عددًا كبيرًا من الصور بكاميرا عالية التقنية التي تحملها معها. بعدها، تناولت غداءها في مطعم يطل على الأهرامات مباشرة.

وضعت خطة للتجول في القاهرة بأحيائها القديمة والجديدة. خططت للذهاب لجميع الأماكن التي سمعت عنها، والتي لم تسمع عنها، لأن تتريض على قدميها وتطلق لساقيها العنان، لأن تذهب بعيدًا، تتوه، لا يهم... لن تشعر بقلق أو خوف، لا أحد يتوه في بيته. وهذا بيتها، صحيح أنها لم تسكنه، ولكنه كان ساكن فيها.

استطاعت أن تحصل على عشرة أيام إجازة؛ بعد محاولات كبيرة لإقناع مديرها الذي وافق على مضض بعد أن أخبرها أنه الموسم السياحي الذي يزور فيه المعرض مئات السياح يوميًا، وأن وجودها مهم جدًا. لذلك كثفت جولة رحلاتها حتّى تستطيع أن ترى كل شيء، وتنجز ما جاءت من أجله في عشرة أيام. بالرغم من أنها متأكدة أن عشرة أشهر لن تكفيها وليس عشرة أيام.

بالطبع، لم تزر الأماكن كالسائح الذي يشاهد الأثر، فيندهش، ويبتسم، ويلتقط الصور ويذهب. بل كان الأمر بالنسبة لها أكثر من ذلك بكثير. ليس لأنها متخصصة وخبيرة في الفنون، ولكن لأن هذا بلدها، بلد أبيها وأجدادها، أبيها الذي ضحّى بكل شيء من أجله.

تجولت في الشوارع والأسواق القديمة. زارت المتاحف، والكنائس، والمعابد، والمساجد. ركبت فلوجة في النيل، وأكلت في المطاعم الشعبية.

يومًا بعد آخر، شعرت أنها أخيرًا عثرت على الشيء الذي يعيش بداخلها ولكنها لم تكن تستطيع أن تقبض عليه، ولم تكن تستطيع الإمساك به أو لمسه.

لقد جاءت زيارتها متأخرة جدًا. تعلم ذلك، ولكنها جاءت، والأهم من ذلك أنها استطاعت أن تصل بها لشيء مؤكد وحقيقي. لم تكن زيارة الوطن تلزمنا لنشعر بالانتماء إليه؛ لأنه إحساس فطري يولد معنا، ويبقى فينا. وما حصل لأبيها كان ظلالا تعتم الصورة وتجعلها مشوشة... مربكة وبمجيئها استطاعت أن تمحي كل ذلك.

بعد أن تعرفت على وطنها، حان الوقت للتعرف على أسرتها. شعرت بحنين قوي يدفعها لذلك. كانت تريد أن تجد لها قريبًا يرحب بها، ويضمها إليه بدفء، ويشعرها بأن لها كيانًا، لها جذورا. قامت بالبحث على موقع جوجل بكتابة اسم عائلة أبيها فظهرت لها أسماء كثيرة متشابهة. كان من الصعب معها أن تصل لشيء، فقامت بالاتصال بأمها. وبنبرة تأنيب:

- ليس من العدل أنك لا تريدين لي التعرف على عائلتي! أرجوك، أخبريني بعنوان منزل جدي لأبي.

على الجانب الآخر من الهاتف، دخلت أمها في تفكير، ثم بعد برهة من الصمت:

- 18 شارع رمسيس، الدور الرابع، الشقة 10.

كتبته على ورقة وطوتها على أربعة، ثم وضعتها في كفها وضمتها بقوة. خرجت من الفندق على عجل دون حتى أن تتناول إفطارها، واستقلت سيارة "تاكسي" للعنوان.

24

تطلع فيها حارس المبنى النوبي العجوز بارتياب. كانت لغتها العربية غير واضحة، وهيئتها توحي بأنها ليست من أهل البلد. وزاد ارتيابه سؤالها عن أشخاص رحلوا.

- هذا الشخص رحل عن الحياة منذ فترة طويلة، واسترد صاحب المبنى الشقة بموجب عقد القانون القديم وقام ببيعها.

ثم لاحقها بالأسئلة، كفضول حارسي العقارات:

- ولكن، من تكونين؟ وماذا تريدين؟

- أنا حفيدته.

ضيّق حارس البناية العجوز عينيه اللتين ضعف بصرهما كثيرًا، محاولًا الكشف عن صدق هويتها من خلال ملامحها.

- أنت بالتأكيد ابنة مصطفى، أنت تشبهينه كثيرًا.

- صحيح.

- يا الله! مرت الكثير والكثير من السنوات. وأين هو؟ هل جاء معك؟

- لقد رحل منذ عدة سنوات.

تمتم بكلمات التعازي، وعن حال الدنيا والراحلين، ثم دخل غرفته التي تقع في آخر الممر، وأتى سريعًا بكرسي من الخيزران وكوب من الشاي.

- اجلسي يا ابنة الغالي. كنت أعز أباك وأحبه كثيرًا. كان شخصًا طيبًا وغير متكبر. أبي عمل في حراسة المبنى، ونشأت هنا وكنا في العمر نفسه تقريبًا. اعتدنا أن نتسامر كثيرًا معًا، وكان يضمني معه في مباريات الكرة التي يقيمها أولاد الحي.

صمت لبرهة وكأنه يستعيده في ذاكرته:

- كان فتى متفائلًا ومتحمسًا، ويحب العدل والمساواة. عندما كان فتيان الحي يلومونه لأنه جاء بابن الحارس للعب معهم، كان ينهرهم ويخبرهم أننا جميعًا سواسية، لا فرق بيننا، ويصر على أنني سأشاركهم اللعب. وشب على هذه الأفكار التي ترسخت في رأسه، ووجد في عمله كصحفي تعبيرًا عنها. منذ صغره وهو متذمر من أوضاع البلد، أخذ يندد بالظلم الواقع على الطبقة الفقيرة التي كانت تزداد فقرًا بسبب فساد بعض المسؤولين، وبدأ في كشفهم. وذلك طبعًا لم يعجب الحكومة، فمقالاته لم تكن تكشف الفساد فقط، بل تفتح عيون المواطنين وعقولهم على حقوقهم؛ وطبعًا لم تكن تريد ذلك.

الشاي الذي كانت تتناوله في كوب زجاجي منقوشة عليه زخارف لزهور حمراء وزرقاء وهي جالسة على كرسي خيزران بمدخل بناية قديمة في شارع رمسيس مع حارسها الذي أخذ يقص عليها ذكرياته مع أبيها، كان ألذّ كوب شاي تذوقته في حياتها!

ودّعها الرجل بعد أن أخبرها أن عمها رحل هو الآخر، بينما عمتها تعيش في إحدى دول الخليج منذ زمن مضى. ثم ناولها ورقة دوّن فيها اسم ابن عمها الذي باشر بنفسه إفراغ شقة جدهما من الأثاث قبل تسليمها لصاحب المبنى، ووقتها ترك له رقم هاتفه حتّى إذا حدث شيء ما.

قررت الاتصال به على الفور. إذ كانت متأكدة من أنها إذا وضعت الورقة في حقيبتها فلن تتصل به أبدًا.

كانت العاشرة صباحًا عندما جاءها صوت يغالبه النعاس. من الواضح أنه من أولئك الأشخاص الذين لا يغادرون فراشهم إلا قرب الظهيرة.

لم ترتب الكلمات في رأسها كما كانت تفعل دائمًا في مثل هذه المواقف وتأخذ بتكرارها في رأسها كممثل يتمرن على أداء مشهد. كل شيء كان ارتجاليًا، ولذلك لم يفهم الرجل شيئًا؛ ليس فقط

لعدم تنسيق الكلمات وترتيبها، ولكن لصعوبة استيعاب ما تقوله أيضًا. فكان يكرر كل كلمة وراءها ليتأكد من حقيقة ما يسمعه.

- أنا رنيم، ابنة عمك مصطفى. وصلت من إيطاليا منذ عدة أيام، وجئت لزيارة جدي، فأخبرني (عم أحمد) حارس المبنى بما حدث له، ومنحني رقم هاتفك.

- حمدًا لله على السلامة. إلى متى سوف تمكثين؟

- سأغادر بعد أيام قليلة.

- سوف أتصل بك لاحقًا لترتيب موعد للقاء.

فتور صوته أكد لها أنه لن يعاود الاتصال.

لمح الحارس خيبة الأمل على ملامحها بعد أن أغلقت الخط، فقال:

- هذه هي الحياة. لم يعد أحد يهتم بأحد. لا تستغربي.

ودعته وذهبت وهي تفكر في صدق كلماته. ما الذي يجعل هذا الرجل يهتم بصوت يوقظه من نعاسه ليخبره أنها ابنة عمه الذي سافر منذ سنوات طويلة لإيطاليا، عمه الذي لم يعرفه ولم يرَه سابقًا؟ ما الذي سيجعله يتحمس أو يتشوق لرؤيتها!؟

وهي في الطريق، فكرت في أن كلام أمها صحيح، ولكنها لو لم تخض التجربة كانت سوف تلوم نفسها.

تذكرت الشخص الذي أخبرتها أمها عنه، قررت الاتصال به أيضًا، وذلك لتكون قد اتصلت بجميع الشخوص الذين عليها التواصل معهم وتنتهي من هذا الأمر.

وهي تتصل به كانت تفكر في ردود أفعال مختلفة. وعلى كل حال، مكالمة ابن عمها الباردة قلّلت شعورها بالعشم، وحفزت اللامبالاة داخلها. ومن هذا المنطلق استعدت.

أجاب الرجل على هاتفه مسرعًا وبحماسة شديدة، وكأنه كان في انتظار شخص ما. بعبارة واحدة طويلة عرّفته بنفسها وأخبرته بكل شيء. فرد عليها بنبرة أكثر حماسة، بنبرة دافئة ومرحبة:

- أهلًا وسهلًا، مصر ازدادت نورًا. اكتبي هذا العنوان، وسأنتظرك. لا تتأخري.

وكمن يريد أن تقطع وعدًا له، أخذ يردد:

- سأنتظرك. متى سوف تأتين؟ هل ستأتين؟

- نعم، مسافة الطريق وستجدني أمامك.

أشارت لتاكسي، وطلبت منه إيصالها لمنطقة الظاهر بالقاهرة.

تحدثت إليه عند وصولها لتسأله عن رقم الشقة، ثم وجدته يشير لها من أعلى الدرج.

- اصعدي. أنا هنا في انتظارك.

كان في منتصف الستينيات، يتمتع بصحة جيدة وذاكرة قوية، وبقايا من وسامة زمن سابق.

أثاث الشقة من موضة السبعينيات، و يدل على أنهم من الطبقة المتوسطة. ومن الواضح أنه لم يبدل أي شيء فيها؛ ربما بسبب ضيق اليد، أو الشعور بأنه لا داعي لذلك طالما أن كل شيء في حالة لا بأس بها ويستطيع أن يفي بالغرض. دعاها للجلوس في غرفة الصالون. كانت مرتبة ونظيفة وكأنها يجب أن تكون كذلك دائمًا استعدادًا لاستقبال الضيوف؛ فهم في أغلب الأحيان غرباء، ويجب أن يروا أحسن أحوالنا.

طقم ابيسون أنيق، طاولة رخامية وضعت عليها مزهرية بها ورود بلاستيكية، سجادة منقوشة برسومات لغزلان تمرح في البرية بخيوط حمراء وزرقاء. كان كل شيء في هذه الغرفة مبهجًا ويبعث على الدفء، وزادت أشعة الشمس التي كانت تتسلل عبر دانتيل الستارة بهاء اضافيا على المكان.

أخذ الرجل يحكي دون توقف. يحكي عن ذكريات عمر مضى. أخبرها بما لم تستطع أمها أن تخبرها به. أخبرها عن قصة الحب التي ربطتهما وبسبب ظروف مادية لم يستطع أن يطلبها للزواج، ولكنها ظلت كما هي في قلبه وعقله. لقد كانت حب حياته.

سألها وهو يرشف من الشاي الذي صنعه:

- هل جربت الحب؟

أربكها سؤاله: هل جربته حقًّا؟ هل ما تشعر به تجاه يزن "حب"؟ كيف لنا عند الوقوع في الحب لأول مرة أن نتأكد أنه هو "الحب"؟

لاحظ أنها دخلت في تفكير عميق، فأعفاها من حرج الإجابة:

- الحب الحقيقي يأتي مرة. وربما يأتي وربما لا. وهؤلاء الذين يعيشون كل يوم قصة حب، هذا ليس حبًّا؛ إنه إعجاب، ولكنهم يخلطون بيه وبين الحب. لا يستطيع المحب أن ينسى محبوبه، فيعيش دائمًا على قيد الذكرى.

لا تزال صورة أمك، وصوتها، وحديثها، وابتسامتها، ورائحتها ساكنة بي. تزوجتُ وأنجبت، وتزوج أولادي وأنجبوا، وطيفها لا يغادر كياني.

شرد لبعيد، ربما كان يستعيد ذكرياته مع أمها، ثم خرج من شروده، وبلهفة التمني سألها:

- هل معك صورة لها؟ أريد رؤيتها. بالتأكيد ما زالت تحتفظ بابتسامتها الجميلة.

لا، ليست معها صورة لها. لم تحتفظ بصورة لها على هاتفها. فأمها تكره الكاميرا، تكره التقاط الصور، أمها تكره حياتها. تعيش كما لو أنها مجبورة عليها.

هل لو تزوجت من هذا الرجل الذي أحبته كان حالها سيتغير؟ هل كانت ستكون سعيدة وممتلئة بالشغف والحيوية؟ كل ما مرت به في حياتها استطاع أن يقضي على ابتسامتها المميزة التي يتحدث عنها والتي لا تذكر أنها رأتها يومًا!

- في الواقع، المرأة التي تسأل عنها تبدلت كثيرًا منذ ذلك الحين. لم تعد هي الفتاة الجميلة المرحة التي تتمتع بالحياة والحيوية. الظروف التي مرت بها، كهروبها من مصر، وطلب اللجوء لبلد آخر، والعيش هناك كلاجئة في ظروف معيشية مجحفة؛ كل ذلك كان كفيلًا بأن يحوّلها إلى النقيض. عندما أسمعك الآن تتحدث عنها أشعر كما لو أنك تتحدث عن امرأة أخرى. يؤسفني أن أخبرك أنها لم تعد هي.

لمحت على وجهه علامات التأثر.

أعلم أنه لم يكن على أن أخبرك، وكان من الأفضل أن أتركك تحيا في ذكرياتك معها. ولكنك الإنسان الوحيد الذي تحدث عن أمي بحب وصدق. الإنسان الوحيد الذي يعرفها حق المعرفة. المعرفة التي لم أعرفها عنها. فهي بالنسبة لي كائن مشوش بلا ماضٍ أو مستقبل، وتعيش حاضرًا ضبابيًّا. حاولتُ كثيرًا أن أتقرب منها، أن أتحدث معها، أن أغوص في أعماقها لأعرف من هي، ولكنها كانت كبوابة فولاذية مغلقة بمتاريس.

حديثك أغراني بالبوح عنها، وعن علاقتي الملتبسة بها. لم أتحدث عنها أبدًا مع أحد. لم يحدث أن حكيت لأحد عن شخصية أمي الصامتة التي تؤدي جميع أعمالها بروتين إنسان آليّ. لا تضحك، لا تبكي، لا تتذمر أو تعترض. وكان يصعب التكهن بما تشعر به. في أوقات كثيرة، كنت أريد أن أصيح فيها: اعترضي، ارفضي، ابكي، افرحي، اضحكي، ارقصي، غنّي.

هل كانت تحكي له عن أمها أم تتحدث مع نفسها عنها. لقد نسيت وجوده كما نسيت سبب وجودها هنا.

كان سيقول شيئًا عندما أدار أحد المفتاح بالباب، ثم سمعت وقع خطوات و"خرخشة" أصوات حقائب بلاستيكية.

أشار باتجاه الباب

- هذا منتصر ابني.

صاح الصوت من مكان بعيد:

- أبي، هل أنت مستيقظ؟

- أنا هنا في الصالون. تعال.

عند عتبة الباب، وقف ينظر إليها باندهاش. لم يتوقع أن يجد شابة جميلة في ضيافة والده. كان في الغالب يجده برفقة أصدقائه من أرباب المعاشات.

ابتسم وهو يصافحها، وتكفل الأب بتعريفهما ببعض:

- منتصر ابني... رنيم، أسرتها كانت معرفة قديمة.

تساءلت: لماذا لم يخبره أنها ابنة المرأة التي يحبها والتي ظل وفيًّا لحبها حتّى يومنا هذا!؟ أتراه خجل من أن يخبره بذلك؟

كان في منتصف العمر تقريبًا، بشرته بلون رمل الصحراء، وعيناه سوداوان متألقتان كجمرتين مشتعلتين يؤطرهما حاجبان ثاقيلان. يرتدي سترة من الكتان البيج، وقميصًا أبيض، وبنطلونًا من الجينز. عظمات وجنتيه قوية وكأنها نحتت من خشب.

- أهلًا وسهلًا.

أخذ الرجل الذي تعرف عليها منذ دقائق يحكي له عنها، وكأنه يعرفها منذ أمد. يحكي بمحبة وفخر. وعندما يتشكك في معلومة يردّد: أليس كذلك..؟ أنت تعملين في متحف..؟ أنت أنهيت دراستك في جامعة..؟ أنت تعيشين في...؟

لقط منتصر خيط الحديث من أبيه، فمن الواضح أنه لن يكف عنه. وحكى لها عن زيارته الأخيرة إلى روما، وكيف أنه استمتع بالبلد وأهله الذين يتمتعون بالحياة والحيوية.

- ألست معي في أن هناك صفات كثيرة مشتركة بين الشعب المصري والإيطالي؟

- إنها أول زيارة لي إلى هنا. لذلك لا أستطيع أن أؤكد ذلك!

أجابها بدهشة:

- أحقًّا ما تقولين؟!

- نعم، حقًّا. أمي أعطتني رقم والدك في حال احتجت إلى شيء، وأخبرتني أنه يمكنه مساعدتي بكل محبة. اتضح أن الرقم تم تغييره، وكان من السهل الحصول على الرقم الجديد من دليل الهاتف. وفي الواقع، أنا هنا لأنني في حاجة "للونس"، وليس إلى شيء آخر. حاولت الوصول لأسرة أبي، ولكن للأسف الشخص الوحيد الذي استطعت الوصول إليه لم يتوقع اتصالي. وبالنسبة له، كان من الأفضل ألا أتصل. أسرة أمي رحل منها من رحل، وسافر منها من سافر، ووجودي لن يعني شيئًا لمن بقي. ومن الأفضل ألا أحاول التواصل معهم.

قال الرجل بنبرة واثقة؛ وكأنه يريد أن يؤكد على وفائه لأمها على مدار السنوات، وأنه لم يتوقف عن متابعة أخبار عائلتها:

- لقد رحلت جدتك منذ حوالى خمسة عشر عامًا. وسبقها جدك بعدة أعوام. وسافر خالك محمود للعمل في الإمارات في بداية التسعينيات ولم يعد. وخالتك نوال هاجرت إلى أستراليا قبل أن تغادر أمك مصر. ولكن، ألا يوجد أي تواصل بين أمك وأشقائها؟

- لا.

- شيء مؤسف حقًّا.

لمحها الرجل وهي تمد يدها لحقيبتها وتستعد للمغادرة، فقال بنبرة حازمة:

- لا، لن تذهبي. سوف تتناولين الغذاء معنا اليوم. أليس كذلك يا منتصر؟

ارتبك منتصر، ورد مؤكدًا كلام أبيه:

- نعم، أكيد.

- آسفة، لا أستطيع. هناك الكثير من الأشياء يجب أن أنهيها. ربما في يوم آخر.

شد الرجل على كفها:

- في يوم آخر، وعد.

وأضاف وهو ينظر لابنه:

- اذهب معها لتوصيلها.

- شكرًا، سأستقل "تاكسي".

- لا. أبدًا، منتصر سيوصلك.

وهو يفتح لها باب السيارة التي "صفها" أمام البناية قالت له:

- لا داعي لذلك. أعرف تشبّث كبار السن برأيهم. يمكنك أن تذهب.

- الأمر ليست له علاقة بكبار السن. لو أنني لم أرد لكنت اعتذرت. أنا بارع باختراع الحجج. أردت أن أتعرف عليك أكثر. ما رأيك لو تقابلنا صباح الغد!؟ يمكنني أن أرتب لك جولة سياحة، ستكون مختلفة عن جولات السياح الذين يمسكون في أيديهم خارطة ويحددون الذهاب إلى المعالم المهمة. إنها جولة خاصة بابن البلد الذي يحفظ أزقته وطرقه التي تقود إلى الدهشة.

- مؤكد هذا عرض مغرٍ. ولكن للأسف، غدًا صباحًا هناك موعد لي مع مسؤول كبير بوزارة الآثار، وبعدها سأسافر للفيوم في زيارة قصيرة ولكنها مهمة قبل عودتي لإيطاليا.

- إذًا، نلتقي مساء اليوم.

24

كان هناك إصرار منه، ولم يكن مثل الوعد المبهم الذي أخبرها به ابن عمها بصوت بارد. هناك رجاء في عينيه، ونبرة مشوبة بالأمل والحماسة "إذًا، نلتقي مساء اليوم". وأمام ذلك، لم تستطع إلا أن تهز رأسها بالإيجاب.

قليل من كل شيء كان يكفي لهذا المساء. قليل من المكياج، ومن العطر، ومن الحلي. فستان أبيض من الدانتيلا يكشف عن كتفيها وظهرها، وضعت في قدمها صندلًا أبيض خفيفًا، وتركت شعرها يتموج خلفها وذهبت. في بهو الفندق كان في انتظارها. بدا أكثر أناقة في قميص أبيض وبنطلون أسود و"صديرية" من الكتان.

اصطحبها للعشاء بمطعم دوار يقع في "روف" فندق يطل على النيل، ويكشف سحر المدينة وجمالها، وأنوارها المتلألئة التي تضيء بشكل مبهر، والبواخر التي تعبر النهر وتبدو من هذا الارتفاع كقوارب ورقية تسبح مع التيار.

كانت الليلة دافئة وعطرة، تألقت القاهرة كامرأة تزينت لحضور حفل. ورائحة الهواء كانت معبأة بأريج الزهور والفواكه.

كان يتحدث ببطء وكأنه يتذوق الكلام قبل أن يقوله. في البداية، أثنى على جمالها بكلمات مهذبة، ثم سألها:

- هل أعجبتك البلد؟

- منذ قدومي وأنا أعمل على فض الاشتباك بيني وبينه.

- أنجحت؟

- إلى حد ما. علاقتي به كانت شائكة ومرتبكة، لذلك أصررت على المجيء لأكون وجهًا لوجه معه.

- كان ينبغي أن تأتي قبل ذلك بكثير من السنوات. لماذا انتظرت كل ذلك؟

- لم أكن أملك القدرة على المواجهة، ولكنني أخيرًا فعلتها، وسعيدة بذلك. اليوم أنا قادرة على تقبّل الأمور، وسعيدة بها، وسعيدة بجمالها وقبحها، سعيدة بتاريخها، ولا يقلقني المستقبل. أحب أن أتنفس هواءها ملء أنفي، وأشرب من ماء الصنبور دون التفكير في مدى صلاحيته للاستخدام، وأمشي في شوارعها المزدحمة وغير الممهدة للسير، ولا يضايقني ذلك. الدفء الذي أشعر به هنا عوضني عن ثلج سنوات طويلة. ثلج سكن روحي وأوصالي. هل سمعت سابقًا عن قضمة البرد؟ هذا ما كنت أشعر به قبل مجيئي إلى هنا.

وضع النادل ميلك تشيك فراولة لها، وقهوة له وذهب.

- لقد ثرثرت كثيرًا، تحدث أنت ولو قليلًا.

- عمري 42 عامًا، استمر زواجي من فتاة أحببتها لمدة خمس سنوات وبعدها انفصلنا. دخلت في علاقة لمدة سنتين وانتهت منذ سنة تقريبًا. وأنا وحيد الآن وأشعر براحة في ذلك.

انتظر أن تعقب، ولكنها لم تفعل فأكمل:

- أعمل معالجًا بسيكولوجية الجسد، مثل الحركة وتناغم الطاقات. حققت نجاحًا وشهرة كبيرين، وذلك عوّضني عن الكثير من الأشياء في حياتي.

طلب قائمة الطعام، فوضعها النادل وذهب. وفيما هو يتفحصها:

- جيد. هناك أصناف من مطابخ متعددة. سأختار لك طبقًا من المطبخ المصري سيعجبك كثيرًا. وفي المقابل، اقترحي عليّ طبقًا إيطاليًا.

- أنا عادة لا أتعشى. سأكتفي بطبق من السلطة.

نظر لها بتأنيب، ولكنها أومأت برأسها تعني "نعم، هو ذلك للأسف".

ارتفع كم القميص قليلًا، فلمحت وشم نسر على ذراعه يليق بساعده القوي. تحدثا طويلًا عن أمور شتى. كان لديهما الكثير من الأشياء المشتركة: الموسيقى، الأوبرا الإيطالية، التانغو، الفن التشكيلي. كان محبًّا للفنون بأنواعها، وذلك منحها شعورًا بالراحة والثقة.

- متى ستغادرين غدًا؟

- عند الثانية عشرة ظهرًا. ستكون ليموزين الفندق في انتظاري.

- هل هناك أحد سيذهب معك؟ فريق عمل أو ما شابه؟

- بمفردي.

- إذًا، ألغي حجز السيارة. سأقوم باصطحابك.

- لكن، لماذا؟

- منذ فترة طويلة لم أزر الفيوم، وسمعت عن أعمال واسعة لتحديثها وتنسيقها حضاريًّا قامت مؤخرًا. لذلك أريد زيارتها، وأعتقد أن فرصة زيارتها معك ستكون أفضل.

عندما وصلها للفندق، أخبرها بنبرة امتنان:

- شكرًا لك، سعدت جدًّا هذه الليلة. منذ فترة طويلة لم أشعر بمشاعر مثل هذه.

لم تحاول أن تمعن التفكير في ما قاله. هو جذاب ووسيم، وأي امرأة يمكنها أن تقع في هواه بسهولة. لكنّ عقلها وقلبها كانا مع رجل آخر، رجل ما إن تذكرته حتّى رن هاتفها. ومثل كل مرة، ينتابها هذا الشعور بالفرح عند رؤية اسمه.

- كيف حالك؟ كيف الأجواء بالقاهرة؟ هل سعدت بلقائها؟

- كل شيء جميل.

- وهل رحبت بك؟

- جدًّا.

- وما خططك؟

- سأذهب غدًا في رحلة سريعة للفيوم.

- سأصل إلى القاهرة بعد غد. هناك تحفة فنية أريد منك أن تلقي نظرة عليها، وستكون مفاجأة بالنسبة لك.

من صوته كان واضحًا أن هناك مفاجأة فعلًا. فنبرته مختلفة عن المعتاد؛ نبرة متحمسة... نابضة.

وكما في كل مرة:

- انتبهي لنفسك. إلى اللقاء قريبًا.

شعرت بقلبها يقفز من بين أضلعها. اشتاقت له، اشتاقت لرؤيته. ومن الجميل أن يرتب لهما القدر موعدًا هنا في القاهرة. ستجلس معه على نيل القاهرة الساحر، وسيستمعان لأم كلثوم. سيثرثران ويضحكان ويشربان شايًا بالنعناع.

القدرة السحرية للمشاعر غريبة؛ فالأمر أشبه بالجنية في قصة سندريلا. بعصاها السحرية تشير إلى أي شيء فيتبدل من غاية القبح، لمنتهى الجمال.

المقارنة بين منتصر ويزن ستكون في صالح منتصر بالطبع. فهو مناسب لها في كل شيء: عمره، تفكيره، حالته الاجتماعية، والأهم من ذلك اهتمامه المفرط بها، وهذه المشاعر التي تطفح عليه.

وبالرغم من ذلك، لم تكن تحمل له سوى امتنان وتقدير. هي هائمة بحب رجل آخر يكبرها فوق العمر بعمر، رجل غامض بمزاج متقلب، متأنف ومتأفف يتعامل مع الحياة بنفور وتعالٍ. والأدهى أنه لا يبادلها مشاعرها، والكارثة أنه متزوج.

وبالرغم من كل ذلك، هناك شيء فيه يجعلها تركض دائمًا باتجاهه.

شاهدت الصورة التي نشرها على انستجرام. كان مع زوجته وسط مجموعة من أصدقائهما حول مائدة كبيرة في مطعم أنيق يرفعون كاسات النبيذ في نخب ما. يبدو أميرًا وسط الجميع. تحب

تلك الهالة التي تحيط به وتخطف الأضواء من كل من حوله.

حفظت الصورة على هاتفها وقامت بتعديلها، قصت جميع من معه، فظهر يجلس بمفرده ويرفع كأسه في نخبها. كانت تعلم أنها تتصرف كمراهقة حمقاء؛ فالطرق جميعها لن تؤدي للوصول إليه. ولكنها قررت في هذه الليلة وهي تقف في الشرفة وتنظر للأهرامات- هذا البناء العظيم والخارق والفريد- أن تستمد طاقة منه، وتجد طريقة لذلك.

في طفولتها ومراهقتها حلمت بالكثير من الأشياء، ولكنها لم تحصل على شيء. فكل السبل لتحقيق أمانيها البسيطة جدًّا كانت مسدودة. والآن، لن تسمح لشيء بأن يقف في سبيل تحقيق أحلامها.

12

الإسكندرية القرن الأول الميلادي

خرجت دون أن يلاحظها أحد. ومن الأزقة الخلفية نفسها تركت بوابة القمر. كانت البلدة في نعاس وهدوء، عدا منطقة كانوب التي كانت لا تزال ساهرة؛ فهي مليئة بالحانات والمراقص وبيوت الدعارة. أمام هذه الحانات يقف رجال يحملون المشاعل، وآخرون للحراسة، وعبيد ينتظرون خروج أسيادهم السكارى من الحانات ليحملوهم على المحفات ويعودوا بهم إلى منازلهم.

تحسرت كيف تحولت هذه المنطقة التي ذكرت في البرديات كثيرًا، ووصفت بأنها من أهم وأجمل الموانئ التجارية إلى هذا المستنقع. تذكرت المعلومات التي درستها عنها. مدينة مصرية قديمة تقع على البحر المتوسط في شرق الإسكندرية، عند مصب فرع بائد للنيل كان يسمى بالفرع الكانوبي. وكانت ميناء رئيسًا للتجارة الإغريقية في مصر قبل إنشاء مدينة الإسكندرية، وتنافسها في هذه المنزلة مدينتا هرقليون وناوكراتيس. والسبب لهذه التسمية أن كانوبوس- وهو شخصية أسطورية إغريقية- كان بحارًا لسفينة الملك مينلاوس ملك إسبرطة أثناء حرب طروادة. كان شابًا وسيمًا مفعمًا بالنشاط والقوة. أثناء زيارته لسواحل مصر، أحبته فتاة مصرية تسمى ثيونوي، ولكنه لم يبادلها الحب. وخلال الزيارة نفسها لدغته أفعى، فأقام سيده نصبًا لذكراه. سميت المنطقة على اسمه، والذي يشير للنجم كانوبوس في اللاتينية القديمة، والمشهور عنه أنه يمتاز بدرجة لمعان شديدة في الليل. ومع الزمن، تحول اسم كانوبوس إلى كانوب، كما تحوّلت هذه المنطقة الجميلة إلى مرتع للرومان.

وهي تخلع ملابسها، قررت أن يكون ما رأته الليلة كأنها لم تره. يجب أن يبقى بعيدًا جدًّا في طي الكتمان، وإلا فحياة هؤلاء الرجال الذين تحبهم سوف تنتهي بأبشع الطرق، وهي لا تقوى على فراقهم. أوناس صديق عزيز، وماديوس تحبه وتثق فيه كثيرًا.

وإن كان مجرد توقع موت هؤلاء الرجال يعد كارثة لا تقوى عليها، فكانت هناك كارثة محققة في الطريق إليها.

في صباح اليوم التالي، أيقظتها الوصيفة وأخبرتها بأن أمها وأخاها في باحة القصر ينتظرانها. استغربت، فما الذي أتى بهما في هذا التوقيت المبكر؟ ارتدت ملابسها في هدوء حتّى لا يستيقظ زوجها الذي عاد للبيت في الساعات الأولى من الصباح تفوح منه رائحة الخمر.

لم تبشر ملامح أمها بالخير. للمرة الأولى تراها بهذه الحالة المزرية. حتّى إن صوتها غادرها، فتكفل أخوها بإخبارها أن أباهما ألقي القبض عليه ضمن الثوار الذين خرجوا في ثورة البكولية، وعليها أن تطلب من زوجها الإفراج عنه.

تحدثت أمها بصوت متهدج:

- مؤكد أن زوجك سيفعل ذلك. مؤكد لن يسمح بأن يقتل والد زوجته.

لم تعرف بماذا تخبر أمها، فهي نفسها لا تستطيع التكهن بشيء! لو كانت علاقتها بزوجها كأي علاقة طبيعية بين زوجين لكانت تستطيع أن تؤكد لها أن ذلك من المستحيل أن يحدث. لكن هذا الرجل الذي تعاشره رجل غريب عنها، لا تفهمه ولا تعرف عنه شيئًا، ويصعب التكهن بتصرفاته ومعرفة قراراته.

ولكنها عوضًا عن كل المشاعر المتضاربة التي تشعر بها، حاولت أن تظهر قوية، وضمت أمها إليها لطمأنتها:

"مؤكد يا أمي، سأطلب منه ذلك".

ولكنها لم تستطع أن تستكمل العبارة قائلة: "وسيفعل".

وعلى مائدة الإفطار، لاحظ أنها واجمة ومهمومة فسألها:

"ما بك؟ وكأن مصيبة وقعت على رأسك".

"نعم. هي مصيبة حقًّا. لا أعرف حتى كيف أخبرك بها! لقد ألقي القبض على أبي مع الثوار. لا أعرف ما الذي زج به في هذه الأمور،
إذ لم تكن السياسة من اهتماماته قط. مؤكد أن أحدهم قد لعب
في رأسه".

كان يستمع إليها بلا مبالاة وهو يقضم التفاحة. ودون أن ينظر إليها قال:

"هل تريدين أن تقنعيني أن أباك الرجل المتعلم الذكي قد فعل ذلك بناء على رغبة أحد وليس بدافع منه هو؟"

لم تجبه.

"أطمع في كرمك أن تفرج عنه".

هزت قهقهاته أرجاء القصر. تأملته وقتها؛ اختفت وسامته
التي أحبتها وأغرتها، وبدّلتها القسوة بملامح أخرى قبيحة. بدا
كوحش:

- سينال والدك عقوبة مضاعفة ليكون عبرة لمن تسوّل له نفسه بأن يثور علينا، وحتى يعلم الجميع أن من يريد تحطيم أمان هذه الإمبراطورية وخرق قوانينها مهما كانت مكانته وصلته برجال الحكم فيها سيعاقب أشد العقاب. أعلم تمامًا أن الإغريق الذين ولدوا في الإسكندرية حاقدون ولئام، وهم من يحرضون المصريين على الثورة والتمرد

بكت، انتحبت، ركعت تحت قدميه، قبلت طرف عباءته. فشد الطرف من يدها، ورفعها على كتفه الأخرى وذهب.

تكومت على نفسها على الأرض باكية، فاقتربت منها الجارية وضمتها إليها.

في صباح اليوم التالي، أتوا بالثوار الذين تم القبض عليهم إلى مدينة الإسكندرية مركز الحكم ليلقوا عقابهم فيها. ثلاثمئة شخص أعدوا لهم ساحة مكشوفة ملحقة بمبنى المحكمة التي بناها الإمبراطور الروماني على الطراز البازليكي. وبالرغم من أنها كانت رومانية، ولكن الإغريق

والمصريين كانوا يعتبرونها مصرية تحكم باسم حورس ورع، وكانوا يطلقون عليها "حورس" الذي يرمز للخير والعدل. والتعويذة المصرية القديمة التي يرمز لها بعين حورس وتسمى "وجات" كانت منقوشة على جدران المحكمة.

حضر قاضي القضاة متبخترًا في ثوبه الفضفاض الموشى بالذهب، تتبعه هيئة المحكمة.

دعوا صفوف الشعب تخرج لتشاهدهم، وليشهد عليهم الداني والقاصي، ولتذهب أخبارهم عبر البحر إلى المدن التي تحكمها الإمبراطورية. علقت المقاصل والخوازيق، وجلبوا الحيوانات المتوحشة التي تم تجويعها منذ قيام الثورة استعدادًا لهذه اللحظة؛ لحظة نهش أجساد من سوّلت لهم أنفسهم أن يخرجوا رافضين الظلم، رافضين الجوع، رافضين القهر.

أمر زوجها قاضي القضاة بأن يكون حماه عبرة لهؤلاء، وأن يدفع ثمن خيانته للإمبراطورية.

رفض الكثير من المصريين والإغريق الخروج لرؤية الحدث، بينما خرج الرومان وأصحاب المصالح والفسقة والمتملقون والخصيان والعاهرات. مر الثوار يطوفون المضمار مسلسلة أيديهم وأرجلهم بالجنازير الثقيلة التي أدمت معاصمهم وكواحلهم. دقت الطبول ونفخ في البوق.

أمرها أن تخرج لتشاهد معه المذبحة. رفضت، تشنجت، توسلت. فأمر حراسه بجلبها بالقوة. قبضوا على ذراعيها، وأركبوها العربة. وفي طريقهما حذرها أنه لو بدر منها شيء أمام الشعب يدل على رفضها لما يحدث لأبيها، فسيكون مصيرها ومصير جميع أسرتها كمصيره. سيبعث في جلبهم للتو وفي اللحظة نفسها ليلقوا حتفهم معه. ذليلة امتثلت لأوامره. ضعيفة لا حول لها ولا قوة جلست بجواره على المنصة. عندما شاهدها أبوها، ودعها بإيماءة من رأسه ونظرة عتاب في عينيه تأكدت أنها لن تنساها يومًا.

كان أبوها أول من نفذ به الحكم، ففصل السياف بضربة قاصمة رأسه عن جسده. تدحرج الرأس بينما تدفقت الدماء كنافورة. لقطه السياف بخطاف، وأخذ يدور به في أنحاء المدينة ليشاهده الجميع.

لحظة فصل السياف رأس أبيها عن جسده شعرت وكأن روحها تغادرها. كمذهولة من أمرها تساءلت: كيف رماها قدرها لمثل هذا العذاب؟ وما الذي جمعها بهؤلاء الناس؟ كان يجلس بجوارها وعلى وجهه ابتسامة رضى، ويضع كفه على كفها. ودت لو تغرز فيها سكينًا.

تعرضت لأبشع ما يمكن لإنسان أن يتعرض له. هذا الإيذاء النفسي أكثر إيلامًا من صنوف القتل الوحشية التي قتل بها الثوار. فعلى الأقل، هم ذهبوا في راحة أبدية، بينما هي ستعيش عمرها محطمة.

13

بقيت في الفراش طوال الأسبوع، إذ لم تستطع أن تقف على قدميها، وكلما حاولت خذلتها أعصابها. المشاهد تمر أمام عينيها ولا تتوقف أبدًا. وكلما حاولت أن تخرجها من رأسها لا تستطيع. نظرة أبيها سيطرت على كامل كيانها. كانت نظرته لها ممتلئة بالعتاب. وكانت على يقين من مغزى هذه النظرة، فمن المؤكد كان يلومها لأنها تجلس في المقصورة برفقة قاتله وتشاهد موته.

بكت ولطمت وجهها وصرخت: "لا يا أبي. لم أجلس لأشاهدك. لقد أجبرت على ذلك. أجبرت يا أبي".

بعد مرور أسبوعين، استطاعت أن تستعيد عافيتها. استدعت كامل عزيمتها، وقررت ألا تستسلم.

أمرت الجارية بتجهيز الحمام، وطلبت منها أن تحضر تركيبة خاصة من جميع الزيوت التي تجلب النشاط والقوة والحيوية لتدلك بها جسمها. وبعد أن تحممت زينتها وصيفتها، وألبستها ثوبًا موشى بالخيوط الذهبية والفضية، ورفعت لها شعرها عاليًا، وزينته بتاج بفصوص براقة؛ فكانت تبدو على مائدة الإفطار كإلهة للسحر والجمال.

ابتسم عندما رآها:

"أخيرًا قد عدت للحياة".

"نعم. لقد عدت وفي أحسن أحوالي".

رمقها بنظرة متشككة. بدأت في لعب اللعبة نفسها التي يلعبها معها ليبقى دائمًا هذا الغامض الذي لا تعرف عنه شيئًا، لغزًا محيرًا بينما هي كتاب مفتوح بريئة وتلقائية. ستترك نفسها ككتاب

مفتوح كما هي، لكن كلماته ستكون طلاسم يصعب فهمها.

ارتدت ثيابها وقررت الذهاب إلى السيرابيوم. كان هناك الكثير من الحجاج الذين أتوا من جميع المناطق لزيارته والحج عنده. ذهبت لمعبد إيزيس وأزوريس، هناك حزام يفصل بين المصلين وقدس الأقداس، حيث المذبح الذي تستعر منه النار. وخلف المذبح سلم يؤدي إلى أعلى، وفوق كل درجة من السلم يقف كاهن مرتديًا عباءة بيضاء، ويرتلون تراتيل مهدئة للأعصاب.

كاهنة بيدها زيوت عطرية تمسح بها في يد الحجاج، وكاهن يعزف على آلة موسيقية.

بدأ كبير الكهنة يرتل تراتيل بصوت شجي، والمنشدون ينشدون وراءه. انشغلت بالصلاة والتضرعات لإيزيس، وغلفها إحساس بالسكينة والهدوء فقدتهما منذ زمن. زفرت وشهقت عدة مرات بقوة وسرعة لتنظف جميع ما علق بجسدها وروحها من ألم، وفتحت رئتيها على وسعها لهواء جديد، ونقي، ومحمل بالحماسة والأمل.

أمرت السائق بعدها أن يأخذها إلى المكتبة. سارت العربة في الحي المصري الذي كان مزدحمًا بفقراء الشعب الذين يجلسون بأجسادهم العارية فوق عربات الكارو ويصيحون في بغالهم ويضربونها بعصاهم لتسرع الخطى، ونساء يحملن جرارًا فوق رؤوسهن والرضع على أكتافهن. أكواخ مصنوعة من الطين بسقوف من "خوص" وجريد، وأمام أبوابها جلست العجائز. أطفال يركضون في الحارات حفاة، بملابس متسخة. كل شيء في هذا الحي يضج بالفقر والمعاناة؛ بالرغم من أنه حي المصريين، حي اصحاب الأرض، أصحاب البلد وخيراتها. وعلى نقيضه، كان في الجانب الآخر يقع الحي الروماني الذي يسكنه المستعمر، الذي يسكنه المغتصب. يعيشون في القصور ذات الحدائق الغناء والفسيفساء من البازليك والتماثيل الرخامية، ويجلسون على المحفات المبطنة بالفرو لتذهب بهم لمشاويرهم، بينما النساء يتبرجن ويرتدين الحلي الذهبية ويتسكعن في الطرقات بحراسة الخدم. وعندما يشعرن بالضجر تأخذهن المراكب في نزهات بحرية.

يعيشون على خيرات البلد ونعيمه، ويحرمون الشعب من خيرات بلده ويتركونه يعيش في فقر مدقع. وفي الأخير، يريدون أن يكمموا أفواههم، يريدونهم أن يرضخوا للذل. ومن يثُر يقتل. في وقت سابق، شعرت باللوم لتورط أبيها في المشاركة في الثورة، ولكنها في هذه اللحظة بالذات وهي ترى الفقر والمرض واليأس قابعة في أوصال هؤلاء الناس شعرت بالفخر به.

في مركز البحوث، شقت طريقها بخطى ثابتة وحماسية متجاهلة نظرات الكراهية والاحتقار التي كان الجميع يرمونها بها. لم تجده يجلس في الحديقة يرسم فعلمت أنه في صالة البرديات يقضي الوقت
في القراءة.

اقتربت منه.

"أريد أن نتحدث".

"عن ماذا تحديدًا؟"

لحظات صمت قطعها قائلًا وهو يحك رأسه وكأنه يفكر:

"انتظري، يمكنني أن أخمن! مؤكد تريدين أن تحكي لي عن شعورك لحظة مشاهدتك قتل والدك وأنت تجلسين في المنصة الملكية بكامل بهائك ووقارك بجوار زوجك. ترى، هل كنت تصيحين وتصفقين مع البائسين ممن حضروا المحاكمة عندما تدحرجت رأسه بعد فصلها عن جسده؟"

"أرجوك، لا داعي لهذا الكلام. هل يمكننا أن نخرج للحديقة ونتحدث؟ أحتاج لذلك".

رمقها بنظرة غريبة.

"هيا".

كانت الحديقة فسيحة، بها عدد من الفسيفساء، وتضم أنواعًا شتى من مختلف الزهور والأشجار، وأريجها يعبق في الهواء بروائح مختلطة، بينما رذاذ الماء ينعش المكان. جلسا على مصطبة رخامية. وضع بينهما مسافة عدة سنتيمترات، وتحدث دون أن يوجه لها نظره:

"تكلمي، ما الذي تريدين قوله؟"

"علمت بأمر الاجتماعات السرية التي تقيمها في منزلك، وأريد أن أنضم إليكم".

أدار رأسه نحوها:

"أي اجتماعات سرية؟ لا توجد أي اجتماعات سرية".

- بل توجد. في مساء اليوم الذي كنت فيه هنا في المركز وعنفتني بكلام جارح زرت منزلك لأشرح لك حقيقة الأمر، ووجدت الباب مواربًا فدخلت. وعندما رأيتكم مجتمعين أنت ومجموعة من الرجال منهم اماديوس والفنان انسحبت في هدوء.

هز رأسه بعصبية.

- والآن، هل أنت هنا لتهدديني أم لتسخري مني؟ أم إنها لعبة قذرة تلعبينها علي أنت وزوجك؟

- صدقني، أنا حقًّا أريد الاشتراك معكم في ثورتكم.

- كيف بإمكاني أن أصدقك!؟ كيف أصدق من تعاشر الرجل الذي يقيم الظلم نفسه؟ كيف أصدقك وأنت كنت تشاهدين قتل أبيك؟

- لقد أجبرت على ذلك. هددني بأنني إذا لم أفعل فسوف يقتلنا جميعًا أنا وعائلتي. ولأنني أعلم أنه قادر على فعل ذلك حضرت المحاكمة. هل تعتقد أنه هين علي أن أفعل ذلك؟ والآن أريد الانتقام منه.

- اذهبي وانتقمي بطريقة أخرى. من يشارك في هذه الثورة فدافعه سيكون من أجل تحقيق العدالة، وليس من أجل الانتقام من زوجه.

- انتقامي سيكون من الظلم بجميع صوره. ليس فقط من أجل أبي، ولكن من أجل وطننا وشعبنا. منذ عدة أسابيع تعقد في القصر اجتماعات، وتصدر قرارات بخصوص الثورة وكيفية قمعها، ويمكنني أن أفيدكم.

أدار لها ظهره وتركها وذهب دون أن يجيبها، فلحقت به:

- أرجوك دعني أشعر أن روح أبي المعلقة في عنقي ستلقى راحتها. ساعدني لكي أساعده وأساعدكم.

- من سيساعدك حقًّا هو الإله أمون. اذهبي إلى معبده "وحى أمون" اغتسلي هناك في البئر المقدسة لتتخلصي من آثامك، وبعدها صلي له ليعفو عنك ويغفر لك ويمنحك السلام الروحي. منذ قرون طويلة فعلها الإسكندر الأكبر عندما زار معبده لينال الرضى والسماح، وليتوج ابنًا له، وسأل العرافين هناك عن مصيره ومصير حملاته العسكرية. إنهم يملكون حدسًا مذهلًا بالتنبؤات؛ حتى إنه أطلق عليه "معبد التنبؤات"، أخبروه وقتها أنه سيملك الأرض ولكنه لن يعيش طويلًا. اذهبي إلى هناك ليتنبأوا بمصيرك أنت وزوجك، ولكن تأكدي أن الفرق بينهما سيكون كبيرًا... كبيرًا جدًا. فقد عاش الإسكندر بطلًا وزادت بطولته بعد مماته. إنما زوجك خسيس في حياته وبعد مماته لن يذهب اسمه إلا لحاوية التاريخ.

وضعت يدها على كتفه.

- أنا معك. إن اسمه لا يجب أن يخلد إلا في حاوية التاريخ. إنه يستحق ذلك.

دخل في تفكير عميق، ثم سألها بنبرة خافتة أكثر من المعتاد:

"ولكن، هل أنت مقتنعة فعلًا بذلك؟ أم أنه قرار طائش نتيجة ما تعرض له أبوك على يد زوجك؟"

- ربما هو أكثر قرار أتخذه عن اقتناع وثقة.

- على أي حال، الأمر لا يرجع لي بمفردي، يجب أن أستشير أفراد المجموعة.

- حسنًا، ولكن أفراد المجموعة لا يعرفونني مثلما تعرفني، لذلك أريد منك في حال شكوكهم تجاهي أن تخبرهم عن معرفتك بي. فأنت تعرفني جيدًا، ربما زواجي منه زحزح ثقتك بي، ولكن ما أريد أن أخبرك به هو أن زواجي منه والذي جعلني نبيلة رومانية لم يبدل من سيرينا التي تعرفها في شيء. على العكس، لقد عمق فيها مصريّتها. كلما اقتربت منهم ورأيت قبحهم وشرورهم تشبّثت أكثر بهويتي.

وربتت بحنان على كفه:

- أوناس، أرجوك عانقني. ضمني إليك، أحتاج لذلك جدًا.

تردد، إذ لم يسبق له أن ضمها إليه قبل زواجها، والآن هي زوجة لرجل آخر، ومن يكون هذا الرجل؟ إنه سفاك دماء. ولكنّ تلك النظرة المتوسلة في عينيها جعلته يضمها بقوة وبحنان.

منحها حضنه الشعور بالراحة والأمان اللذين افتقدتهما منذ ارتباطها بذلك الرجل القاسي الذي لم يمنحها عناقًا أبدًا. ودّعته وغادرت مسرعة دون النظر إليه.

دخل في تفكير عميق. لم يشك في كلامها، إذ كان يثق في كل ما أخبرته إياه لأنه يحفظها تمامًا.

هو يعلم أن اشتراكها معهم في المجموعة سيفيد الثورة. فهي تسكن في عرين الأسد نفسه؛ تسكن في مصنع القرارات. ولكنّ انضمامها لهم سيعرّضها للخطر. زوجها رجل لا يرحم، وفعلتها لا عقاب لها سوى الموت. لا، ليس من الصواب أن يفعل بها ذلك. سيردعها عن قرارها.

أخبرها بذلك في لقاء لاحق، عندما استقبلته بلهفة وسألته إن كانت المجموعة قد وافقت على انضمامها لهم. وقبل أن يخبرها بموافقتهم حاول أن يثنيها عن رأيها فكان ردها:

"هذه حياتي، وأنا قررت ذلك بنفسي. صدقني، حتّى إن لاقيت عقابي بالموت، فالأمر لن يختلف كثيرًا. فمنذ أن ارتبطت به وأنا أشعر أن روحي تغادرني شيئًا فشيئًا. وعند رؤيتي لقتل أبي غادرتني روحي للأبد".

عندما عرض على المجموعة طلبها في الانضمام إليهم، عارضت فئة كبيرة. إذ شكّوا في أن تكون خطة قذرة من خطط زوجها. ولكنه أخبرهم أن زوجها لو علم بأمرهم لكانوا الآن في عداد الأموات؛ فهو ليس بحاجة إلى خطة للقبض عليهم... حكى أنه يعرفها منذ زمن طويل ويثق بها. حكى لهم عن دوافعها في الانضمام إليهم. حكى أنها سوف تساعدهم كثيرًا بانضمامها إليهم. وبعد مشاورات ومناقشات ومشاحنات وافق أعضاء المجموعة.

سعادتها كانت لا توصف عندما أخبرها؛ إذ سوف تتاح لها فرصة الثأر لأبيها ولوطنها.

25

القاهرة 2018

في العاشرة، استقبلتها مديرة بأحد أقسام هيئة الآثار بحفاوة بالغة. ولكن، عندما أخبرتها عن سبب زيارتها، بدأت تلك الحفاوة تتبدد.

- لماذا أشعر من حديثك أنك تلقين بمسؤولية وجود الآثار المصرية بمتحف "أوفيزي" على الإدارة هنا!؟ أنت تعلمين أن هذه مشكلة كبيرة وحلها لن يكون بمثل هذه السهولة! كما أننا حاولنا بكل ما في وسعنا استرجاع تلك الآثار، ولكن للأسف لم نتوصل لحل.

- لأنكم لم تتخذوا إجراءات عاجلة وقانونية، مثلما فعلت بلدان أخرى اتخذت إجراءات صارمة، وبالفعل استعادت آثارها؛ وهي آثار لا تمثل أهمية مقارنة بالآثار المصرية الموجودة هناك... يجب على وزارة الخارجية تكليف مكتب محاماة متخصص في هذه القضايا لاتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة كافة لرفع دعوى قضائية مدنية. يجب تشكيل لجنة من كبار المتخصصين في الآثار وخبراء الفنون ورفع مذكرة لاسترداد آثار الوطن.

بنبرة تخفي وراءها شيئًا من السخرية:

- ولكن، أليس من الغريب أنك تعملين في هذا المتحف الذي تطلبين منا أن نقاضيه!؟ أعتقد أنك تتقاضين راتبك من هيئة الآثار الإيطالية المسؤولة عن المتحف. كم ألف يورو "مرتبك" في الشهر؟ عشرة آلاف أم أقل قليلًا أم ربما أكثر بكثير؟!

فهمت المغزى من السؤال فقالت:

- عملي في المتحف لا يجعلني أتغاضى عن مطالبته برد الآثار لبلدي، ومساعدتكم في ذلك إن احتاج الأمر.

- وطالما أنك تملكين كل هذه المحبة والانتماء لوطنك، لماذا لا تعملين فيه ليستفيد من خبرتك؟

- لا أفهم ما الداعي للالتفاف على الموضوع الأساسي الذي أنا هنا من أجله بمواضيع ثانوية.

- لأنك تنظرين للأمر من منظور ضيق. وفي الحقيقة، الأمر أكبر من ذلك بكثير. إنها علاقات واسعة وشؤون سياسية ودبلوماسية.

- من يستحق المحاكمة حقا هم جميع من فرط في أثر من هذه الآثار وجميع من تسببوا في التسيب والإهمال.

- منذ مئات السنين والآثار يتم نهبها وسرقتها، وتمنح وتوهب. فلا تعتقدي أن الأمور بمثل هذه السهولة!

عندما وجدت أنه لا طائل من الحديث معها قالت:

- على أي حال، أتمنى أن تأخذي كلامي على محمل الجد. وكما أخبرتك، أنا على أتم الاستعداد للمشاركة في أي شيء.

وهي تصافحها أضافت:

- بالرغم من أنني أعمل في متحف أوفيزي للفنون.

كان منتصر ينتظرها على الجانب الآخر من الطريق في سيارته التي صفعت بابها بعصبية بعد دخولها.

- لا يمكنني تصديق أن هناك استهتارًا بهذا الشكل! تخيل أنها أخذت تلقي عليّ باللوم لطلبي منهم استرداد الآثار المصرية من المتحف! لا أستطيع أن أفهم كيف تفكر!

كانت نبرة صوتها عالية عن المعتاد.

- هل يمكنك أن تهدئي؟ ولا تستغربي، هكذا تجري الأمور هنا. كل شيء معقد، وليس بمثل هذه السهولة التي تعتقدينها. تطرقين الباب، وتطلبين منها عقد لجنة لحصر الآثار هناك ورفع قضية لاستردادها!

أخذت تفكر في كلامه، فهدأت قليلًا. ربما كانت متحمسة أكثر من اللازم.

- سنمر على الفندق لإحضار حقيبة ملابسك، وسنتجه بعدها إلى الفيوم.

14

الإسكندرية القرن الأول الميلادي

حاولت بشتى الطرق جمع المعلومات. زوجها كان كتومًا لا يتحدث عن شؤون الحكم، وعن القوانين، والخطط والمؤامرات. حسّنت علاقتها به، واستعملت أسلحة المرأة في الإغواء والإغراء لتستدرجه في الحديث. كان ذكيًا، ولكنها كانت أكثر منه دهاءً.

وهو في حضنها أحيانًا كان يخبرها بكل شيء؛ بالخطط التي أعدت للثوار، وبالتجهيزات التي سوف تقضي عليهم، وبالجواسيس والخونة الذين وزعوهم بين صفوفهم. وأحيانًا، لم يكن يتحدث.

وحتّى لا ينكشف أمرها لم تنضم لاجتماعاتهم. كانت الأخبار التي تحصل عليها تخبرها لماديوس وهو يوصلها لهم.

لم تكن المعلومات التي يخبرها بها زوجها كافية، فحاولت الحصول على أخبار من جهات مختلفة. كان سكرتير زوجها يملك أَمَة جلبت عبر البحر أسيرة من البلطيق. كانت فاتنة وذكية ومتعلمة، أحبها كثيرًا إلى حد أنها كانت ترافقه في سهراته ورحلاته، ولم يستطع أن يفارقها لحظة.

التقت بها منذ فترة، وتعرفت عليها، وتحدثتا طويلًا، حكت لها فيه عن شعورها المرير لكونها عبدة بعد أن كانت حرة ومن أكبر العائلات، وأخبرتها عن كراهيتها الشديدة لهذا الرجل وهذه الحياة، وترجّتها أن تساعدها في الحصول على حريتها، وستكون مدينة لها بحياتها.

تألمت سيرينا يومها لدى سماعها حديثها، وشعرت بها لأنها تعاني المعاناة نفسها. فمنذ زواجها من ليوناردوز أصبحت واحدة من عبيد الإمبراطورية الرومانية، حيث كان عليها التخلي

عن كل ما لا يمت إلى هويتها بصلة، وأجبرت أن تترك عبادة الآلهة التي تؤمن بها وتعبد آلهة الرومان، هذه الآلهة التي تبغضها كثيرًا لأنها جبارة ومتعطشة دائمًا للدماء. فيومًا بعد آخر تذبح المئات من الثيران ومن الحيوانات المختلفة لتقدم قرابين لها. لم تكن كالآلهة المصرية والإغريقية الطيبة والقنوعة، بل متطلبة وجشعة. ولذلك، كانت تعبدها علانية دون أدنى يقين بها. وبينها وبين نفسها تعبد آلهتها وآلهة أجدادها.

أرسلت في جلب (قادين) فجاءتها متلهفة، وأخبرتها سيرينا أنها سوف تمنحها حريتها ولكن بشرط. فتلألأت عيناها.

- موافقة.

- لم أخبرك بالشرط بعد لتوافقي!

- موافقة على أي شيء مولاتي لأحصل على حريتي.

- حتّى وإن كان تنفيذ الشرط يمكنه أن يقضي على حياتك؟

- أي حياة هذه!؟ لم تعد هناك حياة منذ أصبحت عبدة! الموت أهون، لذلك يمكنني أن أضحّي بأي شيء في سبيل ذلك.

طلبت منها سيرينا أن تحاول الحصول على معلومات من سكرتير زوجها تخص الثورة والثوار. وأي شيء يجري أمام عينيها وتسمعه مهما كان بدا لها عديم الأهمية وله علاقة بهذا الموضوع فعليها أن تخبرها به. ووصتها بأن تكون ذكية حتّى لا يفتضح أمرها وتحصل على حريتها في أقرب وقت.

وأضافت

- أعتقد أن الأمر لن يمثل صعوبة بالنسبة لك، فسيدك كثير الثرثرة ولا يتوقف عن الحديث، ولا يعرف ما الذي تعنيه كلمة سر. يمكنك بسهولة أن تستدرجيه. ولكن، لا تفعلي ذلك بطريقة مباشرة حتّى لا يشك فيك.

وكان من الواضح أن حصولها على حريتها أهم من أي شيء آخر، فقد وافقت دون تردد أو تفكير.

- عندما تحصلين على معلومات مهمة، حاولي أن تجدي حجة مناسبة للقائي حتى لا ينكشف أمرنا.

غادرت بحماسة وهي سعيدة؛ فالحصول على معلومات من سيدها الثرثار ليس هناك أسهل منه. لم تكن في حاجة لاستدراجه
بذكاء. إذ كان يكفي أن تقول: "أحوال المدينة أصبحت فوضوية.
متى سوف تقضون على هذه الثورة وتسجنون هؤلاء الرعاع؟"
حتّى يحكي لها عن كل شيء، عن الخطط والمخططات، وعن أسماء الجواسيس وألاعيبهم، وعن الكهنة وولاة المدن والقرى الخونة الذين تحالفوا مع الرومان. يتجرع الشعير من جرة فخارية أكبر من حجم رأسه ويحكي، ويتجرع ويتجشأ ويحكي، فيدوّن عقلها كل حرف يلفظه
بدقة متناهية.

في إحدى الليالي، أخبرها بأن الإمبراطور الروماني بعث في جلب قوة هائلة بقيادة "افيديوس كاسيوس" قائد القوات الرومانية القادم من الشام ليسيطر على هذه الثورة التي فقدت القوات الموجودة في بر مصر وبحرها السيطرة عليها.

بفضل جواسيسنا الذين اندسوا بين الثوار، استطعنا أن نعلم أنهم يخططون لهجمة كبيرة بدخول الإسكندرية من ثلاثة منافذ مهمة. وعلمنا أيضًا موعد هذه الهجمة. ولذلك خططنا أن تأتي هذه القوة في توقيت الهجمة، على أن تحاصر الثوار من جميع المنافذ التي رتبوا الدخول منها. وبذلك، ستفشل خطتهم، ويتم القبض عليهم بسهولة، وسوف يلقون أقسى جزاء لمعاداتهم وتمرّدهم على الإمبراطورية الرومانية.

لم تنعس ليلتها. ومع الضوء الأول للنهار، وجدت طريقها لزيارة القصر، وحكت لسيرينا هذه الأخبار. وبدورها، ارتدت ثيابها على الفور، وذهبت للمكتبة للقاء أوناس، ومنحته لفافه بردي دونت عليها قادين أسماء جميع الجواسيس الذين اندسوا بين الثوار، وأيضًا أسماء بعض الكهنة والولاة الخونة.

بعدما اطلع على الأسماء، أجابها بصوت يملأه اليأس:

"كان شكي في محله. هذه الانقسامات والفرقة التي بدأت تظهر في صفوف الثوار وراءها شيء غير طبيعي".

"والآن، ماذا سوف تفعل؟"

- علينا أن نبكر بموعد الثورة قبل قدوم القوات الرومانية. هذا هو الحل الوحيد. ولكن، في الوقت ذاته، ما زلنا نجهز لهذه العملية، ولسنا مستعدين تمامًا لها. هي عملية مصيرية، وبنجاحها سنستطيع أن نقضي على حكم الرومان الظالم. أما بفشلها فسنعيش تحت إمرتهم وسنخضع أكثر. سنحاول بذل المزيد من الجهد. ولكن، أول شيء علينا فعله هو التخلص من هؤلاء الخونة. لا أستطيع أن أصدق انضمامهم للعدو! أتساءل عن الوعود والمنح والمزايا التي أغروهم بها ليبيعوا وطنهم؟

قالها وهو يهز ورقة البردي بعنف. ثم قام بسحقها بقوة وكأنه يسحقهم.

أجابته:

"هؤلاء الخيانة في عروقهم. هم ليسوا في حاجة إلى وعود باهرة. إنهم حيوانات مسعورة، سيكتفون بالعظام التي يلقيها إليهم أسيادهم".

15

كان التخلص من هذه الأسماء جميعها دفعة واحدة بالقتل مثار شك للقادة الرومان. إذ تأكدوا أن هناك واشيًا بينهم. وهناك شخص واحد كان يعلم بهذه الأسماء، وهو الذي خطط للدس بهم وسط الثوار؛ إنه سكرتير نائب الإمبراطور الذي جلبه من مرقده في منتصف الليل وحذره بأن يعلم شخصية الواشي وإلا سوف تتم إدانته بتهمة الخيانة الكبرى. أخذت ركبتا الرجل تتخبطان الواحدة بالأخرى، واصطكت أسنانه بعضها ببعض.

- امنحني يومين وسأكون قد توصلت لشخصية الواشي.

- يومان فقط، وفي الثالث ستحاكم.

كان يعلم أنه لا يوجد مجال للجدال. فعندما يقول في الثالث ستحاكم فمؤكد هو يعني ذلك.

أخذ يعصر رأسه ويفكر، من تراه فعلها!؟ ذهبت به الشكوك وجاءت، كان هناك اسم جاسوس لو تأكد أنه قتل ضمن مجموعة الجواسيس الذين قتلوا سيعلم من الواشي.

لذلك بعث أحد الحراس ليتأكد إذا كان هذا الشخص قد قتل. وبالرغم من أن معرفته بهوية الواشي ستنقذه من تهمة الخيانة العظمى، كان هناك شيء بداخله يتمنى أن يأتيه الحارس بخبر يفيد بعدم قتل هذا الشخص. إذ لم يكن يريد أن يعلم أنه كان على هذا القدر من السذاجة والغباء. ولكن خيّب الحارس أمله، وحمل إليه ما يؤكد غباءه وسذاجته عندما أخبره أن الجاسوس تم قتله. كان قد اتخذ قراره بزج هذا الجاسوس وسط الثوار قبل قتلهم بيوم، ولم يخبر سوى شخص واحد بهذا الأمر.

طلب من الخدم أن يجهزون له المركب. وطلب من قادين أن تجهز نفسها لأنهما سيذهبان في رحلة بحرية ليتمتعا بالطقس الجيد ويشاهدا الغروب وهما في حضن بعضهما.

سعدت لأنها ستنفرد به في طقس غرامي شاعري، وسوف يشرب الخمر كعادته دون توقف. وكلما شربه يصبح أكثر بوحًا، وينزلق لسانه دون توقف. وقتها ستحصل منه على المزيد من المعلومات.

تجملت وتعطرت وازدادت جمال وفتنة لتخبل لبه أكثر وتجعله لا يدرك خطورة ما يخبرها به. خرج المركب يقوده عدد قليل من المراكبية العبيد. وضع على الطاولة أمامهما صينية كبيرة عليها جميع صنوف الفاكهة وجرة نبيذ. جلست بجانبه، وأخذت تلقمه حبات العنب في فمه، الحبة بعد الحبة، وتصب النبيذ، وتجرعه إياه الكوب بعد الآخر. مدد جسده على مصطبة خشبية. وقبل الغروب بقليل، وصلا إلى عرض البحر وكانت الشمس على وشك الغوص فيه. ناداها بصوت خافت: "قادين".

- سيدي ومولاي.

- لماذا فعلت ذلك؟

داهمها سؤاله. لم تكن بحاجة للتفكير في ما يعنيه. إذ كانت نبرة صوته والطريقة التي ألقى بها السؤال كفيلتين بفهمها.

لجم لسانها.

أعاد عليها السؤال مرة أخرى بنبرة أكثر عنفًا، مضيفًا له كلمة "أجيبي". صرخ مرة بعد المرة: "لماذا؟ أجيبي". دوّت صرخته فأيقظت البحر الهادئ، فهاج على إثرها وماج موجة قوية رفعت المركب وقذفت به. ولولا مهارة المراكبية لكانت قد أغرقته.

- لأحصل على حريتي.

- كيف!؟ ما الذي تعنينه بحصولك على حريتك؟

- بحصولي على هذه المعلومات منك كنت سأحصل على حريتي.

- كيف تحصلين على حريتك؟ ومِن مَن؟ وأنا سيدك، أنا الذي أملك وحدي صكّ عتقك وحريتك.

لم ترد.

- لصالح من تعملين!؟

- لا أستطيع أن أجيبك. عندما سألتني: لماذا فعلت ذلك؟ أجبت لأنني أملك الحق في ذلك. ولكنني لا أملك الحق في إخبارك باسم هذا الشخص.

- لا تملكين الحق في إخباري باسم الشخص، ولكنك تملكين الحق في التجسس علي وفي استغفالي واللعب بي!!

صمتت، ولم تفتح فمها.

- من الأفضل أن تخبريني بكل شيء، وإلا فستكونين وجبة شهية للأسماك.

- أن أكون وجبة شهية للأسماك خير عندي من أن أكون وجبة شهية لك.

- ولكنك أيضًا ستخبريني بكل شيء.

أمر حارسه بشيء ما، فذهب وجاء ومعه عبد أسود طويل أصم وأبكم، ضخم البنية بشكل غريب، ملامحه أشبه بوحش. النظر إليه مرعب ومنفر.

أخرج من جيب سرواله حبلًا طويلًا علقت فيه مسامير، وشد رأسها من شعرها للخلف بيد، وفتح فاها على مصراعيه بيده الأخرى ومد فيه الحبل وأجبرها على بلعه. كلما أدخله وسحبه كانت روحها تذهب منها. شعرت أن أحشاءها تتمزق. لم تستطع أن تقاوم طويلًا وبصقت الدماء برفقة الكلمات معترفة بكل شيء.

أشار للعبد برأسه، ففهم العبد العملاق مغزى الإشارة، فحملها وألقى بها في البحر. غابت الشمس وراء البحر، وأخذت جثتها معها.

ضحك الرجل بشماتة وسخرية من رئيسه الذي عنفه وهدده بالأمس محذّرًا إياه إن لم يأته باسم الواشي فسيتهمه بتهمة الخيانة العظمى. والآن، ماذا ستكون ردة فعله عندما يعلم أن من خططت لذلك هي زوجته ربة الصون والعفاف؟ المرأة التي اختارها دونًا عن نبيلات روما جميعهن ليقترن اسمها باسمه، وتحمل شرف زوجة نائب الإمبراطور. ها هي تتآمر عليه مع أعدائه. وهو

الذي ترتعد أوصال أعتى الرجال وأكثرهم قوة وقسوة عند مجرد سماعهم اسمه جعلت منه أضحوكة.

أخذ يقهقه بسخرية وشماتة وحقد وكراهية حتى ظن الملاحون أنه سكر أو جن.

عندما وصل به المركب للبر كان الوقت لا يسمح بأن يطلب اجتماعًا عاجلًا يحضره الوالي وقاضي القضاة ونائب الإمبراطور وكبار سناتورات المدينة، حتّى يتسنى له أن يقف وسطهم ويخبرهم بأن الواشي هو "سيرينا زوجة نائب الإمبراطور وحاكم المدينة". كان يريد أن يتم ذلك في وضح النهار حتّى يستطيع أن يرى تعابير وجهه عندما يظهر أمامهم كمغفل كبير. ومؤكد سيقيلوه من منصبه، وربما يلقى تهمة الخيانة العظمى.

غلبه النوم بعد أن أرهقت الأفكار والتخيلات رأسه. وبدلًا من أن تصاحبه الأحلام الوردية في منامه مثلما رافقته في يقظته راوده كابوس فظيع استيقظ منه وهو لا يذكر الكثير من تفاصيله. غير أنه رأى نفسه يقبع في سجن مظلم وحيد. فطن لمعنى الكابوس، فسيرينا هي وحدها من ستلقى العقاب، وسيُعفى عن زوجها، ومن المحتمل أيضًا أن يواصل عمله. فالإمبراطور يحبه ويقدره، ووقتها لن يسامحه ليوناردوز على إفشاء أمر خطير مثل ذلك أمام الجميع، وسيدبر له عقوبة قاسية.

فكر كثيرًا، واقتنع أنه من الغباء أن يفعل ذلك في حين أنه يمكن أن يستغل ذلك الأمر لصالحه. كل ما عليه فعله هو أن يذهب إليه ويطلب لقاءه على انفراد واضعًا على وجهه ملامح التأثر. وبنبرة آسفة سيخبره بكل شيء، ويعده أنه لن يخبر أحدًا لأن في معرفة الأمر خطورة كبيرة على مقامه ومنصبه. وبذلك، سيحمل عليه ذلة كبيرة لا يستطيع معها أن يرفض له طلبًا.

في ظهيرة اليوم التالي، ذهب إلى القصر وطلب مقابلته على انفراد؛ لأن الأمر خطير. بقوامه الفارع وبنبرة معنفة قال له:

"هل عثرت على الواشي؟"

"نعم، لقد توصلت لمن فعل ذلك. وأعدك أن يكون الأمر سرًّا بيننا لأن في معرفة هوية الواشي خطورة كبيرة عليك وعلى حياتك ومنصبك".

تشنجت تلك العضلة بقوة في جبهته وهو يستمع إليه، ثم ما كان منه إلا أن صاح صيحة كبيرة رجّت على إثرها جدران القصر، وفزع منها جميع ساكنيه: العبيد، الخدم، الحرس، الوصيفات، العمال، الموظفون، الطهاة، البستانيون. وأخذوا يتساءلون عما حدث وهم يتمتمون بالتعاويذ والتمائم للآلهة لتذهب بالشر وتأتي بالخير.

هرول بساقين منفرجتين وبجسد يقطر غضبًا وبعينين يتطاير منهما الشرر. وكل من صادفه في هذه الساعة والأوان رُمِيَ بسهم من حممه. بحث عنها في كل مكان، ولا أثر لها. سأل الجارية الحبشية والوصيفة المصرية والخادمة الإغريقية عن سيدتهن. في أي ساعة شاهدنها؟ ومتى كان آخر توقيت لمحنها فيه؟ قلوبهن تدق كطبول أفريقية، وأعينهن مذعورة تكاد تغادر وجوههن، وأصواتهن مرتعشة كورقة شجر خريفية وهن يجبنه: "لا. لم نشاهدها".

لم يلمح أحد السيدة "سيرينا" إطلاقًا. فبعد أن تناولت إفطارها مع زوجها صباح ذلك اليوم لا وجود لها في أي مكان كانت تمامًا "كفص ملح ذاب".

26

مدينة الفيوم 2018

سيارة تركض بهما في طريق صحراوي على وقع موسيقى أغنية "وردة الصحراء"، وصوت ستينج ببحته المميزة. وفوقهما شمس متوهجة قوية. ورجل يجلس بجوارها له لون الصحراء وملامحها. كل شيء حولها جعلها تدخل في مزاج غريب لم تستطع تفسيره.

للمرة الأولى ترى روحها بوضوح تحت أشعة الشمس الساطعة. شعرت بها تمتطي جوادًا أسود يركض بها، يركض بسرعة، ويقطع بها سنوات عمرها، ويطوي في رمل الصحراء أحداثه البائسة.

عبرا البوابة الإلكترونية للمدينة، استقبلتهما يافطة كبيرة كتب فيها "مرحبًا بكم في مدينة الفيوم". شعرت أنها تعبر عتبة الماضي. هناك شيء ما بها، شيء ما مختلف، يحيلك لقرون قديمة للوراء، بالرغم من الحداثة التي تمتاز بها منطقة وسط المدينة. فنادق ومطاعم وطرق على أحدث طراز، ولكنها لا تمت للعصرية بصلة.

يقولون إن الأرض تحتفظ دائمًا بخطوات من عبروها. من حين لآخر، لو أنصتّ جيدًا يمكنك أن تتحرر من حاضرك، وستسمع وقع هذه الخطوات، وسيعبر أذنك صدى كلمات، وستشعر بوجودهم حولك.

استقبلهما موظف الاستقبال في الريزورت الذي قامت بالحجز فيه عبر الإنترنت بابتسامة واسعة، وسألها:

- هل تريدين شاليه بإطلالة على بحيرة قارون؟ أم الحدائق وحمام السباحة؟

- بالطبع البحيرة.

قادهما عامل "الشنط" إلى غرفتيهما. غرفتان أرضيتان "بتراس" يقود للحديقة التي توصل للبحيرة.

اعتذرت منه:

- سأحصل على حمام سريع، ثم أبدل ملابسي لنذهب.

- حسنًا، سأنتظرك في البهو.

وهي تحت الماء، تذكرت قلقها ومخاوفها قبل المجيء إلى هنا، كل ذلك زال بمجرد اجتيازها بوابة المطار. وجود منتصر معها يشعرها بالأمان والراحة. فهو شخصية مريحة، لا يتحدث كثيرًا، وفي الغالب يستعمل الإيماءات الجسدية والتعبيرية بدلًا من الرد.

يهز رأسه يمينًا وشمالًا بالنفي، ويحركه للأمام بالإيجاب، ويرفع حاجبيه تعبيرًا عن الامتعاض والاشمئزاز... وعلى هذا المنوال. كانت هذه لغته الأخرى. فكرت أن ذلك مؤكد يرجع لمهنته في سيكولوجية الجسد.

كان الطقس شديد الحرارة، فرفعت شعرها كذيل حصان. ارتدت "تيشرت" أبيض وبنطلون جينز وحذاء رياضيًا، وعلقت الشنطة على ظهرها.

كان الدليل ينتظرهما بسيارة دفع رباعية.

- سوف نذهب أولًا لزيارة قصر قارون.

على مرمى البصر حولهم، كانت سواقي الهدير في كل مكان. وهي آلة ريّ قديمة تدور بقوة دفع المياه من الهدارات. وهي تعمل طوال العام، وتصنع من خشب الشجر المحلي.

- جميلة هذه السواقي.

- توجد بالفيوم حوالى 200 ساقية منتشرة في الحقول على المجاري المائية في مواقع الهدارات، ولا يوجد هذا النوع من السواقي في مصر إلا في الفيوم.

فتحت الخريطة التي بحوزتها، ثم أشارت على مجرى مائي.

- هل هذا بحر يوسف؟

- نعم. أثناء حكم فرعون مصر امنمحات الثاني، تم تحويل قناة من مجرى النيل إلى تلك المنطقة المنخفضة بالفيوم (نحو 100 كيلومتر جنوب غرب القاهرة) بغرض مد الزراعة إليها، وتخزين الماء المتوفر من فيضان النيل واستغلاله. تنتهي هذه القناة في بحيرة قارون التي يقع مستواها على ارتفاع -45 متر من سطح البحر.

وقد سمي هذا البحر "بحر يوسف" بعد الفتح الإسلامي لمصر، تذكرة بالنبي يوسف عليه السلام؛ حيث كان وزيرًا على مصر في فترة قحط.

بعدها، توقف بهما أمام بناء في منتصف الصحراء. بناء كبير تظهر فيه بوضوح سمات العمارة المصرية القديمة، وامتزاجها بالعمارة اليونانية والرومانية.

من الواضح أن الدليل حاول بشتى الطرق بذل قصارى جهده بعد أن عرفه بها منتصر "بخبيرة الفنون".

- معبد قصر قارون كما يذكر في المصادر الأثرية هو معبد من العصر اليوناني الروماني، وخصص لعبادة الإله سوبك وإله يسمى "ديونيسيوس"؛ وهو إله الخمر والحب "عند الرومان". بعد الفتح الإسلامي تبدل اسمه لقصر قارون لوجوده بالقرب من بحيرة قارون؛ وهي البقية الباقية من بحيرة موريس في مصر القديمة، ولكن تبدل اسمها في العصور التي تلته "لقرون" لوفرة القرون والخلجان بها. ومع الوقت تحرفت لبحيرة قارون.

كما تريان، يمتاز المعبد بعدد كبير من الحجرات، يصل قرابة مئة حجرة، وكانت تستخدم لتخزين الغلال واستخدامات كهنة المعبد في هذا الوقت.

غالبًا كان قد اكتفى بقول هذه المعلومات. أضافت وهي تقف في منتصف باحة المعبد:

- إحدى الدراسات الحديثة أكدت تعامد الشمس على معبد قصر قارون في يوم 21 ديسمبر من كل عام، وتم تشكيل لجنة من علماء الآثار أكدت ما جاء بالدراسة، وأن الشمس تتعامد على قدس

الأقداس بالمعبد في هذا التوقيت، ويستمر التعامد حوالى 25 دقيقة.

وهذا القصر العظيم كان يملكه شخص يدعى قارون؛ أغنى رجل في زمانه. وهناك أقاويل بأن البحيرة القريبة من قصره سميت على اسمه، وأن أصوله مدفونة هنا.

ابتسم الدليل عندما سمع منها هذه المعلومات التي لم يكن يعرفها. وكعادة منتصر، أكتفى بهز رأسه تعبيرًا عن أن هذه المعلومات أعجبته.

ذهبا بعدها لهرم هوارة الذي يقع بقرية هوارة على بعد 9 كم جنوب شرق مدينة الفيوم. كان هرمًا صغيرًا مقارنة بأهرامات الجيزة.

للوهلة الأولى، لا يبدو مثل هرم، بل بنية قديمة مبنية من الكتل الحجرية.

- هرم هوارة تم بناؤه من قبل أمنمحات الثالث؛ وهو الفرعون السادس من الأسرة الثانية عشرة في مصر القديمة. بني من الطوب اللبن ثم كسي من الخارج بالحجر الجيري، ويبلغ ارتفاعه 58 مترًا، وطول كل ضلع 100 متر.

انتظرت أن يستكمل معلوماته، ولكن من الواضح أنه اكتفى بهذا القدر من المعرفة، فأضافت:

- عالم الأثار بتري كوين استطاع عام 1889 دخول الهرم، والوصول إلى حجرة الدفن التي تتكون من كتلة واحدة ضخمة من الحجر الكوارتسيت، ويصل وزنها إلى 110 أطنان، وليس لها باب. واكتشف أن اللصوص تمكنوا من الوصول إليها عن طريق فتحة في السقف ونهبوا أهم ما فيها.

تمشيا في المنطقة الصحراوية المحيطة بالهرم، وكانت تضم مجموعة من الآثار، منها مقبرة الأميرة نفرو بتاح وبقايا قصر اللابرنت وجبّانات من العصر المتأخر.

توقفت أمام الجبّانات. كانت تتراص الواحدة إلى جنب الأخرى مبنية على الطراز الإغريقي، وهناك درج صخري يقود لباطن الأرض حيث غرف الدفن. هذه الجبّانات تم العثور فيها على مجموعة كبيرة من مومياوات الفيوم.

هنا سكنت تلك الوجوه. هنا، في هذه المدينة، وعلى مقربة منها عاشوا بآمالهم وأحلامهم، بأحزانهم وعذاباتهم. انتابها شعور غريب عندما وقفت في المكان الذي تم العثور عليهم فيه. قادها لمزاج لم تحدد تفسيره أولئك الشخوص الذين تعكف مجموعة من أمهر وأكبر خبراء العالم ومؤرخيه في البحث عنهم، والذين ذهبوا وذهبت معهم أسرارهم، كانوا في زمن سابق هنا.

لاحظ منتصر الوجوم الذي ظهر عليها ولم يفهم سببه. وفي واقع الأمر هي نفسها لم تفهم.

- لنكتفِ بهذا القدر. يظهر عليك الإرهاق.

- اليوم كان طويلًا وشاقًا، بالإضافة لحرارة الطقس.

قبل أن تدخل غرفتها قال لها:

- في المساء هناك حفلات سفاري للصحراء. عشاء تحت ضوء القمر، رقص وغناء، ما رأيك؟

- لنذهب.

- في السابعة إذًا نلتقي.

كان كل شيء جميلًا هذا المساء وسط الصحراء. إضاءة خافتة من عدد كبير من الشموع المتراصة الواحدة بجوار الأخرى على الأرض. رائحة الجو عبقة بشواء الظبي. موسيقى ودندنات لمغني له صوت شجي يردد أغاني من الفولكور البدوي.

نسمات باردة من الهواء تعبرهما، بينما النجوم تزين السماء كحليّ. تركت شعرها الغجري وراءها، وارتدت تنورة واسعة بنقوش مزخرفة غزلت من خيط الكانفاه وكنزة أرجوانية. جلسا على وسائد على الأرض موضوعة على أبسطة من الصوف المغزول على الأنوال. يغمره عطرها الأخاذ الذي يفوح مع النسيم في الهواء، فيجذبه أكثر
إليها.

بعد أن انتهى المطرب من وصلته الغنائية، ذهب للمشرف على الموسيقى بالسهرة، وأعطاه أسطوانة وطلب منه تشغيلها. كانت الموسيقى عبارة عن طبول أفريقية، دقات بدأت خافتة، ثم أخذت

في القوة شيئًا، فشيئًا. خلع القميص الذي يرتديه، فظهرت عضلات صدره وساعديه، ووشم على هيئة تنين يزين كتفه. وتدلت من صدره "دلاية" من العاج لسن فيل. شرع في الرقص على وقع الطبول. يدق الأرض بقوة متنقلًا في جميع أنحاء المكان بحركات رشيقة منسابة وسريعة. كأن الأنغام تدفعه. وكمن يريد أن يتحرر وينعتق من جسده، يرقص بحرية غير مبالٍ بشيء من حوله. اقترب منها، ومد يده إليها فترددت، فشدها بقوة. في البداية، كانت تقلده مرتبكة بحركاته. وبعدها، ودون أن تدري وجدت نفسها ترقص دون توقف؛ وكأن هناك قوى أخرى هي التي تقوم بذلك تاركة العنان لجسدها ولروحها. من حين لآخر، يتوقف عن الرقص مطلقًا صيحات وحشية، وذلك كان يدفعها للرقص أكثر وأكثر. ثم تركا نفسيهما يقعان على الأرض متهدجي الأنفاس من شدة الإنهاك. حياهما الحاضرون بالتصفيق والصفير.

- لم أرقص أبدًا في حياتي بهذا الشكل.

- إنها رقصة للتنفيس عن النفس، تحفز الشقرة الأولى المسؤولة عن السعادة والحيوية. اعتدت أن أمارسها من حين لآخر لإيقاظ الكوانداليني.

لم تعرف ما هي الشقرة التي يتحدث عنها، ولم تفهم ما هو الكونداليني، ولم تحاول أن تسأل. اكتفت بالابتسام.

- أي نوع من الرقص تمارسين؟

أجابته وهي تلهو بعصا رفيعة في الرمال:

- لا أذكر أني رقصت يومًا.

أجابها مستعملًا لغة جسده التي يجيدها معبرًا عن استغرابه.

- عشت طفولة ومراهقة مريعتين. لم أمارس ما تمارسه الفتيات من لعب وضحك وركض ورقص وغناء. كنت منكبة ليل نهار على الاستذكار. حتّى في الإجازة الصيفية، كنت أذاكر دروس منهج العام القادم، وذلك كله للهروب من وصمة.

ردد مستغربًا:

- وصمة؟!

- وصمة لا علاقة لي بها. ولا علاقة حتى لصاحبها بها. كتهمة ملفقة.

- هل أستأذنك بمعرفة هذه التهمة؟

- ربما في وقت آخر. لا داعي لذلك الآن لأنه سيجلب عليّ ذكريات سيئة، وأريد الاستمتاع بهذا الجو.

أضافت بعد أن تنفست بعمق، وأخيرًا رفعت نظرها ليواجه نظره:

- لا أحب التحدث عن ذلك أبدًا. ولكن هذه الرقصة، لا أعرف تحديدًا ماذا فعلت بي!

- سأخبرك بما فعلته بك. عندما كنت تدكين وتضربين الأرض بقدمك بقوة، كان جسدك كله يتحرك وينتفض، وفي منطقة ما داخل عقلك وروحك تخبئين ذكريات مؤلمة. هذه الذكريات أثناء رقصك كنت ترجّينها رجًا بقوة وعنف، فاهتزت وتخلخلت وأصبحت على وشك الانهيار، وأصبحت قادرة على مواجهتها وذكرها. وبالتصريح بها سوف تتخلصين من ثقلها عليك.

ضحكت بسخرية:

- أهكذا بمنتهى السهولة!؟ لو كان هذا ما يحدث فعلًا لكان البشر جميعهم مارسوا هذه الرقصة ليتخلصوا من ذكرياتهم، وليصبح الجميع بلا ذكريات مؤلمة.

- لم أقل ذلك. لم أقل تتخلصي منها للأبد. ولكنها أصبحت مخلخلة وهشة، وفقدت جزءًا كبيرًا من قوتها المؤثرة عليك. وعندما تصرحين بها مرة بعد أخرى سيقل تأثيرها ولن تسبب لك ألمًا أو حزنًا.

أجابته بدون اقتناع:

- ربما.

رن هاتفها برقم من مصر فاستغربت. فمن ممكن أن يطلبها في هذا التوقيت؟

- ألو.

مضت ثوانٍ حتّى أجاب المتصل قائلًا:

- من الواضح أنك تسهرين برفقة المومياوات، أسمع صوت موسيقى وثرثرة ومرحًا وضحكات.

خفق قلبها بقوة.

- ليس برفقتها تمامًا، ولكن في مكان عاش أصحابها فيه، ولطالما داسوا عليه مرارًا وتكرارًا.

- كنت محرجًا من الاتصال بك في هذا الوقت المتأخر ظنًّا مني أنك نائمة، وها أنت تمرحين.

- متى جئت؟

- وصلت منذ حوالى ساعتين. هل أسفرت رحلتك عن شيء؟

- لا، مجرد أطلال تحيط بي من كل مكان. أطلال مدن ضائعة.

- جميل. هذه العبارة "أطلال مدن ضائعة" تصلح عنوانًا لرواية.

كانت تفكر في ما قاله لها عندما قطع تفكيرها بسؤال:

- متى سوف تعودين؟

- غدًا.

- سنتحدث مرة أخرى لتحديد موعد لقاء. تصبحين على خير.

كعادتها بعد أن أغلقت الهاتف معه، ظلت مسمرة لفترة.

- من المتحدث؟

فاجأها السؤال، فللمرة الأولى يسألها أحدهم عنه. تحيّرت بماذا تجيبه؟ حبيب، صديق، عميل؟

- إنه صديق.

- أتعلمين أن الكلمات كاذبة. الجسد شفاف، وجسدك منذ أن سمعت صوته يصدر حركات تكشف على أنك مغرمة به.

نظر مباشرة في عينيها:

- أليس كذلك!؟

- ربما.

- ألم أخبرك منذ قليل أن الكلمات كاذبة؟ ها أنت تستعملين تعبيرًا مضللًا.

تبدلت ملامحه، وظهر عليه بعض الضيق، فرجحت أنه ربما بسبب الغيرة، وتساءلت: هل ممكن أن يكون قد أحبها بهذه السرعة!؟ ضحكت بسخرية عندما تذكرت أنها أحبت "يزن" من أول نظرة. لا، لم يكن حبًّا من أول نظرة، لأنها لم تحبه عندما التقت نظراتهما. كان يقف أمام اللوحة، مستقيم الظهر، ممشوق القوام، عريض الكتفين، متأنقًا في سترة زرقاء بأزرار ذهبية، وشعره الأبيض يتوج رأسه كإكليل. وقف وقتًا طويلًا أمام لوحة "النعم الثلاثة" لرافائيل التي كانت في واقع الأمر مغرمة بها، وفي رأيها، إنها أجمل ما رسم. وقفت خلفه تنتظر أن يدير رأسه. وعندما أطال الوقوف لدرجة نفد معها صبرها اقتربت منه وسألته:

- هل يمكنني مساعدتك؟

هنا فقط استدار لتجد في مواجهتها رجلًا أوسم بكثير مما توقعت. كان يكفي أن ينظر إليها ويتحدث بصوته الذي يشوبه القليل من بحة لتقع في غرامه.

فترة وجيزة غاب فيها عنها لتدخين سيجارة والدردشة مع أحد الموجودين. وعندما عاد كان قد رجع لطبيعته.

- هل يمكن أن نذهب؟

- قبل تناول العشاء؟

- أنا لا أتعشّى.

- ولكنني أفعل. وفي الواقع، لا أستطيع أن أضحي بمأدبة مثل هذه. رائحة اللحم المشوي فتحت شهيتي.

ابتسمت.

- يمكنك أن تتعشى أنت.

- سأذهب لأحضر طبقًا لي.

مشى خطوتين، ثم نظر خلفه وفتح يده دائرة على شكل طبق، وعمل كما لو أنه يأكل منه، ثم أشار لها بعلامة الإعجاب مع غمزة بعينه اليسرى.

كانت هذه الحركات المشفرة تعني أن الطعام سيكون شهيًّا، أمتأكدة أنك لا تريدين!؟ استعملت هي أيضًا إحدى طرقه في التعبير، فهزت رأسها بما يفيد "لا".

16

الإسكندرية، القرن الأول بعد الميلاد

استطاعت سيرينا أن تنجو من مصير أسود محتوم كان ينتظرها في تلك الساعة بفضل أحد ملاحي المركب الذي سمع وشاهد كل ما حدث لقادين. فلأنه كان مواليًا للثوار، ذهب مسرعًا بعد وصولهم للميناء ليخبر شخصًا يعرفه ضمن مجموعة أوناس. فبعث لها مرسالًا بأن تغادر القصر فورًا، وتذهب لتلتقيه في قمة الفنار، وأخبرها أن تكون حذرة بألا يتبعها أحد لأن أمرها انكشف.

كانت تعلم أن الخروج من القصر سيكون بلا عودة، فجمعت أغراضها المهمة وصرتها في زكيبة، ثم ارتدت ثوب خادمتها الحبشية، وتسللت من الأبواب الخلفية للقصر التي تقود لزقاق جانبي.

سارت بحذر، وهي لا ترفع وجهها حتى لا يلمحها أحد. وعندما وصلت إلى الفنار صعدت درجاته الحلزونية المرتفعة بسرعة، فخفق قلبها بسرعة كاد معها أن يتوقف. كان في انتظارها. عندما رأته ألقت بنفسها عليه، وبأنفاس متقطعة سألته:

"ما الذي حدث؟ أخبرني، كيف علموا بأمرنا؟"

فربت على ظهرها:

"اهدئي. لا داعي للكلام الآن".

حاولت أن تهدئ روعها. تطلّعت للمشهد أمامها، البحر يحضن المدينة، وتبدو المباني والسفن من هذا الارتفاع غاية في الضآلة، والبشر يبدون أقزامًا. وعلى مرمى النظر هناك، كانت تستطيع أن ترى أثينا. في هذا المكان هي محاطة بأعظم وأهم مدينتين وحضارتين في العالم. لا

داعي للخوف إذًا! فلتهدأ وليذهب الرومان للجحيم. لا يهم أي شيء. لا يهم المصير الذي ستذهب إليه طالما أنها فعلت ذلك نصرة لهما.

"سننتظر حتّى تغيب الشمس، ثم سنذهب لكاهن معبد "سوبك". ستمكثين عنده حتّى نرى ما سوف يحدث.

غدًا موعد ثورتنا الكبرى. إن نجحت فأنت باقية هنا، وإن فشلت فسنذهب إلى ممفيس أو ارسينيوي لأن وجودنا هنا سيمثل خطورة كبيرة علينا".

كان يتحدث وهو يتطلع للأفق البعيد، حيث تشكل الغيمات في السماء لوحة سيريالية تظهر فيها كل وجوه الراحلين، كل من لقوا مصيرهم في الثورة، وكل من رسم وجوههم على المومياوات. يبدون سعداء ومبتسمين. ربما وجدوا هناك عالمًا مختلفًا، عالمًا أكثر عذوبة وهدوءًا.

قامت الثورة. خرج الثوار وصفوف الشعب يحملون مشاعل النيران. الشباب والنساء والشيوخ والأطفال يصيحون: "يسقط حكم الرومان". كانت صيحاتهم ترج المدينة وتوقظ البحر والآلهة والرياح من غفوتها.

ارتبك النظام الروماني الذي كان ينتظر المدد والقوة التي بعث بها الإمبراطور، ولكن الثوار بادروهم وخرجوا ثائرين ممتلئين بالغضب والحماسة والقوة؛ فلسنوات عوملوا بظلم ومهانة، وكانوا يتقبلونهما على امتعاض وغضب، مهانة وراء مهانة، ومذلة وراء مذلة، حتى فاض الكيل وطفح. لذلك، كانت أصوات أقدامهم وقوتها تدكّ الأرض وترجّها رجًّا.

ولأنه كان نظامًا وحشيًا وقاسيًا، فالفكرة التي طرأت على بال قاضي القضاة وافق عليها أعضاء المجلس البرلماني على الفور، دون تفكير في الأخطار التي من الممكن أن تنتج عنها. في اعتقادهم، أن مَن خرجوا للثورة رعاع من المصريين والإغريق، والتخلص منهم لن يمثل أدنى مشكلة. هم لا يريدونهم هنا، لا يريدونهم بينهم، لا يريدون أصحاب الأرض، أصحاب الوطن. غرورهم وجبروتهم لم يجعلاهم يصدقون ما يرونه أمامهم؛ وهو أن من خرج للثورة هو الشعب بأكمله.

انتظروا حتّى وصل الثوار وتجمّعوا مع الجماهير الغفيرة في الميدان، ثم أطلقوا عليهم الوحوش المفترسة. وحوش كاسرة جائعة. فكان زئير الأسود وضرضرة النمور وعواء الذئاب وغطيط الفهود كفيلة بأن تجعل القلوب تتوقف رعبًا. تحول الميدان لبركان من الدماء، لحوم منهوشة، ورؤوس مقطوعة، وأمعاء متفسخة متناثرة. من هرب سليمًا فقد نجا بأعجوبة، ومن نهشت ذراعه أو ساقه فسيعيش عمره بعاهته، بينما كثيرون انتهوا وجبة دسمة للحيوانات المفترسة.

وهكذا، استطاع الرومان القضاء على الثورة. ليس بقوتهم أو ذكائهم وشجاعتهم؛ إذ لم يحاولوا أن يقابلوهم وجهًا لوجه، بل كانوا أكثر جبنًا من ذلك. أكثر جبنًا من مواجهة الحق، وأضعف من أن يستطيعوا أن يخمدوا حماسه، ولذلك لجأوا لخطة قذرة.

وصلها نبأ فشل الثورة، وعلمت الفعلة الشنعاء التي استخدمها الرومان، وكيف تخلصوا من عدد كبير من الثوار والأبرياء من أفراد الشعب.

فكرت في أوناس. ترى، ما الذي حدث له؟ دعت وتضرعت للآلهة أن لا يكون قد أصابه مكروه، وأخذت تفكر في مصيرها. هل ستستطيع أن تنجو من هذا الرجل وهي تعلم كم هو عدواني وعنيد ولن يتركها تنجو بفعلتها؟ تكومت على نفسها بجوار الجدار. كانت أصوات ترانيم الكهنة الهادئة تصل إليها، تهدهدها وتهدئها، فاستسلمت لغفوة استيقظت منها على يد تهزها وهي تناديها بصوت خافت. وعندما فتحت عينيها، تساءلت هل هي تحلم أم من تراه أمامها فعلًا هو أوناس؟ هللت أساريرها، وابتسمت روحها، وشكرت الآلهة لأنها سمعت دعاءها وحفظت روحه.

"هيّا، لا نملك الكثير من الوقت. سوف نتحرك مع وفد الكهنة في رحلتهم "الارسنييوي". ولكن، عليك التخفي في هذا الرداء، ويؤسفني أن أخبرك أنك يجب أن تحلقي رأسك".

وضعت يدها على شعرها:

"لكن..."

"ليس هناك لكن! هذه هي الطريقة الوحيدة التي سنستطيع بها أن ننجو بأرواحنا. يجب أن نخرج وسط كهنة معبد الإله سوبك، وسط جماعة الحجاج للذهاب لمدينة ارسنييوي. سوف يخرج الموكب عند انتصاف الليل، وسنندس بينهم، ضمن أعضاء المعبد. ويجب أن لا نختلف عن

مظهرهم. يمكن لشعرك أن ينبت مجددًا، ولكن روحك لن تعود إن أزهقها هؤلاء الوحوش. إن ما رأيته اليوم شيء تقشعر له الأبدان. أغلب الموتى ماتوا رعبًا؛ إذ توقف النبض في عروقهم قبل أن تفتك بهم الحيوانات المفترسة. لم تتحمل قلوبهم ولا أرواحهم. سيرينا، صدقيني لن تنجي بفعلتك، وسينزلون بك أقسى عقاب؛ لذلك افعلي ما أخبرك به".

امتثلت لأوامره، ووقفت تحت يد الكاهن الذي قص لها شعرها بموس حاد. بعدها، وشمها بثلاث علامات تشبه رقم 1، وهي علامة كهنة معبد الإله سوبك. وعندما ارتدت العباءة المخصصة لكهنة المعبد، كان من الصعب وقتها التعرف عليها أو الشك في أنها امرأة.

تخفّى أيضًا أوناس وعدد من الثوار الناجين في عباءات الكهنة، وحلقوا رؤوسهم، وخرجوا ليلًا يحملون فوانيس الزيت والقليل من الزاد، يسيرون الواحد بعد الآخر في طابور طويل في رحلة الذهاب للحج.

17

الصحراء، القرن الأول بعد الميلاد

سلكوا الطريق البري الذي يصل بين إقليم الفيوم ومدينة الإسكندرية، وهو طريق يستخدم في نقل البضائع من الفيوم ومحافظات الصعيد إلى ميناء الإسكندرية، ومنها إلى أوروبا.

قبل خروجهم من المدينة، لم يسلم الموكب من حملات التفتيش التي شنتها الحكومة الرومانية. استوقفهم الكثير من اللجان التي نصبت كمائنها في مداخل المدن ومخارجها وعند نواصي الطرق ومفارقها.

كبير الكهنة كان يقود المجموعة ويتقدم الصف. ثوبه يخفق مع الريح، وصولجانه منحوت على هيئة الإله سوبك. هو من يتم سؤاله من قبل الضباط الرومان. وكان مظهره يمنح الانطباع بالثقة والراحة، ورائحة البخور التي تنبعث منه تبعث على السكينة والاطمئنان. بالإضافة لمظهر الكاهن المطمئن، كان هذا الموكب لكهنة معبد الإله سوبك؛ الإله الذي يخشاه الرومان كثيرًا لأنه إله الشر. لذا، كان الكاهن يخبرهم أنهم في طريقهم للحج له ولتقديم القرابين والصلاة والابتهال؛ فمؤكد أنّ ما حدث نتيجة أن الإله "سوبك" يشعر بالغضب الشديد، ولن تستقر أحوال البلاد حتى يرضى عنهم. وعندما كان يرى الجنود والضباط نقش الإله سوبك على عباءات الكهنة والحجاج، والذي يمثله جسد لإنسان ورأس لتمساح يحمل في يد مفتاح الحياة وفي الأخرى صولجان الواس، يثقون بهم ويسمحون لهم بالمرور، داعين لهم بسلامة الوصول.

كان الاتفاق بينهم عندما تقابلهم لجان التفتيش أن يقوموا بالنظر أرضًا، وألا يرفعوا نظرهم أبدًا، وألا يتوقفوا عن التمتمة بالترانيم ليظهروا أنهم مندمجون في صلواتهم ومتأملون في دواخلهم...

هم في عالم آخر، عالم بعيد عن عالمنا المادي؛ عالم بعيد عن الثورات وعن المطالب وعن الصياح والقتل الوحشي.

كان الظلام أيضًا حليفهم في هذه الليلة التي غاب فيها القمر عن السماء، وكان ضوء قنديل الزيت الخافت الذي يحمله بعض الخدام لا يكشف عن ملامحهم بل يزيدها تشويشًا.

بعد أن مروا بسلام أمام جميع لجان التفتيش، وعبروا الحدود واتخذوا طريقهم في الصحراء الشاسعة، استطاعوا أن يتجردوا من الوضع المتزمت الذي بقوا فيه لساعات طويلة.

وهم على بعد عدة كيلومترات فاحت رائحة شواء في الهواء. في البداية، لم يفهم أحد من أين تأتي. لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لمعرفة أن هذه روائح حرق جثث ضحايا الثورة؛ إذ لم يجدوا طريقة ليتخلصوا من هذا الكم من الجثث سوى بإشعال النار فيها. ولأن حركة الريح كانت شديدة، والحرارة عالية، ملأت الرائحة المكان.

بنبرة حزينة قال أوناس: "إن كانت هذه الرائحة التي تثير الغثيان تصل إلينا بهذه القوة ونحن على بعد كل هذه المسافة، فما بالكم بالذين هناك في الإسكندرية؟

- ليتها تتوقف عند الغثيان فقط. أفكر في كل أم مكلومة، وكل أب، وكل زوجة، وكل شخص فقد عزيزًا في هذه الثورة ويشم هذه الرائحة؛ رائحة شواء لحمه. فما الذي يمكنه أن يفعله ذلك فيه!؟

- لماذا لم يرموها في البحر؟

بنبرة سخرية أجاب أحدهم:

"يرمونها في البحر! أنسيت أن القنوات والترع بالمدينة تختلط مياهها أحيانًا بمياه البحر؟ وبهذه الطريقة سيشرب الرومان ماء ملوثًا وتصيبهم الكوليرا. هل تعتقد أنهم ساذجون ليفعلوا ذلك بأنفسهم؟

قال أوناس بنبرة متأثرة:

"لا أعرف. هل كان من الغباء منا التخطيط والقيام بثورة ضد هذا العدو الوحشي؟ هل تسرّعنا ولم نحسبها جيدًّا؟ هل نحن السبب في أننا قدنا أولئك الرجال والشباب إلى التهلكة؟"

"هوّن عليك يا أخي. لقد فعلنا ما أملته علينا ضمائرنا. هذه الثورة اعتراض على الحكم القاسي والظالم للرومان؛ هذا الحكم الذي يكرهه ويمقته جميع أهل مصر وشعبها. نحن لم نفعل ذلك طمعًا في مكاسب عظيمة، أو للاستفراد بالحكم، بل كل ما كنا نريده هو أن يرضخ الرومان لمطالب الثوار التي تتلخص في العدل والمساواة وعدم فرض ضرائب باهظة. إنها أبسط حقوقنا".

صوت آخر:

"ما الذي ننتظره من أبناء مدينة روما التي بناها التوأم رومولوس وريموس اللذان ألقتهما أمهما الأميرة سيلفيا في النهر خشية عليهما من الملك اموليوس الذي استولى على عرشها، فعثرت عليهما ذئبة برية متوحشة وأرضعتهما حتى كبرا؟!"

توقفوا عن الحديث بعدها. إذ لم يكن هناك ما يقال. من حين لآخر، يرتفع صوت كبير الكهنة بالدعاء والتضرع. وكان صوته يبعث في النفس سلامًا روحيًّا أعانهم كثيرًا في مواصلة رحلتهم في ظل تلك الظروف القاسية التي يمرون بها.

الأيام تتعاقب ببطء، المسافة طويلة، أقدامهم تترك في الرمال أثر حلزون في الرمل المتوهج، والشمس فوق رؤوسهم ملتهبة تضغط الحرارة أكثر على الصحراء، حابسة الحرارة داخلها مثل غطاء فوق قدر طبخ.

كان ضوء أول المساء الذهبي ينير عينيها، وكأن الشمس تطوّقها، فتتذكر قصص الملكات الإغريقيات التي كان أبوها يحكيها لها عنهن؛ أولئك اللاتي تبعثرن في العالم، وأصبحن خادمات وجواري وغانيات بعد أن كن ملكات وأميرات يصدرن الأوامر في البلاط، ويتقدّمن المواكب الملكية في الحفلات، ويقفن بفخر عند تنصيب أزواجهن.

هل أصبح مصيرها مثل مصير أولئك النسوة؟ التبعثر في الأرض! ولكن، لا يهم. فأي مصير سيكون أرحم من مصيرها بالعيش مع ذلك الرجل القاسي.

في غضون أيام، وبعد رحلة مضنية تحت شمس الصحراء القائظة، وصلوا إلى المدينة، فخرج الأهالي بالورود لاستقبال موكب الحجاج القادم من الإسكندرية. شعر أوناس بالفخر، وكأن القدر حاول أن يعوضه؛ فها هم أهالي المدينة يخرجون لاستقبالهم بالورود. صحيح أنهم لا يعرفون

أنهم من قاموا بالثورة هناك في المدينة البعيدة، ولكن المؤكد أنهم لو عرفوا الحقيقة، لكانوا ضاعفوا الاحتفاء بهم، ولطوّقوهم بباقات الورود والفل والياسمين، وعانقوهم وقبّلوا أطراف عباءتهم.

أول ما فعلته هو أنها ذهبت للحمام الروماني العام. دفعت اس واحد قيمة دخوله، وألقت بنفسها في المغطس بعد أن فركت جسدها باللوف والصابون. لطالما حلمت وهي تسير تحت الشمس القائظة بالماء البارد ينزل على جسدها، ويأخذ معه جميع ما علق بها في الطريق من عرق وأتربة، وبيد جاريتها الحبشية تدلكها وتسكن أوجاعها وآلامها جراء المشي بالصحراء قائظة لعدة أيام، وبعدها تجد مائدة عامرة بغذاء شهي في انتظارها؛ فطوال الأيام الماضية كان غذاؤها قطعًا من الخبز المغموس في زيت زيتون.

28

الفيوم 2018

في صباح اليوم التالي، وجدا الدليل ينتظرهما. في الطريق، أخبرهما أنه سيذهب بهما لزيارة أثر ساحر.

- إنها مدينة كرانيس الأثرية بمنطقة كوم أوشيم. تقع على طريق القاهرة الفيوم عند الكيلو 70. وهي إحدى القرى "اليونانية- الرومانية" التي أنشأها بطليموس الثاني، واشتهرت بعدة مناطق، منها المنطقة الملكية. وكانت واحدة من أهم المناطق الخصبة في مصر وهي الفيوم، يزرع بها القمح والشعير والبلح والزيتون والفواكه بكثرة.

كان الدليل يتحدث بحماسة شديدة، كما لو أنهم في طريقهم لزيارة مدينة مأهولة بالسكان وبالحياة والصخب. سوف يرون فيها مجموعة مختلطة من أجناس مصرية وإغريقية ورومانية، بملامح مختلفة، وملابس مختلفة، ولغات مختلفة. الرومان لم يتخلوا عن التحدث بلغتهم، أما الإغريق والمصريون فتوحّدوا معًا. تارة يضع المصري بعض الكلمات اللاتينة في حديثه، ويستخدم أيضًا الإغريقي اللغة المصرية. أما عن المتأغرقين، فهم يتحدثون اللغتين بالقدرة والمهارة ذاتهما. وكان التحدث باللاتينية يمنح الشخص رقيًا وتقديرًا، ولذلك كان الرومان يرسلون أولادهم ليتعلموا اللاتينية.

وبالطبع، عندما وصلوا وجدوا أطلالًا لمدينة بائدة منذ أمد بعيد. كانت بقايا من كل شيء: بقايا من بيوت، بقايا من حمام روماني، بقايا من جبانات، بقايا من طرق. ولكن، يحسب لتلك البقايا أنها ظلت صامدة لقرون طويلة؛ وكأنها أصرت أن تبقى كأثر لوجودها هنا يومًا.

استعادت ما درسته عنها، وتقمّصت هي دور الدليل الذي أخذ ينصت لها باهتمام، ربما ليكرر هذه المعلومات على السياح في وقت لاحق.

- أول أعمال الحفائر في هذه المدينة بدأ عام 1895، وكان للعالم الأثري "هانت". بعدها، قامت بعثة جامعة متشجن بإجراء حفائر في الفترة الممتدّة من 1914 وحتّى 1935، وأيضًا قامت بعثة من كلية الآداب في جامعة القاهرة بعمليات حفر وتنقيب في المنطقة نفسها عام 1968.

قال الدليل:

"هناك متحف وضعت فيه الآثار التي عثرت عليها البعثات. والآن سنذهب لنرى حيًّا قائمًا بذاته هناك، في أقصى أطراف القرية من الشمال الغربي، وممتدًّا إلى الجنوب الشرقي. به مطحنة ومخبز ومخزن للغلال، وحمامان من العصر الروماني".

الحي عبارة عن أطلال لبيوت من الطوب اللبن ووضع لبعضها أساس من الأحجار. وكانت مكونة من طابق واحد، وكل منزل مستقل عن الذي يليه، دون جدران مشتركة بين المنازل كعادة بناء تلك الحقبة.

دخلوا واحدًا من تلك المنازل. الجدران مزينة بحفر رسومات لأوراق وعناقيد العنب، وسنابل القمح بشكل جميل وجذاب.

نطق منتصر بنبرة تملؤها الدهشة:

- انظري إلى هذا الكم من عناقيد العنب. واضح أنهم كانوا مولعين به.

- مدينة تمتلئ بمعاصر العنب وطواحين الغلال، من الطبيعي أن يزين أهلها حياتهم بها.

- البيوت تمتاز بتصميم خاص وبالبساطة لتتناسب مع العائلات الريفية، وطبيعة حياتهم التي جعلتهم يتكاتفون ليوفروا لأنفسهم الحاجات الأساسية للحياة.

أضاف الدليل:

- الري ساعد على زراعة أشجار الجميز والنخيل بوفرة، وهي المستخدمة في بناء البيوت وأثاثها. وجدت في الكثير من المنازل جذوع الأشجار التي تدخل في الفواصل بين لبنات الطوب.

وكذلك الأسطح والأسقف كانت تبنى من العوارض الخشبية المتقاطعة المصنوعة من الأغصان الكبيرة من للأشجار. وكل منزل كان يوجد به قبو كبير.

استخدموا أيضًا الخشب في صناعة النوافذ والأبواب وخزانات الملابس، وكانت صناعة النوافذ بسيطة جدًّا ومميزة أيضًا؛ يتم
وضع ألواح خشبية في الحائط في الجهات الأربع المستطيلة المفتوحة
أفقيًّا أو رأسيًّا، ويتم وضع ألواح متقاطعة معها. وكانت النوافذ
صغيرة جدًّا، ومرتفعة للغاية أيضًا؛ وذلك من أجل إدخال الضوء
والهواء.

بالإضافة إلى هذه البيوت، عثر أيضًا على أعداد هائلة من التوابيت، وأوانٍ فخارية صنعت من الطين المحروق، وتماثيل لبعض الآلهة، وتماثيل من القيشاني الأزرق للإله المصري "بس"، وقطع من البرونز، ورؤوس مغازل ومطاحن من الحجر والخشب، وصحون من الفخار المصقول، وأوانٍ منزلية، وجرار لحفظ الغلال، وقدور لحفظ المياه، وأدوات من البرونز مثل المخارز والإبر وآلات الثقب وعدد من القبور المزخرفة.

تجوّلوا بعد ذلك في معبد "بتسو خوس وبنيقروس" الذي بني من الحجر الجيري في عهد الإمبراطور نيرون. أمام المعبد بقايا حوض. وفي الداخل عدد من الحجرات يتوسطها مذبح يوضع عليه الإله "سوبك" والقرابين. وبجوار المذبح، مكان داخل الحائط كخزانة. من شكلها وحجمها يظهر أنها كانت مخصصة لحفظ الإله بعد أداء مراسم العبادة.

أطلال مدن أخرى كان تظهر على بعد عدة أمتار.

سألت الدليل:

- ما هذه الأطلال؟

- هي آثار لأطلال مدينتين من المدن اليونانية القديمة: مدينتي ثيودلفيا وإيهمريا.

الآثار الباقية فيهما قليلة، وتشبه البيوت في تخطيطها بيوت
مدينة كرانيس.

زاروا بعدها متحف "كيمان فارس"، وهو الاسم القديم لمدينة الفيوم في العصور الفرعونية، ويعني "المستصلَحة"، ويضم المتحف بقايا معبدين كانا مكرسين لعبادة الإله سوبك وحمامًا رومانيًّا، ومجموعة من المنازل. وفي الجهة المقابلة، كانت مساحة كبيرة تضم مقابر المدينة.

ثم أشار إلى أطلال مدينة بعيدة.

- أما هذه فهي مدينة فيلادلفيا التي أنشئت في القرن الثالث قبل الميلاد، وذكرت البرديات اليونانية أنها كانت مركزًا للوحي للإلهين آمون وإيزيس، وتضم آثار بعض الضيعات اليونانية مثل أبولونيوس. سكنها أثرى سكان مصر في ذلك الحين. كانت مدينة حديثة صمِّمت على نهج طرازي مختلف، كان أكثر حداثة وعصرية من باقي المدن، لذلك أصبحت واحدة من أهم وأشهر مدن الفيوم في ذلك الوقت.

رددت الاسم بينها وبين نفسها "فيلادلفيا". هي أخيرًا هنا في هذه المدينة التي تحمل اسمًا جذابًا. ليس اسمها فقط، إذ كانت مدينة مختلفة في كل شيء، وبالأخص في شكل البناء المعماري. البيوت أكثر اتساعا، ملحقة بها حدائق، ، وتزين معظمها تماثيل للآلهة والحيوانات وفسيفساء من الرخام.

وهناك وجدت أطلال لمعبدين كانا مكرسين لعبادة الإله سوبك "التمساح" إله المنطقة. الحمّام الروماني كان نموذجًا رائعًا للحمّامات الرومانية، والغريب أنه بحالة جيدة. وضعت يدها تلمس جدرانه المبطنة من القيشاني المنقوش بألوان زاهية لزخارف نباتية، فكتمت أنفاسها لروعة ما تلمسه وما تراه. يتميّز الحمّام بتفرده من الناحية المعمارية؛ يضم غرفًا متعددة لاستخدامات مختلفة. وغرف الاستحمام مبنية من الطوب الأحمر وتعلوها قباب، بينما القاعة الكبيرة مبنية من الخشب. ويتم تسخين المياه بشبكة تحت الأرض من خلالها لا يُضخ الهواء الساخن.

شعور غريب مسها تجاه هذه المدينة، شعور بالألفة مختلف عن زيارتها للمدن الأخرى؛ وكأنها زارتها سابقًا في أحلامها. تخيلت أزقتها وطرقها الضيقة المتعرجة المسقوفة بتعريشات العنب. تذهب وتأتي فيها المصريات والإغريقيات والرومانيات الجميلات. يرتدين العباءات والأوشحة؛ كلٌّ منهن على هيئة أهلها وعشيرتها. لقد رأت صورهن كثيرًا، رأت كيف يخرجن متأنقات ومتزينات بالحلي، شعرهن مصفف طبقًا للموضة السائدة، وأكاليل الزهور فوق رؤوسهن.

تخليت مشهد الغروب، وأشعة الشمس البرتقالية المتوهجة تحضن المدينة وتصبغ كل شيء فيها بلون يصعب تحديده؛ لون يجعل كلّ شيء ذهبيًّا ساحرًا جذابًا. تخيلتهن وهن يخرجن في هذا التوقيت بالذات متألقات متأنقات. تسبقهن روائح عطورهن. أنصتت... أنصتت أكثر. كان هناك صدى مدوٍّ بعيد لضحكاتهن وثرثرتهن ووقع خطاهن.

18

مدينة الفيوم، القرن الأول بعد الميلاد

كانت مدينة الفيوم مختلفة عن مدينة الإسكندرية. ليس فقط في الطبيعة، ولكن في كل شيء: في المعيشة، في البيئة المجتمعية، في البناء المعماري والطرقات والشوارع. في الوقت الذي كانت فيه الإسكندرية مدينة عتيقة ذات تاريخ، كانت الفيوم مدينة حديثة تحظى بنسق معماري مختلف ومتجدد على الدوام.

أكثر ما لفت نظرها عند الوصول هو المروج الخضراء الواسعة، وسواقي الهدير الكثيرة، وطواحين الهواء، والطرقات التي تتخللها بحيرات ممتلئة بالتماسيح؛ تماسيح من جميع الأحجام والأشكال، ومسلة سنوسرت التي بدت وكأنها تناطح السماء؛ ولكنها لم تكن بعظمة فنار الإسكندرية.

حتى هرم هوارة يختلف شكله عن أهرامات ممفيس. يمكننا أن نقول إن كل شيء في هذه المدينة كان مختلفًا وذا طابع خاص، حتّى سكانها. وكعادة الرومان الذين يحبون أن يصبغوا على كل شيء الصبغة الرومانية، كانت تماثيل الأسود برؤوس آدمية منتشرة في المدينة؛ وذلك تقليدًا لحضارتهم وكناية عن تراثهم.

كان يمكن لأي شخص أن يقع في غرام هذه المدينة
الحديثة الأنيقة، ولكنها لم تحبها لكثرة التماسيح بها؛ فهي
تكره التماسيح، تكره هذه الحيوانات المفترسة والمتوحشة، تكرهها
وتخشاها.

بعد أن انتهت من جولتها في المدينة، ذهبت إلى معبد سوبك، فوجدت الحجاج يقدمون القرابين ويصلون ويتضرعون له لكف الأذى عما يحدث في المدن المصرية جميعها.

في الردهة الخلفية للمعبد، كانت هناك بركة مياه كبيرة، بها أعداد هائلة من تماسيح عملاقة يقوم الخدم بتنظيف ما علق في أسنانها من دماء ولحوم. أغلقت عينيها، كان المنظر مقززًا حقًّا.

أذن لهم كاهن المعبد بالسكن لمدة ثلاثة أيام فقط حتى يرتبوا أمورهم، ومن ثم ينبغي أن يتركوا المكان؛ فهو لا يستطيع أن يتحمل بطش الرومان في حال علموا بوجودهم عنده.

كان أوناس يدّخر بعض الأموال، وقرر أن يستأجر منزلًا هو ورفاقه. ولكن، كان عليه قبلها أن يتأكد من أنه ليس هناك خطر من عيشهم في هذه المدينة. خرج بصحبة رجلين يستطلعون أمرها ويتفقدون أحوالها. وجدوا أنها مدينة هادئة ومستقرة، ولكن كان عليه أن يبقى حذرًا، فهو يعلم دهاء الرومان، وكيفية إغوائهم وإغرائهم البشر ليعملوا لصالحهم. أخبرهم حارس المدينة أن أهلها لا يحبون الغرباء ولا يثقون فيهم، ومن المستحيل أن يجدوا منزلًا. وعندما لمح ملامح الإحباط على وجوههم، أخبرهم أن هناك منطقة قريبة تسمى "فيلادلفيا"، وفيها سيجدون غرضهم؛ فأهلها ليسوا بهذا القدر من الانغلاق، بل هم أكثر انفتاحًا، ويرحّبون بالغرباء والأجانب، وفي المقابل يطلبون مبالغ كبيرة.

في صباح اليوم التالي، ذهب أوناس ومعه عدد من الرجال إلى هناك. وبعد بحث طويل ومرهق، استطاعوا الحصول على منزل بمبلغ كبير؛ بالرغم من فقر حاله. مبنى من الطين، وبسقف منخفض، له حديقة صغيرة محاطة بسياج ومزروعة بشجر التين الذي كانت أغصانه الوفيرة تغطي المسكن وسكانه، وكان ذلك بالنسبة لهم مبعثًا للراحة والاطمئنان.

وقبل مرور الأيام الثلاثة التي أمهلهم الكاهن إياها كانوا قد انتقلوا. عندما شاهدت سرينا البيت تنهدت متحسرة على القصر الذي كانت تسكنه، ولكنها عزت نفسها بأن الأمان الذي ستشعر به في هذا البيت مع أوناس وهؤلاء الرجال أفضل بكثير. مرت الأيام سريعة، ونفدت النقود التي يملكونها، وأصبح عليهم الخروج للعمل. ذهب أوناس لكاهن المعبد وطلب منه أن يجد له هو وزملائه عملًا.

أخبره الكاهن أن حياته قائمة داخل جدران المكان ولا يكاد يبارحه، وليست له علاقات يستطيع بها أن يساعده. ولكن يمكنهم أن يجدوا عملًا في تنظيف البحيرات والاعتناء بالتماسيح؛ فهذا النوع من الوظائف ليس عليه إقبال كبير، بالإضافة لحصولهم على مبلغ مجزٍ لقاء ذلك.

امتعض وجه أوناس عندما تخيل نفسه يقوم بتحميم التمساح وتقديم الطعام له ومسح فضلاته فلاحظ الكاهن ذلك. ثم فجأة تهللت أساريره عندما تذكر شيئًا:

"ألست فنانًا تقوم برسم وجوه الموتى للصقها على المومياوات؟"

"نعم".

- حسنًا، يمكنك العمل في مهنتك. فعدد الفنانين في المدينة قليل جدًّا؛ ربّما واحد أو اثنان، ولا يستطيعون رسم جميع الوجوه. حتى أن في الكثير من الأحيان، يتغاضى أهل المتوفى عن فكرة رسم وجهه على المومياء.

- ولكن، لا أحد يعرفني في هذه المدينة، فكيف بإمكانهم أن يبعثوا في طلبي؟

- هذه مشكلة بسيطة، وحلها سيكون عند ماخيميوم المسؤول عن حفظ المومياوات وتجهيزها. سوف تذهب إليه، وتخبره بأمرك، وتقول له إني من أرسلتك ليثق فيك.

ابتسم أوناس، وركع تحت قدم الكاهن الذي ودّعه قائلًا:

"عليك أن تحذر، فقد جنّ جنون الرومان في الإسكندرية. وسمعت أنهم يقومون بالقبض على الجاني والبريء، والتفتيش والتحقيق في الشوارع والبيوت والطرقات مستمران ليل نهار".

علم أوناس الغرض من هذه الحملات التفتيشية، فالأمر كان أكثر بكثير من مجرد ثورة، إذ نجحوا في القضاء عليها بأكثر طرق الموت وحشية.

- ولكن، لماذا كل هذا؟

- لا أعلم، ولكنهم يقولون إن نائب الملك جن جنونه، وتحول لوحش يفتك بأي شيء في طريقه.

- هل تعتقد أنه يبحث عنا؟

- من الصعب التأكد من عدم موتكم، فقد نجوتم بأعجوبة من تلك الوحوش الكاسرة. ومن نجا من الوحوش كان الرومان يقفون له بالمرصاد. فغير حملات التفتيش في المكان، نصبوا الفخاخ

في الشوارع وغطوها بطبقات من أوراق الشجر لكي يقع فيها من يركض هربًا.

- لا أعلم من أين يأتون بهذه الأفكار الوحشية؛ وكأنهم يتعاملون مع حيوانات وليس مع بشر.

- من وصلوا من الإسكندرية كانوا يحكون عن المشاهد الدامية في المدينة. كانت أشلاء الجثث مبعثرة، حيث يمكن لقدمك أن ترتطم برأس أو يد. ولكي يتخلصوا من الجثث أوقدوا فيها النيران. ونظرًا لحرارة الجو، امتلأت الإسكندرية برائحة الشواء لعدة أيام.

"انتبه جيدًا أنت وزملاؤك أوناس".

قالها وهو يربت على ذراعه، ثم ودعه وذهب.

خرج من عنده مهمومًا وهو يتساءل: هل بإمكانهم حقًّا الهروب من هذا الرجل!؟ بالإضافة إلى أنه لن يتهاون أبدًا في حقه؛ فهو واحد من أكثر الشخصيات عدوانية. ولكنّ الغريب في الأمر، كيف لم ينتشر خبر هروب زوجته حتّى الآن؟! فخبر مثل هذا يفترض أن ينشر انتشار النار في الهشيم، وستتداوله جميع الألسنة في الإسكندرية وجميع مدن القطر المصري. وكان سيعبر الحدود والبحار والجبال والمحيطات، ليذاع هناك في روما، أثينا، والأناضول وبلاد الغال وجميع الدول التي تقع تحت سطوة الإمبراطورية الرومانية. شعر بالذنب من أجلها، فأين ذهب عقله ليوافق على انضمامها إليهم وهو يعلم حساسية مركزها والخطر الذي سوف تتعرض له في حال كشف أمرها؟ كان يجب أن يصر على رفضه أمام إصرارها، ولكنه لم يفعل.

كان يعلم أن الأخبار التي سوف تمدهم بها ستفيدهم كثيرًا. ولكن، هل هذا وحده السبب أم هناك سبب آخر؟! يجب أن يعترف بأنه كان ينتقم من زوجها؛ فانضمامها لهم ضربة قاضية له، وأهم وأخطر وأقوى من جميع الثورات. انضمامها لهم يعني كسره وتحطيم جبروته؛ لأنه يمثل الإمبراطورية الرومانية العظمى، لذا فكسره يعني كسرها والانتصار عليها. ولكن في النهاية، العقاب وخيم وعلى قدر الخطأ؛ لذلك هو يخشى عليها ويحاول مساعدتها، وسيفعل ذلك بكل ما في وسعه.

29

مدينة الفيوم 2018

وكالمسرنمة داخل أحلامها، أخذت تنتقل من مكان إلى مكان. سارت مسافة طويلة، الشمس حارقة، وحرارة الرمال لسخونتها تشعر بها تتسلل إليها وتلهب قدميها. استوقفها بيت بقى كما هو لم يتبدل أو يتغير. دخلته وتجولت فيه، صالة مربعة وعدة غرف، غرفة بعد أخرى، ثم وجدت نفسها تهبط إلى القبو.

فجأة، توالت الوجوه أمامها؛ الوجوه التي تعمل على اكتشاف سرها. الصورة تمر بعد الصورة، الوجه بعد الآخر، الوجوه نفسها تظهر أمامها في صور أخرى ومشاهد أخرى. صور ممتلئة بالشباب والحياة والحيوية.

ها هي دون أن تدري بداخل المكان الذي تم العثور فيه على من تبحث عنهم، تبحث عن ماضيهم، عن تاريخهم، أولئك الذين سافرت إلى هنا لتكتشف لغزهم.

ولكن، ما الذي يمكن أن تكتشفه هنا في هذا القبو الفارغ؟ في هذه الغرف المظلمة؟ في هذه القبور الغامضة؟ لا شيء يمكنها العثور عليه، لا شيء يمكنه أن يدلها على شيء، لا شيء يمكنه أن يصل بها إلى شيء. ولكن، كان يكفي أن تشعر أنها قريبة... قريبة منهم إلى هذا الحد.

عندما فتحت عينيها، وجدت نفسها على الفراش في غرفة الفندق. وكأنها تخرج من مغارة حالكة الظلام مرة أخرى إلى النور. كانت تنظر حولها وتحاول أن تمعن النظر. وجدته يجلس على المقعد بجانبها.

- أين أنا؟ ما الذي حدث؟

- أصابك بعض الإعياء من حرارة الطقس ولهيب الشمس. فقدت وعيك، ولكنك بخير الآن.

فقدت الوعي! كيف حدث ذلك؟ ومتى؟

- انشغلت مع الدليل في حديث عن الآثار، بينما ذهبت أنت باتجاه أحد المنازل ووقفت أمامه. فجأة، نظرت لأحذرك من الوقوف لوقت طويل تحت الشمس الحارقة، ولكنني لم أجدك في أي مكان. توقعت أنك دخلت المنزل فدخلته، وفتشت عليك في جميع الغرف فلم أجدك. وبالنظر إلى إحدى زواياه، وجدت درجًا يقود لقبو. كان الظلام دامسًا والجو خانقًا. رحت أناديك ولا أسمع سوى صدى صوتي يتردد عبر الجدران. فجأة، قدمي ارتطمت بشيء، فسلطت كشاف الهاتف عليه، ووجدتك ملقية هناك وفاقدة الوعي. حملتك إلى هنا وطلبنا الطبيب. أخبرنا أنك أصبت بالإعياء إثر تعرضك لضربة شمس صغرى. اطمئني، لن تشكل خطورة. ولكنه حذّرنا من الخروج في هذا الطقس الحار.

أجابته بصوت واهن:

- آخر شيء أستطيع تذكره هو... هو...

- هو ماذا؟

تذكرت تلك الصور التي كانت تدور أمامها لأولئك الأشخاص. كانت تراهم وهم على قيد الحياة موفوري الصحة والعافية. يمرون أمامها الواحد بعد الآخر كما لو أنهم في صف طويل، ينظرون إليها ويبتسمون قبل نزولهم للقبو. امرأة في آخر الصف. امرأة جميلة تتذكر ملامحها تمامًا. أشارت لها بيدها لتلحق بها، فهبطت الدرج وراءها. فجأة، جميعهم اختفوا. لم تستطع أن ترى شيئًا، كان الظلام دامسًا. بحثت عن هاتفها فتذكرت أنها تركته في حقيبتها بالسيارة. شعرت بالفزع والحرارة والاختناق. وبعدها وجدت نفسها هنا.

لم تخبره بذلك. اكتفت بالقول إنها شعرت بالاختناق من عدم وجود الأكسجين، وهي في الأساس تعاني نقصًا في معدله ولذلك فقدت الوعي.

- لم يكن من الذكاء أن تهبطي إلى القبو بمفردك! عن أي شيء تبحثين هناك؟ ولم يكن معك حتّى كشاف ضوء!

- نعم، لم يكن عليّ أن أفعل ذلك.

- على أي حال، حمدًا لله على سلامتك. سأنزل لتناول الغذاء، وبعدها يمكننا العودة.

- سألحق بك. أتضور من الجوع.

رمقها بنظرة فيها الكثير من الحنان وذهب. نظرت بجانبها، ووجدت دورقًا ممتلئًا بالثلج وقطعة من القطن مبللة؛ فمن الواضح أنه وضع لها كمادات مياه باردة على رأسها. ربما نصحه الطبيب بذلك. غمرها شعور بالامتنان تجاهه. إنه يتمتع بصفات الرجل الذي طالما تمنّت أن ترتبط به، ولكن المشكلة أن عاطفتها تجاهه كشيء من قبيل الأخوة. ترى، هل ورث هذه الصفات عن والده؟ ألذلك وقعت أمها في غرامه؟ لقد كان يتدفق بالحيوية والشهامة والمروءة، ولم تكن تصرفاته قطّ من قبيل المجاملة، بل كانت تنبع من داخله.

في طريق عودتهما كان بعد الغروب بقليل في هذه الساعة السحرية حين يتوهج لون الكون كله ويصبح ذهبيا.

موسيقي هادئة تنبعث من كاسيت السيارة. ساد الصمت لفترة بعدها قطعه:

- هل أفادتك رحلتك للفيوم؟

- الأمر لا يتعلق بالإفادة. إنه أكثر من ذلك. تخيل أن تقرأ رواية وتتماهى مع أحداثها وتقع في غرام شخوصها، وفجأة الخيال يتحول إلى حقيقة. كل شيء يتجسد واقعًا أمامك. الأماكن، الحياة، الأشخاص، الأحداث.

- يبدو الأمر مثيرًا فعلًا. ولكن، هل يمكن أن تتخلي قليلًا عن غموضك وتفسري لي أكثر؟

وطوال الطريق، حكت له عمّا جرى منذ أن رشحها مديرها للانضمام للجنة.

- هل فهمت الآن ما الذي كنت أقصده؟ هؤلاء الشخوص تلبسوا روحي. شعرت كأنني مسؤولة عن كشف سرهم؛ بالرغم من أن ذلك يبدو صعبًا بل ومستحيلًا. ولكن، على الأقل اكتشفنا أن ما حدث لهم لم يكن نتيجة طبيعية.

أدار وجه باتجاهها، ورمقها بنظرة تحمل الكثير من التقدير.

- من النادر في هذا الزمن، أن يكون هناك أشخاص مثلك، يركضون وراء الحقيقة لاكتشافها وإظهارها، ويخلصون في عملهم بمثل هذا الشكل، ويحاربون للوصول لأهدافهم. اسمحي لي أن أنحني تقديرًا لك.

ابتسمت ولطمته على كتفه.

- لا تبالغ. الأمر لا يستحق كل ذلك.

- يستحق وأكثر. كان يمكنك أن تعرفي أن هناك أمرًا غير طبيعي بخصوص أولئك الأشخاص، وألا تبحثي وراءه. وكان يمكن اعتراض اللجنة الطبية على طلبك أن يفتر من حماسك ويثنيك عن الاستمرار في رحلة البحث، ولكنك واصلت، وجئت إلى هنا بحثا عن أي خيط يدلك على شيء يوصلك للحقيقة.

- وكأن هناك قوة خفية تدفعني للبحث وراء ذلك.

- ولكن، هل حقًّا تعتقدين أنه يمكنك العثور على شيء بعد كل هذا الزمن؟ عزيزتي، أولئك رحلوا منذ أمد بعيد، ورحل سرهم معهم.

- مهما مر من زمن، هناك أثر باقٍ منا.

سرحت في هبوطها الدرج ودخولها القبو. وفجأة، كما لو أنها تتحدث مع نفسها:

- ولكن، لماذا ذلك المنزل تحديدًا؟

- أي منزل؟

- الذي دخلته وهبطت قبوه. لماذا أولئك الشخوص ظهروا داخل المنزل واستدرجوني لهبوط الدرج؟

- ماذا تقصدين بالشخوص الذين ظهروا؟! هل تعانين من شيء ما؟ ربما هذه أعراض ضربة الشمس التي تعرضت لها!

- لماذا ذلك المنزل تحديدًا دون أطلال المنازل الأخرى الذي وقفت أمامه، وشيء ما دفعني لدخوله؟ ولماذا أولئك الأشخاص ظهروا لي فيه؟ وتلك المرأة تحديدًا، لماذا أشارت لي بالنزول للقبو؟ أبدًا الأمر لم يكن تهيؤات، بل كان حقيقيًّا وواقعيًّا.

- من الجائز طبعًا أن تكون وراء الأمر قوى ميتافيزيقية.

- هل تعتقد أن أولئك الشخوص كانوا في ذلك القبو، وأن تلك إشارة منهم لي؟

- ربما.

- هل يمكن أن نعود؟

- لقد قطعنا أكثر من نصف المسافة تقريبًا. كما أن الظلام حل، ولا أعرف ظروف الدليل، هل هو متاح ليذهب معنا؟ يمكننا أن نؤجل ذلك ليوم آخر.

هزت رأسها بما يفيد موافقة. فسألها باستغراب:

- ولكن، ماذا تتوقعين أن تجدي هناك؟

- لا أعرف.

- لا شيء هناك. أنا ذهبت لأبحث عنك. ليس هناك سوى الظلام والفراغ.

تمددت في الجاكوزي بعد أن أضاءت الشموع التي حولها، وأسندت رأسها على حافة الحوض. كانت رحلتها للفيوم منهكة، بالرغم من أنها يومان فقط. لكن حرارة الطقس، والتجول وسط الأطلال، ومشاهدة آثار ومدن بائدة، وأطياف أشخاص ماتوا منذ أمد طويل؛ كل ذلك أخذ من طاقتها، حتّى وصل بها الأمر إلى حدّ أنها فقدت الوعي.

ولكن الأمر كان يستحق فعلًا؛ فالفيوم واحدة من المدن التي يجب على منظمة اليونسكو أن تضعها على قائمتها. فهي مدينة عاشت بين جنباتها أعظم ثلاث حضارات على مر الزمن. كل حضارة فيها واضحة بتجلٍّ، ولها أثر قوي. كل حضارة فيها قائمةُ على حضارة أخرى. كل حضارة مكمِّلة لأخرى.

تحسرت عندما فكرت أن هذه المدينة لو كانت في إحدى دول أوروبا لكانت قد أصبحت واحدة من أشهر المدن والمزارات الأثرية. كيف يمكن لمدينة تربض بين طرقاتها أبواب التاريخ ودهاليزه ألا تحصل على الاهتمام والتقدير المناسبين لها؟ بعض الدول تضع في متاحفها آنية لم يمر عليها أكثر من نصف قرن، وتدعي أنها أثر جليل يجب رؤيته، ويجب الوقوف أمامه، والإعجاب به، والثناء عليه وعلى من صنعه.

شعرت بالانتعاش والحيوية مجددًا. خرجت من الحوض، ارتدت روب الحمام، واتصلت بخدمة الغرف وطلبت عصير الرمان.

فكرت أن تهاتفه وهي في هذه الحالة المزاجية الجيدة.

غريب، بدلًا من أن يجيب "ألو، نعم، مرحبًا" كان يضحك.

- غريب، قلّما ضحكت.

- كنت سأضغط على رقمك في الوقت الذي رن هاتفي باسمك.

- يقولون إن القلوب عند بعضها.

- نعم... نعم، هذا حقيقي. هناك مفاجأة لك!

- ما هي؟

- فلنلتقِ غدًا صباحًا وسأخبرك بها.

- حسنًا، أين؟

- يمكنك المرور عليّ في الفندق، يوجد "تراس" له إطلالة جميلة على المدينة والنيل.

- في العاشرة صباحًا. إلى اللقاء.

بعد أن أغلقت الخط، ظل الهاتف بيدها. جلست على حافة السرير واضعة ساقًا فوق أخرى، وهي تفكر في المفاجأة التي يتحدث عنها! هل سيجثو أمامها ويخرج من جيب سترته علبة قطيفة بها

خاتم ماسي يقدمه لها طالبًا يدها للزواج!؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يفاجئها به ويجعلها أسعد امرأة.

مسكينة تلك الصغيرة. مسكينة تشعر بنفسها وحيدة، وتنتظر سرًّا رجلًا لن يأتي. كانت تريد رجلًا يمكنها الاعتماد عليه، والاتكاء عليه، رجلًا مثل آباء صديقاتها في الصف؛ يدللها، يصطحبها للملاهي، يشتري لها حلوى وملابس جديدة. رجلًا يوفر لها بيتًا جميلًا دافئًا، ومطبخًا عامرًا بالغذاء.

كانت تريد رجلًا، عندما يضمها تشعر بالحنان والسكينة، وليس بالضياع والتيه. تريد رجلًا يعوضها عما لم تجده في أبيها الذي خذله الزمن وحوّله من رجل محمّل بالأمل والطموح لخرقة قماش بالية.

لا تعرف لماذا منذ أن وقع نظرها عليه شعرت أنه هو هذا الرجل!؟ الرجل الذي يمكنها الاستناد عليه كجدار قوي قادر على تحمل ثقل حملها ولن يخذلها قط ويسقط بها.

ولكن، كيف في خضمّ كل تلك الأحلام والأمنيات والتوقعات تنسى أنه متزوج؟! هناك امرأة أخرى في حياته، امرأة تحبه وتتخذ منه جدرانها. وفي الوقت الذي سيمنحها فيه الأمان سيتهاوى جدار امرأة أخرى. تبددت سعادتها بالتفكير في ذلك، وشعرت بالحزن.

30

كانت مشرقة كشمس صباح أشرقت أخيرًا بعد أيام طويلة من الغيم عندما أقبلت عليه.

- تبدين رائعة.

- وأنت أيضًا.

طلب لهما فطورا. دقائق وكانت المائدة عامرة بأصناف مختلفة من الجبن والمربى والزبدة والبيض والكرواسان وطبق من الفول وأقراص الفلافل وفطير مشلتت وعسل. وفي المنتصف، صحن عميق به مختلف أنواع الخضروات.

أكلا بشهية، وحكت له عن رحلتها للفيوم وما شاهدته هناك. وحكى لها عن لوحة لوتريك التي اشتراها من تاجر لوحات قديمة في باريس. وبعد الإفطار، وأثناء تناولهما القهوة:

- حدثتني أن هناك مفاجأة.

- نعم.

- ما هي؟

- من الأفضل أن تريها بنفسك.

بعد أن أجرى مكالمة لم يقل فيها غير: "بعد نصف ساعة من الآن".

- هيّا.

- إلى أين؟

- إلى المفاجأة.

سحبها من يدها، وبخطوات سريعة ذهبا إلى خارج الفندق. كانت سيارة تنتظرهما عند البوابة.

- رقم 15 شارع المرعشلي الزمالك.

فكرت في المفاجأة التي تنتظرها في إحدى شقق الزمالك. لاحظ الوجوم الذي بدا عليها، فحرك كفّ يده صعودًا وهبوطًا أمام وجهها.

- لا تخافي، لن أقوم بخطفك.

للمرة الأولى تتشابك نظراتهما؛ بهذه النظرة التي تحمل الكثير من المعاني. كانت تخبره فيها "أريدك أن تخطفني لأبقى معك إلى الأبد". بينما كانت نظرته تعني "هل حقًّا تقصدين ما أفكر فيه؟" لذلك وجدت نفسها دون أن تدري تهز رأسها "بنعم".

ربت على كف يدها بحنان، فحضنت كفه بيدها الأخرى، وأسندت رأسها على كتفه. موسيقى هادئة تتسلل من المسجل، وهواء بارد ومنعش من جهاز التكييف. كانت على مقربة منه، على مقربة منه جدًّا، لحد أنها كانت تشعر بكل نفس يتنفسه، وتسمع دقات قلبه، وتشعر بسريان الدماء في عروقه. ضمت نفسها إليه أكثر، فلف ذراعه حولها. وقتها فقط استكانت، وتبدد تعب السنين وقلقها.

توقف السائق أمام المبنى، وبقيت كما هي؛ كقطة لا تريد أن تفارق صاحبها. لاحظ هو ذلك.

- عزيزتي، لقد وصلنا.

كانت تريد ألا تتوقف بهما السيارة أبدًا. لم العجلة؟ أخيرًا شعرت بالراحة. لا يهمها أي شيء آخر. هذه هي مفاجأتها. هذه أجمل مفاجأة قدمتها لها الحياة.

وكما نكون على علو شاهق من أحلامنا وفجأة نهوي لأرض الواقع كان شعورها عندما نزلت من السيارة.

في مدخل البناية، كانت هناك علامات إرشادية تشير لصالة فنية تقع في الطابق الأول. عُلقت على الباب المواعيد، وذكر أن الأحد موعد الإجازة الأسبوعية.

كان الباب موصدًا والصمت يعم المكان. شعرت بالملل بعد طرق الباب وعدم فتح أحد لفترة طويلة.

- هل أنت متأكد أن هناك أحدًا بالداخل؟ اليوم يوم الإجازة الأسبوعية.

وفي الوقت الذي أمسك فيه هاتفه لإجراء مكالمة فتح الباب.

استقبلهما رجل عرفها بنفسه كان ناقد فني شهير. لم تلتقِه سابقا، ولكنها سمعت باسمه يتردد كثيرًا في المعارض التشكيلية والمزادات الكبرى التي كان يغطيها بتقارير صحفية لأهم وأشهر وسائل الإعلام.

كان في الردهة رجل آخر في منتصف الثلاثينات، مظهره يدل على ثرائه. صافحهما، ودون أن يتحدث أحد منهما، قادهما الناقد إلى غرفة جانبية بنهاية البهو تستعمل كمخزن للوحات. في زاوية كانت المفاجأة ممددة أمامها على الأرض. كان وقع المفاجأة مدويًا. إنها واحدة من مومياوات الفيوم. فهل حقًّا ما تراه!؟

كان يزن يراقبها ليعرف وقع المفاجأة عليها. كان متأكدًا أنها ستكون مدهشة، ولكنه لم يتوقع أن تفعل بها ذلك.

ولم يستطع أن يحدد من تعبير الصدمة على وجهها شيئًا.

جلست بجوار المومياء تتأمل بدقة لوحة صاحبة الصورة. هزت رأسها شمالًا ويمينًا تعبيرًا عن عدم التصديق.

- كيف!؟

بالرغم من أنها كانت تحدث بها نفسها، ولكنه سمعها.

- كيف ماذا؟

لم تكن في حاجة لتأملها، فمنذ أن وقع نظرها عليها، تذكرتها على الفور. إنه واحد من الوجوه التي لا تنسى. هي المرأة نفسها التي أشارت لها للنزول إلى القبو. تذكرتها الآن جيدًا. إنها أيضًا المرأة نفسها التي اصطحبها أمين المتحف مخبرًا إياها أنه يريد أن يريها شيئًا ما. وهناك كانت

لوحة لنصف وجهها أخبرها أنه تم نزعها من مومياء. ولكن لوحتها هنا كاملة وملصوقة على المومياء. كيف يمكن أن يكون وجه الشخص ملصوقًا على اثنين في الوقت نفسه؟!

- ولكن، كيف وأين عثرتم عليها؟

كان الرجلان ينظران إليها نظرات غامضة، تحمل قدرًا من الريبة. حاولت أن تتمالك نفسها، فلم تعرف شيئًا بعد. لا تعرف من هما، وما علاقتهما بالمومياء. كان الأمر برمته يدعو للقلق. ولكنّ وجوده كطرف في الحكاية كان يطمئنها. سألها الناقد:

- هل تأكدت من أنها قطعة أصلية؟

- وكيف لي أن أتأكد من ذلك؟

- باعتبار أنك خبيرة في الفنون.

- يحتم عليّ أن أضع هذه القطعة تحت الكثير من التجارب والاختبارات للتأكد من أنها أصلية. لا أستطيع الجزم من مجرد النظر إليها.

أجابها الناقد التشكيلي بنبرة سخرية:

- الخبير الجيد كتاجر الألماس المحترف. يستطيع التفريق بين الحجر الأصلي والمزيف من النظرة الأولى!

- للأسف، هناك تزييف للوحات الفنية. يقوم بها رسامون على قدر كبير من الخبرة، فلا تستطيع التمييز بسهولة بين الأصل والمزيف.

تبادلت النظر في وجهيهما، وسألتهما بنبرة الشك:

- ولكنني لا أستطيع أن أفهم، كيف جاءت هذه القطعة إلى هنا؟

- تفضلوا إلى غرفة المكتب نشرب القهوة ونتحدث.

قالها الشخص الذي من خلال أناقته الفائقة يظهر أن له دورًا كبيرًا في الأمر.

- اسمحوا لي لأن العامل في إجازة اليوم سأصنعها بنفسي.

قام وشغل آلة صنع القهوة الموضوع على طاولة في إحدى الزوايا، وقدم كوبًا لكل منهم.

- سوف نفتح النافذة قليًلا حتّى تخرج رائحة الدخان.

أشعل كل منهما سيجارته. انتظرت أن يشعل يزن سيجاره هو الآخر ولكنه لم يفعل. من الواضح أنه لم يكن يدخن في أماكن مغلقة. كانت تنتظر من أحد منهم أن يتحدث لتفهم منه ما يحدث. رشفا عدة رشفات، ومجا عدة مجات، وصبرها بدأ ينفد. لاحظ يزن ذلك فقرر أن يتحدث.

- على حسب معلوماتي، تم العثور على هذه المومياء في قبو إحدى الفيلّات بالإسكندرية. الفيلا تقع في التجمعات الحديثة في المدينة.

أشار إلى الشخص الذي يبدو عليه الثراء وتابع:

- المجمع ملك لوالده، وهو مستثمر أراضٍ، ويملك أكبر شركات الإنشاءات المعمارية في الشرق الأوسط. فور عثوره عليها قام بالاتصال بصديق له يعمل في مجال الفنون.

وهنا لقط الناقد خيط الحديث، وتحدث بنبرة الثقة المفرطة:

- وبمجرد رؤيتها، علمت أنها واحدة من مومياوات الفيوم. خلال تجوالي في متاحف العالم، شاهدت هذا النوع من الفن. قمت بالبحث والتقصي، وعلمت أن الأستاذ يزن واحد من الممولين للمشروع الذي تقيمه مؤسسة كبيرة للبحث حول هذه المومياوات. ومؤكد سوف يهمه أمر هذا الأثر. وبصفتي الوكيل لصاحب القطعة الفنية، عرضت عليه شراءها. ولكنه طلب مني الانتظار حتى يتم التحقق من أصالتها.

تجولت بالنظر حولهم.

- هل ما أسمعه حقيقي فعلًا أم أنه دعابة؟

انقلب الحال، وأصبحوا يتجولون بالنظر حول بعضهم بعضا. لاحظت عرقًا نافرًا في عنق يزن يتحرك كثعبان صغير، ويدل على
تشنجه.

- ما الذي تقولينه رنيم؟ أي دعابة تقصدين!؟

- ما أسمعه! إنه بمثابة دعابة، ودعابة سخيفة أيضًا.

- كيف؟

- لأنه من الأساس، كان يجب على صاحب المكان عند اكتشافه الأثر أن يقوم بإبلاغ الجهات المختصة عن ذلك؛

لأنه من حق الدولة.

فأجابها الشاب بسخرية:

- نحن لسنا مجتمعين هنا لمناقشة المفروض والصائب! نحن هنا لتطّلعي على العمل وتقيّميه. أما إذا كان هناك اعتراض...

ووجّه نظره ليزن متابعًا:

- يمكننا الاستعانة بخبير آخر. وهم كثيرون.

فهمت ما الذي يعنيه بكلامه، وفكرت سريعًا أنها بذلك ستكون قد خسرت الكثير. خسرت معرفة قصة هذا الوجه المشطور إلى نصفين والملصوق على أكثر من مومياء. لم تخبرهم طبعًا بذلك. حاولت أن تبدل الموضوع لتكسب ثقتهم مجددًا، فهي لا تعرف مع من تتعامل؛ فربما هي عصابة لتهريب الآثار. وحتى تتأكد من الكثير من الأشياء، يجب أن تجاريهم في أفكارهم وآرائهم.

- لا داعي لذلك. أعتقد أن ملكية المكان تعود للأستاذ حسام، لذا ربما وجد من حقه الاحتفاظ بالأثر. وعلى كل حال، كما قلت، هذا لا شأن لي به. ولكن، في الحقيقة سأحتاج إلى بعض الوقت لتأكيد أصالة العمل، وبعدها يمكننا أن نثمنه.

- حسنًا، ومتى يمكنك البدء في ذلك؟

- في الواقع، أحتاج إلى أن أضع هذا العمل تحت أجهزة خاصة للكشف عنه. ولأنني لم أعش في مصر وهذه أول زيارة لي فلا أعرف أي شيء...

- أين يوجد المختبر الذي تريدين فيه البحث عن العمل؟ يمكنك أن تضعي لنا العنوان هنا، وسوف نرسل القطعة لأي مكان في العالم.

- ولكن، كيف يمكن أن تخرج هذه القطعة الأثرية من المطار؟! هذا يتطلب مستندات وأوراقًا تسمح بمرورها؟

بنبرة فيها الكثير من السخرية والثقة أيضًا:

- لا تشغلي بالك بمثل هذه التفاصيل. دعي هذه الأمور لنا، واهتمي أنت بالكشف عن الأثر ما رأيك؟

لم تعجبها اللهجة التي حدثها بها، وشعرت أنها تريد أن تقوم بلطمه على وجهه، ولكن يزن سبقها:

- يجب أن تعلم جيدًا مع من تتحدث! وهذه التفاصيل التي تتحدث عنها من دواعي عملها. كل ما يخص هذه القطعة أنا كلّفت رنيم بالاهتمام به.

شعر حسام أنه على وشك أن يخسر العميل الذي ظهرت عليه علامات الاستياء. احمر وجهه، ونبرة صوته الهادئة أصبحت أعلى من المعتاد. فوضع قناعًا من الابتسامة الباردة، وأجابه بنبرة تشبهه:

- ونحن تحت أمر الدكتور رنيم في أي شيء.

وجَّه يزن نظره إليها متسائلًا.

- سوف أتواصل مع زملاء لمساعدتي في وضع هذه المومياء تحت الاختبار في معامل هنا. وإذا لم أفلح فيمكنكم إرسالها لإيطاليا.

- سننتظر القرار.

في طريق العودة كانت واجمة، لا تعرف ما الذي عليها فعله. بالإضافة لشعور سيئ يمسها تجاه يزن؛ شعور أقرب إلى فقد الثقة. وهذا الأمر ضايقها كثيرًا. كيف بإمكانه التفكير في شراء

قطعة فنية يعلم تمامًا أنها ليست ملكًا لصاحبها؟!

- من الواضح أن المفاجأة لم تعجبك.

كانت ستجيب، ولكنها لاحظت أن السائق يحدق بهما في فضول، وربما ينتظر إجابتها أكثر من يزن نفسه.

- بالطبع أعجبتني جدًّا، وفي الوقت نفسه لم تعجبني.

- أتمنّى لو تكفي عن التحدث بالألغاز.

- دعنا نذهب لأي مكان ونتحدث.

طلب من السائق التوقف أمام أحد المطاعم العائمة على ضفة النهر.

رحب بهما المضيف وأخذهما إلى طاولة على النهر مباشرة، ووضع قائمة الطعام مع ابتسامة واسعة وذهب.

كان كالمحقق الذكي الذي ينتظر اعتراف المتهم بنفسه دون إلحاح عليه. إذ يبقى صامتًا يحدق فيه حتّى تكون إجابته صادقة وبناء على رغبة منه. وهذا ما حدث؛ فبعد دقائق قليلة تحدثت.

- مؤكد أن المفاجأة أعجبتني لأنها تعد اكتشافًا. إنها وجه آخر يضاف لوجوه الفيوم. ولكن الذي لم يعجبني هو أنك على استعداد للمشاركة في جرم مثل هذا!

أخرج سيجاره وأشعله، وأدار وجهه للنهر، وبنبرة تتصنع الهدوء:

- أي جرم؟ أنا أشتري قطعة فنية يخبرني صاحبها أنها ملك له. ثم هل يمكنك أن تخبريني عن الآثار المصرية الممتلئة بها متاحف العالم؟ من الواضح أنك تتجاهلين أن أكثر من نصفها وضع هناك عن طريق السرقة أو الرشوة أو منح كهدايا.

- ولكننا لم نكن شهودًا على ما حدث وقتها، ولم نكن أيضًا أحد الأطراف.

- ونحن أيضًا هنا لسنا شهودًا أو أحد الأطراف. هذا الشخص يملك قطعة فنية ويريد بيعها. وإذا لم نقم بشرائها فسيقوم غيرنا بذلك.

- وما الضمانات بأن هذه القطعة ملك له؟ هل معه ما يثبت ذلك؟ عثوره عليها في أرضه لا يمنحه حق ملكيتها.

- إن المومياء لا تهمني. ما يهمني هو اللوحة نفسها.

تذكرت وجه المرأة الملصوق على المومياء. اللوحة في مخزن المتحف لم تكن موضوعة على مومياء، وكان من الواضح أن أحدهم حاول نزعها من فوق المومياء الخاصة بها.

تداعت في رأسها عدة أسئلة. وللإجابة عليها، اعتذرت له بالذهاب إلى الحمام. أخرجت هاتفها، وقامت بالاتصال بأمين المتحف، فجاءها صوت الرجل من الجانب الآخر من العالم بترحيب كبير.

- أنت تعلم أننا نعمل في مشروع بحثي عن مومياوات الفيوم.

- نعم.

- لذلك أريد منك معلومات عن اللوحة الناقصة التي رأيتها عندك في المخزن.

- لا أتذكر الكثير من المعلومات عنها، ولكنها جاءت ضمن مجموعة "ثيودر جراف"، وأعتقد أنه تم العثور عليها في منطقة هوارة.

- ولكن، هل وصلت دون مومياء؟

- نعم. لم تكن ملصوقة على مومياء.

- غريب!

- ليس الأمر غريبًا، هناك لوحات لهذه الوجوه وجدت دون مومياء. تعرفين الفوضى والسرقة التي تحدث دائمًا أثناء التنقيب عن الآثار. على أي حال، يمكنني أن أراجع الأرشيف، وأرسل لك المعلومات كافة عن هذه اللوحة في إيميل مفصل.

- هل يمكن أن يحدث هذا الآن؟

- ستبقين دائمًا هكذا؟ لا يمكنك أن تنتظري!

- الأمر ضروري.

- حالًا. لا تقلقي.

شكرته وأغلقت الخط. إذًا قد تم العثور على إحدى هاتين الصورتين في الفيوم، والأخرى في الإسكندرية. أين كانت تعيش تحديدًا هذه المرأة؟ وما السر وراءها.

- هل نطلب الغذاء؟ في الحقيقة أنا جائع جدًّا.

أمسكت قائمة الطعام.

- بما أننا نجلس هنا في قلب القاهرة وعلى ضفة النيل دعنا نطلب طعام مصر. ما رأيك في حمام محشو بالفريك؟

- لا. لا أستطيع أن آكل هذا الطائر. لا أتصور حتّى أنه يمكن أن يكون موضوعًا أمامي على المائدة.

- عندما تتذوقه ستبدل رأيك.

- لا أفهم كيف وصل بهم الأمر أن يفعلوا ذلك.

- طبيعي أن تجد في مطابخ العالم المختلفة صنفًا أو اثنين لا تتقبل فكرة طهيهما وأكلهما. ومؤكد أن المطبخ اللبناني أيضًا فيه الشيء نفسه. في فرنسا مثلًا، يأكلون كبد الإوز المسمن، ويعتبر من أغلى أصناف الأكل. وبالنسبة لي، هو طبق يثير الغثيان بالرغم من أن مذاقه شهي جدًّا. ولكن الطريقة التي يستخرجون بها هذا الكبد تدعو للاشمئزاز. فهم يستمرون في تغذية الإوز وتسمينه بحبوب خاصة. حتى يسمن لحد أن بطنه ينفجر. وعندها، يستخلصون منه الكبد؛ وذلك حرصًا على احتفاظ الكبد بقيمته الغذائية، وبمذاق مخصوص سيفقده في حال تم ذبحه.

تطلع في هاتفه، ثم تبدلت ملامحه للحزن.

- هل هناك شيء؟

- أبدًا، خبر من ضمن الأخبار السيئة التي تحدث في لبنان. لا أعلم، وكأن القدر السيئ متربص به دائمًا. ما إن ينجُ بنفسه ويستعد لالتقاط أنفاسه، حتى تتربص به المشاكل مرة أخرى. ولكن هذه المرة، الأمر أصبح أسوأ بكثير.

- معظم المنطقة العربية حالها اليوم يرثى له.

- دعينا إذًا من الحديث عن ذلك؛ لأنه يثير الوجع داخلي. أخبريني، ما الذي اكتشفته في رحلتك للفيوم؟ هل وجدت شيئًا يفيد مشروعك البحثي!؟

دار السؤال في رأسها يبحث عن إجابة. هي لم تكتشف شيئًا يمكنه أن يفيد مشروعها. ولكن منذ ساعات قليلة وقعت على مفاجأة مذهلة تعتقد أنها ستقودها للكثير من الأشياء.

- لا شيء له أهمية. وعلى أي حال، رحلتي إلى هنا لم تكن من أجل البحث والاكتشاف، بقدر ما كانت زيارة لموطني، والأرض التي عاش عليها أولئك الأشخاص.

- ومتى سوف تبدئين في الكشف عن اللوحة؟ أتمنى أن أنهي هذه الصفقة في أقرب وقت.

- لماذا؟

نظر إليها بدهشة.

- لماذا!؟ لأنها صفقة مهمة، وعلي الفوز بها. كما أنني لا أثق في هذا الشخص، وأعلم تمامًا أنه يقوم بعرضها على آخرين. ولكن بخبرتك ألم تكتشفي ما إذا كانت هذه اللوحة أصلية أم مزيفة؟

كانت واثقة بنسبة تسعين بالمئة من أول نظرة ألقتها على اللوحة أنها أصلية. ولكنها لم تخبره بذلك، لأنه سيوقع الصفقة في الحال، ويقوم بالشراء، واللوحة ليست من حق ذلك الرجل الذي يدّعي امتلاكها. في الواقع، كانت في وضع محير؛ لا تعرف ما الذي يمكنها أن تفعله. ولكنها كانت على يقين أنها لن تسمح بأن تكون جزءًا من ذلك.

لاحظ وجومها فعلم أن هناك شيئًا ما يدور في رأسها.

- ذلك الرجل الذي يملك الأرض واحد من أكبر رجال الأعمال، وله نفوذ قوي، واستثمارات ومشاريع في أنحاء العالم كافة. بالإضافة إلى أن بينه وبين الحكومة شراكة في بناء

مدن جديدة لمحدودي الدخل من الشباب. يمكنك أن تقولي إنه رجل فوق نفوذ السلطات، وأعتقد أن هذا واضح جدًّا من الثقة التي كان يتحدث بها الناقد الفني الذي يقوم بدور السمسار.

- هل تعلم في أي من المناطق تحديدًا في الإسكندرية وجدت هذه المومياء؟

- في أحد المجمعات الخاصة التي بناها حديثًا عند أطراف المدينة. حدث تسرب للمياه في قبو إحدى فيلات المجمع التي يسكنها ابنه، فبعثوا في جلب مهندس المشروع. وأثناء حفرهم في القبو للوصول لمعرفة جذور المشكلة عثروا على المومياء.

- ومؤكد هناك مومياوات أخرى.

- وهل تعتقدين أنهم لم يبحثوا وراء ذلك؟

- مؤكد حدث.

وضع النادل أطباق الطعام، وكان على وشك أن يضع ملعقة الحساء في فمه عندما رن هاتفه.

- حسنًا. متى؟ وأين؟

بعد أن أنهى المكالمة:

- إنه هو، يخبرني أنهم جهزوا كل شيء وغدا بإمكاننا أن نتقابل في العاشرة صباحًا للكشف عن اللوحة والمومياء.

بنبرة استغراب.

- جهزوا كل شيء! ما الذي يعنيه هذا!؟ الأجهزة التي نحتاج إليها للكشف عن اللوحات والمومياوات خاصة جدًّا وغالية جدًّا. لماذا أشعر أنه ذهب واشتراها من المتجر أو السوبر ماركت مثلًا؟

- رنيم، لماذا تعقدين الأمور؟

- لأنها حقًّا معقدة! أم إنه يعتقد أنه يمكنني أن أستعين بأدوات بدائية مستهلكة للكشف عن آثار مهمة كتلك؟!

- هل يمكن أن تنتظري للغد؟ ويمكنك وقتها أن تقرري. وأعتقد أن الطعام أوشك على فقد حرارته، ولا أحب أن آكل طعامًا فاترًا.

من كلامه فهمت أنه لا يريد الخوض في مناقشة الأمر أكثر من ذلك.

قام بإيصالها للفندق. وقبل أن تغادر السيارة سألها:

- ماذا تنوين أن تفعلي في المساء؟

- ليس هناك شيء محدد.

- ربما نخرج للسهر في أي مكان.

- دعنا نتواصل لاحقًا.

بالرغم من جاذبية عرضه، كان في رأسها الكثير من الأفكار التي تجعلها غير مهيأة للسهر في أي مكان سوى خارج رأسها.

أخذت حمامًا سريعًا، وأعادت الاتصال بأمين المتحف الذي لم يمنحها فرصة. فبمجرد سماعه صوتها أخبرها:

- هل تفحصت "إيميلك"؟ لقد أرسلت لك كل ما يخص تلك اللوحة.

- شكرًا، سأتفحصه فورًا.

31

فتحت الملف، وبدأت في قراءته بتأنٍّ. اللوحة وصلت إلى المتحف ضمن مجموعة "ثيودر جراف". وعثر عليها في منطقة هوارة بالفيوم. وهي جزء مقتطع من لوحة لوجه امرأة في منتصف العشرينات من عمرها. وبالنظر إلى الملابس التي ترتديها فهي تشير إلى أنها متأغرقة؛ أي أنها تحمل الهوية المصرية والإغريقية معًا. تتضح إغريقيّتها من إكليل الغار الذي يزين رأسها، والذي اعتادت النساء الإغريقيات وضعه على رؤوسهن. أما عن حلية الإلهة إيزيس التي تضعها حول عنقها فهي دليل على مصريتها.

اللوحة رسمت في مرحلة متأخرة من رسم بورتريهات الفيوم. نوع الخشب والأدوات المستخدمة في الطلاء تظهر فقر العمل، وذلك لتراجع الاهتمام بهذا النوع من الفن في تلك المرحلة المتأخرة منه. الجزء الموجود حالته جيدة جدًّا؛ وذلك نظرًا للمناخ الترابي الذي بقيت فيه. قامت بتكبير اللوحة وتأملتها بدقة متناهية. لاحظت اختلافًا في اللون ونوع الطلاء مقارنة مع اللوحة الأخرى.

وضعت رأسها على الفراش فغالبها النعاس. وعندما استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بقليل. وجدت مكالمة ورسالة صوتية منه. يخبرها فيها أنهما مدعوان على العشاء في مطعم الفندق الذي يملكه رجل الأعمال صاحب المومياء.

ضحكت بسخرية عندما سمعت "صاحب المومياء". هل حقًّا الأمور تسير بمثل هذا الشكل!؟ كيف يمكن أن يدّعي شخص حق ملكيته لمومياء لمجرد أنه عثر عليها في باطن أرضه؟! ضحكت بسخرية أكثر عندما تذكرت إحدى الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحد المستشرقين في منتصف القرن التاسع عشر لبائع جوال يقف على أحد الأرصفة وفي حوزته عدد من المومياوات يبيعها.

أرسلت له رسالة تخبره فيها أنها مستعدة للذهاب وستكون في انتظاره في التاسعة ببهو الفندق.

وفيما هي ترتدي ملابسها، كانت تتساءل: بماذا كان يغري بائع المومياوات المتجول زبائنه لشراء المومياء "مومياء للبيع، اشترِ مومياء محنطة واحتفظ بها في منزلك تجلب لك الحظ والخير!"

هل ما يحدث الآن هو نفسه ما كان يحدث منذ مئات السنوات ولكن بشكل أكثر أناقة وحداثة؟ مع اعتبار فارق الأسعار بحكم الزمن، وبحكم القيمة التي لم تكن معروفة في وقت سابق. فسعر لوحات الفيوم تعدى خمسين مليون دولار.

في النهاية، ألقت نظرة رضى على مظهرها في المرآة. لم يكن هذا المظهر الأنيق والجميل بدافع مزاجها الجيد. فهي ليست في مزاج جيد على الإطلاق. غيظها وحنقها أجبراها على أن تنفّس عنهما في تجميل وجهها بما يطلق عليه وايلد لوك. وقع اختيارها على فستان من شكل جلد الحمار الوحشي- خطوط متعرجة ومتداخلة من اللون الأسود على خلفية بيضاء- مناسب جدًّا لمزاجها. وتركت شعرها في خصلاته المموجة يثور خلفها.

لم تسع من ذلك إلى تحقيق المظهر فقط، فما قيمة أن يكون مظهرنا وحشيًّا، ونحن في داخلنا أليفون ومستسلمون كقط اعتاد أن يستكين عند قدم صاحبه؛ يتمسح به، وينتظر منه لمسة حنان؟ كان كل ما بداخلها يعوي، يزأر، يزوم. وكانت تريد أن تركض بقوة وتنقض على أولئك اللصوص والأفاقين.

وجدته وقد سبقها إلى بهو الفندق يجلس في انتظارها، يتناول فنجانًا من القهوة. رفع حاجبه إعجابًا عندما رآها.

- تبدين مختلفة!

- للأجمل أم...

- في جميع أحوالك أنت جميلة. ولكن، هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها تبالغين في وضع المكياج، و"موديل" الفستان ولونه وحتّى عطرك أيضًا فواح ومثير.

- فكرت أن أخرج من رداء الحمل الوديع لبعض الوقت.

- لم أرَك إطلاقًا كحمل وديع. أنت دائمًا عنيدة، ومشاكسة، وذكية، وسريعة الغضب أيضًا.

ابتسمت.

19

الفيوم، القرن الأول بعد الميلاد

كانت فكرة عودته لرسم وجوه الموتى فكرة جيدة، ولكنه لم يملك أي أدوات ليعمل بها، ولا يملك أموالًا ليشتري بها.

كما أنه غريب عن المكان، ولا يعرف كيف ومن أين يمكنه الحصول على الأصباغ. كان معلمه ينتظر السفن التي تأتي من بلاد ما وراء البحار والتي يحمل تجارها مواد يستطيع بها صناعة الأصباغ بخلطها ومزجها.

كانت المواد مكلفة وباهظة، ولكنها تعطي نتيجة ممتازة. نبات الفوة، مع طحن مسحوق زهرة الكركديه المجفف الذي يمنح اللون الأرجواني، وبودرة القصدير التي تمنح اللون الذهبي، والترامارين وهي صبغة زرقاء مستخرجة من اللازورد يتم استيرادها عبر البندقية من أفغانستان ومنها إلى الإسكندرية. كل هذه الألوان الناطقة المثيرة الجذابة تجعل اللوحة بديعة وتكاد الوجوه التي بها تنطق. وبالرغم من أنها لشخوص فارقوا الحياة، ولكن النظر إليها نشعر أنها ممتلئة بها.

تعوَّد أن يجلس بجوار معلمه وهو يمزج المواد معًا، وتعلم منه طرق خلطها، والإضافات التي توضع عليها بكميات محسوبة بدقة لتعطيها ثباتًا ورونقًا خاصًا. حقيقي أنه لا يملك المواد الخام التي تؤهله لفعل ذلك، ولكن بإمكانه أن يتصرف؛ فجميع هذه الألوان مستخلصة من الطبيعة، والطبيعة حوله عامرة وسوف يقوم هو بنفسه بصناعة الصبغات، و سيعثر على المواد. سيستخلصها من النباتات، من الحشرات، من التربة، من الحيوانات. سيصنع ألوانه بنفسه، فهو ليس بحاجة لسفن تأتي عبر البحر، وليس بحاجة لمناقشة الأسعار مع تجار يرطنون بلغات لا يفهمها. والأهم من ذلك كله، هو لا يملك أموالًا ليدفعها.

يمتاز إقليم الفيوم بأنه إقليم زراعي وبه مناطق صحراوية. وهذا بالنسبة له جيّدًا جدًّا. فمن التربة الخصبة ومن رمال الصحراء سيستخلص كل ما يحتاجه. انشغل بإجراء التجارب. تجربة بعد أخرى، ويومًا بعد آخر، أخذ يتعمق وينجذب لهذا العمل المبتكر، وتحول من فنان لخبير الوان. يضع المواد بدقة متناهية لأنه يعلم أن الكمية لو زادت أو قلت بمقدار بسيط جدًّا فلن تمنحه اللون المطلوب. صبغة الفوسفات والنحاس منحته لونًا ذهبيًّا مميزًا، وبالجمع بين أصباغ زرقاء وصفراء حصل على لون أخضر. أما مسحوق زهرة الكركديه الجافة فمنحه اللون الأرجواني. كان يقوم بطحن الأصباغ يدويًا في زيت بذر الكتان المضغوط الذي يكسبها سماكة مطلوبة.

استطاع أن يفعلها، وابتكر من مكونات غريبة: الحشرة القرمية، توت النبق، عظام الأغنام؛ مياه الأمطار والصدأ. نعم، هكذا، استطاع أن يصنع ألوانه من كل ما طالته يده.

أما عن فرشاته فقد صنعها من شعر القطط وسعف النخيل. حتّى مشكلة الخشب استطاع أن يتغلب عليها. لم يعد شرطًا أن يرسم لوحاته على ألواح الخشب الباهظ التي كانت تستورد من الخارج، بل جرب خشب شجرة التين الموجودة في حديقته، ووجد أنه لا بأس به، وشعر بالراحة لأن هذه الشجرة موجودة بوفرة في الإقليم.

استطاع أن يصنع لنفسه ألواحًا خشبية بعد قطعها بطريقة معينة، ومعالجتها بمواد خاصة، ووضع الألواح بعد ترقيقها وتثبيتها من الأطراف بأثقال رخامية ودهنها بورنيش مخصوص، وبدأ في الرسم عليها. لم يشكل الاختلاف مشكلة كبيرة؛ حتى إنه لم يكن بالإمكان ملاحظته بسهولة. صحيح أن نوع الخشب الآخر يمنح الرسم رونقًا خاصًّا وثباتًا أقوى، ولكن هذه الألواح الاقتصادية استطاعت أن تفي بالغرض.

في وقت قصير ذاع صيته، وبدأ ينافس الفنانين اللذين يسكنان المدينة. وبالطبع، لم يعجبهما الأمر؛ فبعد أن كان أهالي مدينة الفيوم يلجأون إليهما، أصبحوا يطلبونه بالاسم. لتميزه عنهما في كل شيء: مهارته، سرعته، إبداعه، رخص أجره.

تحيّرا وتساءلا: من يكون هذا الشخص؟ ومن أين ظهر فجأة؟ وكيف تعلم هذه الصنعة بمثل هذه المهارة الفائقة؟ ولماذا لا يظهر خارج سياج حديقة منزله؟ فهو بالكاد يغادرها، ولم يكلفهما الأمر الكثير من البحث وراءه ليعرفا كل شيء.

فبالرغم من براعته واختلاف مواده المستخدمة، إلا أن واحدًا منهما عندما شاهد أعماله تأكد أنه تتلمذ تحت يد الفنان الإغريقي "ماكديوس" الذي كان مفهوم رسم وجه المتوفى له فلسفة خاصة عنده، ولم تكن دروسه في تعاليم الرسم تتوقف فقط على الجزء العملي، ولكن الأهم بالنسبة له - وخاصة في رسم وجوه الموتى- الجانب المنهجي والفلسفي، كان الفنان الذي اكتشف ذلك ذهب ليتتلمذ على يد ماكديوس؛ وذلك بعد أن ذاع صيته في عموم البلاد. ولكن ماكديوس المتزمت والحازم لم يعجبه عدم التزامه بالدروس، وطلب منه عدم الحضور مجددًا.

وبعد توقف المعلم الإغريقي الشهير عن الرسم لسبب مجهول لم يفهمه أحد، ذاع صيت أوناس- أحد تلاميذه- في رسم وجوه الموتى. وكانت أعمال التلميذ تفوق أعمال المعلم جمالًا وبراعة. ولكن كانت تسير على النهج نفسه؛ وكأن الشخص نفسه هو من رسمها، ولكن بعد أن أصبح أكثر خبرة ومكانة.

إذًا، من يسكن ذلك المنزل، ومن يرسم صور الموتى في المدينة، ومن ذاع صيته فيها هو أوناس الذي رسمت صورة له هو ومجموعة من الرجال على ورق بردي، وعلقت في اكبر ميدان بمدينة الإسكندرية، وقررت الحكومة الرومانية دفع مكافأة كبيرة لمن يذهب لمخفر الشرطة ويدلي بأقوال تفيد بأنهم ما زالوا على قيد الحياة.

كانت المكافأة كبيرة ومغرية، وذلك بسبب التقرير الذي ذكرته الحكومة؛ وهو أنهم هم من قاموا بالتحريض على الثورة في مدينة الإسكندرية، وهم المنظمون لها، وهم السبب في خروج الشعب على حاكمه؛ مما تسبّب في غرق المدينة الهادئة المطمئنة في براثن الفوضى والقتل. أنهم مجموعة من الرعاع الذين لا يعيرون القانون والإمبراطورية أي اعتبار.

لم يشغل بال الفنان ما جاء في هذا المنشور الذي رآه عند زيارته للإسكندرية ليشتري صبغات للرسم، ولم يستوقفه. ولكن لاحقًا، عندما تذكر أنه رأى هذا الوجه في المدينة، وعلم بعدها أنه الفنان الذي سكنها مؤخرًا، وتأكد أنه صاحب هذه اللوحات، هرع للإبلاغ عنه. فبالإضافة للمكافأة الكبيرة، ذلك سيمكنه من أن يتخلص منه للأبد.

لذلك لم يضيِّع وقته، وسافر على عجل للإسكندرية، وذهب لمخفر الشرطة ليبلغ عن أوناس وجماعته. عندما استقبله الضابط، وعلم أنه جاء بمعلومات عن الشخص الذي وضعت صورته في

الميدان، على غير المتوقع تم تقييده وحبسه في غرفة مظلمة. وبعدها بوقت قليل، حضر نائب الإمبراطور ليشهد التحقيق الذي منع فيه حضور أي شخص باستثناء كبير محققي الشرطة الذي كان ليوناردوز يثق فيه ثقة كبيرة.

بعد أن أدلى الرجل بأقواله، وبلّغ عن كل ما يعرفه عنه منذ ظهوره في المدينة هو وعدد من الرجال، وأنهم يعيشون بمنأى عن الجميع في شك وريبة.

أخذ المحقق يلاحقه بالأسئلة: كم عدد أولئك الرجال؟ وهل هم كما يظهرون في الصور؟ وهل بينهم سيدة؟

لم تفِدهم إجابته؛ فهو لم يتحقق جيدا من ملامحهم، فهم دائمًا في عجلة من أمرهم، ويتحاشون النظر في وجوه المارة. كما أنه لا يعلم عددهم، ولا يعرف أسماءهم، ولم يشاهد بينهم سيدة.

عندما انتهى المحقق من التحقيق معه، أومأ له نائب الإمبراطور برأسه، وغادر المكان وسط حراسه الذين كانوا ينتظرونه بالخارج. ولم يفهم أحد منهم ما الذي يحدث في الداخل. خرج المحقق، وبالإيماءة نفسها التي أشار له بها ليوناردوز، أشار بها للسياف الذي دخل الغرفة، فسأله الفنان بصوت واهن:

"متى سوف تفكّون قيدي وأحصل على المكافأة؟ أرجو أن يتم ذلك الآن. يجب أن أعود لمدينتي على وجه السرعة لأرسم صورة لشخص إغريقي متوفى ذي مكانة كبيرة وسأتقاضى عنها الكثير من الأموال".

"لا تقلق. حالًا سوف أمنحك الحرية".

ثم بضربة واحدة قوية، فصل رأسه عن جسده، وأغلق الباب وراءه ورحل.

20

الإسكندرية، القرن الأول بعد الميلاد

لم يعلم بهروب سيرينا أحد. فبعد هروبها مباشرة، قامت الثورة، وعمت الفوضى، وغضب الإمبراطور كثيرًا على نائبه، وتعرض منصبه للخطر. وكان خبر هروبها وانضمامها لحركة الثوار سيكلفه الكثير، وليس فقط الإقالة من منصبه. إذ إن فكرة زواجه من امرأة مصرية لم ترق للإمبراطور منذ البداية، بالإضافة إلى أن فشله في فرض سلطته عليها وخضوعها له سيجعل الإمبراطور يشك في قدرته على فرض سلطته ونفوذه على المقاطعة التي تعتبرها الإمبراطورية المقاطعة الأكثر أهمية من بين المقاطعات الواقعة تحت استعمارها؛ فهي بالنسبة لها كنز لا يمكن التفريط فيه.

بالإضافة لأهميتها الحضارية والثقافية وموقعها الاستراتيجي الذي يمنح الحماية للإمبراطورية في أفريقيا والشرق، تتميز بخصوبة أرضها ووفرة تربتها؛ مما جعلها مورد الغلال الأول للإمبراطورية الرومانية؛ فكانت خيرات أرضه تعبأ في السفن وترسل إلى هناك لينعم بها الرومان. ونظرًا لأهمية كل ذلك، لن يتوقف الأمر بالتّأكيد عند إطاحته من منصبه، فمن الجائز جدًّا أن يحاكم بتهمة الخيانة العظمى. مؤكد سوف يشك به الإمبراطور، فكيف يضمه فراش واحد مع امرأة اتحدت مع ثوار ضد الحكم الروماني؟! فمؤكد نائبه الذي اختاره بناء على ذكائه وتفرده لن يخدع بهذه السذاجة، ومؤكد له يد في ما حدث؛ فربما كانت له مطامع، كتحرير المقاطعة من تحت الحكم الروماني والانفراد بالحكم لنفسه.

لذلك فكر أنه من الأفضل أن يجعل الأمر طي الكتمان. أما عن الأشخاص القليلين الذين علموا بأمر هروبها عندما كان يبحث عنها وهو في ذروة غضبه تم قتلهم جميعًا، وبذلك لم يعرف

أحد بأمر انضمام زوجته إلى الثوار سوى سكرتيرته الشخصي الذي كان يعلم تمامًا أنه شخص وصولي وطماع، وأن الإغداق عليه بالمنصب والمال سيجعله يخرس للأبد.

شكل أمر هروبها إحساسًا جارفًا لديه بالنقص، وشعر تجاهها بكراهية كبيرة، ورغبة جارفة في الانتقام؛ لدرجة أن كابوسًا واحدًا ظل يراوده ليلة بعد أخرى، كان فيه يقبض على رقبتها بذراعيه القويتين.

في سرية تامة، بدأ البحث عن سيرينا وأعضاء المجموعة التي انضمت لها، والذين توصل لأسمائهم بعد بحث مضنٍ. أوكل هذه المهمة لكبير المحققين، وهدده بأن لو علم أحد بالأمر فسيلقي بجسده للتماسيح لتأكله حيًّا. لذلك، باشر المحقق عمله في حذر شديد، حتى إنه أحيانًا كان ينسى أن زوجة النائب هي حقًّا من يبحث عنها.

المعلومات التي أخبر بها فرقة البحث قليلة جدًّا، تكاد تكون معدومة. ربما هي معلومة أو اثنتان. لذلك طلب منه رئيس الفرقة أن يمده بمعلومات وافية وأكثر دقة ليستطيع البحث مع فريقه بشكل أفضل، فأقاله كبير المحققين من منصبه، وجلب آخر بدلًا منه، وذلك ليكون عبرة للجميع، وليعلموا أن أي سؤال يخص هذا الموضوع سيلقي صاحبه عقابًا كبيرًا. فكل ما يمكنهم أن يعرفوه في هذا الموضوع هو أنهم يبحثون عن امرأة في منتصف العشرين من عمرها.

بدأت رحلة البحث عنها في أنحاء المدينة: في البيوت، في القباب، في المعابد، في السفن، وفي السجون أيضًا. لم يفهم أحد ما يحدث. ولماذا يقتحم هؤلاء الرجال أماكنهم ويقلبونها رأسًا على عقب دون التفوه بكلمة واحدة، ودون الإفصاح عن الشيء الذي يبحثون عنه؟! طريقتهم في البحث تفيد بأن الأمر في غاية الأهمية والقيمة.

ولكن، لم يفهم أحد ولم يعرف أحد. لذلك، أخذوا يضربون أخماسهم في أسداسهم، ويروّجون الحكايات الخرافية. أذاع أحدهم أنهم يبحثون عن بردية دوِّن فيها سر بناء الأهرامات، وفي أخرى أنهم يبحثون عن صولجان الملك مينا الذي يمنح القوة والخلود. وقيل إنهم يبحثون عن قناع ذهبي كان السبب وراء انتصارات الإسكندر الأكبر في جميع معاركه. وبالرغم من اختلاف الأقاويل، وكثرة الشائعات وغرابتها، لم يخطر ببال أحد قط أن من تبحث عنه كتيبة خاصة للمخابرات الرومانية هو سيرينا؛ زوجة نائب الإمبراطور التي تركت وراءها كل شيء وذهبت لتسكن بيتًا

فقيرًا من الطين. فمن يراها اليوم بالكاد يتعرف عليها بعد أن قصت شعرها الجميل وفقدت وزنها ومعه بريقها، وأصبحت بشرتها شاحبة كالموتى.

32

القاهرة 2018

في طريقهما إلى الفندق ذي النجوم الخمس المطل على نيل القاهرة أخبرها:

- رنيم، أرجو منك عدم إثارة أي حديث بخصوص ملكية اللوحة أمام هؤلاء الأشخاص. فالوضع كما تعلمين حساس، وهؤلاء الناس نفوذهم قوي وكبير.

لم تجِبه، ولكن النظرة التي رمقته بها حملت كل الكلام.

أصبحت لا تفهمه! هل هو حقًّا كما أخبرها محب للفنون، يبحث عن كل ما هو جميل فيه!؟ أم مجرد تاجر لا فرق بينه وبين أي تاجر آخر؛ كل ما يهمه هو الدولارات التي ستضاف إلى رصيده، ولا يهم أي شيء آخر. ولكن، إن كانت هذه الطريقة التي يفكر بها، ما الذي سيجعله يدفع كل هذا المال لتمويل المشروع!؟ أيكون قد فعل ذلك للشهرة وللحصول على صفقات هامة من هذا النوع؟ فقد أخبرهما الوكيل، أنه تعرف عليه من خلال انضمامه للمشروع.

كان من الممكن أن تخبره بجميع هذه التساؤلات وهو يجلس بجوارها على المقعد الخلفي للسيارة. كان يمكنها أن تلقي بكل هذه الشكوك في وجهه دفعه واحدة. ولكن، وهو الذكي جدًّا والمتمرس في فنون البيع والشراء، والربح والخسارة، هل كان سيتعذّر عليه أن يخبرها بكلام مقنع ليبرئ نفسه من هذه التهم؟

- هل هناك شيء؟

- أبدًا.

- إذًا، لماذا أنت صامتة على غير العادة؟

قالها بمزاح، ولكنها لم تكن بحال تسمح بالمزاح.

توقفت السيارة أمام بوابة الفندق الدوارة. حضر عامل سريعًا وفتح الباب مرحبا بهما بابتسامة عريضة.

وضع كفه على ظهرها كملاك حارس. لمسته لها جعلت جميع الأفكار التي شغلت تفكيرها طوال الطريق تذهب أدراج الرياح.

الحفل في مطعم بالروف بالطابق العشرين بالفندق، والدخول يقتصر على من وضعت أسماؤهم في قائمة المدعوين.

استقبلهما رجل مرحبًا.

- الإمبراطور في انتظارك.

نظرت إليه لتتأكد من أنها سمعت الكلمة جيدًا. هل حقيقي هذا الرجل قال "الإمبراطور؟ تراه أي إمبراطور؟ وما الإمبراطورية التي يحكمها!؟

ثم قاد خطاهما إلى الداخل حيث وجدا الإمبراطور يتوسط أصدقاءه ومعارفه. لم تكن في حاجة لتعرف أنه هو، إذ كان يبدو عليه وهج لقب الإمبراطور. أناقه مفرطة، كل شيء فيه يلمع ويتوهج: شعره الفضي الذي ثبّته بالكثير من مواد التثبيت ليبقى متماسكًا كقبعة فوق رأسه، فصوص الألماس التي كانت تبرق من كل شيء فيه، "البيبون"، أزرار سترته، دبابيس القميص، حلية الحذاء، مكبس الحزام، الخاتم في إصبعه، الساعة في يده. في منتصف السبعينات تقريبًا، ولكن مظاهر الثراء تجعله يبدو أقل من عمره. بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بجسد قوي البنيان في مداومته على تمارين رياضية. كل شيء فيه يبدو فتيًّا. وحدهما عينياه كانتا تكشفان عن عمره؛ فهما ضيقتان، غائرتان، فقدتا شبابهما وحيويتهما، كعيني سمكة نافقة.

شدّ على يد يزن بقوة مرحِّبًا به. ثم ألقى عليها نظرة فاحصة عندما عرفه يزن بها "رنيم عبد المولى"، أمينة متحف "أوفيزى".

بدا أنه دخل في تفكير عميق وانفصل عن الزمان والمكان، ثمّ سريعًا عاد وشدّ على يدها مصافحًا.

توالت التعريفات التي في واقع الأمر كانت تبدأ بـ "حضرة سعادة، حضرة معالي، باشا، بك..." وزراء، رؤساء هيئات حكومية، دبلوماسيون، رجال أعمال مصريون وعرب وأجانب. كان المكان مزدحمًا بالرتب، والثراء، والفخامة.

دخل يزن مع الرجل في حديث عن الأوضاع الاقتصادية العالمية، وبورصات لندن ونيويورك. اقترب منهما حسام محييًا، كان مظهره يختلف عن هو عليه في المكتب؛ بدا نافشًا ريشه كطاووس مغرور. ربما لأنه يقف في حِمى والده الإمبراطور. بينما وقف الناقد الفني خلفه بعدة خطوات، وكأنه لا يحق له أن يقف بجواره أو يجاريه في الخطوات. كان من الواضح أنه من أولئك الشخصيات المنتفعة وعديمة المنفعة في آن، الذين يشعرون ويعلمون بدونيتهم ويتطفلون على الطبقات العالية من المجتمع ليكتسبوا شهرة زائفة.

كان فحش الثراء وجبروته واضحين بمجرد أن تطرق قدمك المكان؛ صوانٍ من الذهب وضعت عليها كاسات مرصعة بالألماس من أفخر أنواع الشمبانيا. صوانٍ أخرى تقدم أفخر أنواع السيجار. شعرت بالتوتر، لم تعتد على مثل هذه التجمعات؛ بالرغم من أنها كانت دائمًا متطلعة وتريد أن تعيش حياة مختلفة عن الحياة المتقشفة التي عاشتها. ولكن، كانت الأمور هنا زائدة عن الحد. حتى ثمن الطعام الذي يقدم كافٍ لإطعام قرية فقيرة لمدة عام على الأقل. ولم تفهم هل هو تبذير؟ أم مظاهر اجتماعية فاجرة؟

لاحظ وجومها فسألها بنبرة قلق

- أمتأكدة من أنه ليس هناك شيء؟

لم تستطِع أن تخبره طبعًا بما يدور في رأسها؛ لأنه هو أيضًا من هذه الشريحة المجتمعية.

هل يمكن أن نلوم الناس عن ثرائهم والحياة الميسورة التي اعتادوا عيشها!؟ أي إنسان يعيش في وضع مادي متأزم، وفجأة يجد نفسه ثريًّا، ألن يحقق أحلامه في عيش هذه الحياة!؟ يحلم الفقراء

بالثراء ليحققوا أحلامهم، وكلما زاد المال زاد سقف الأحلام في العلو. أليست هي نفسها فعلت ذلك؟ فلمَ الغرابة إذًا!؟

فرقة موسيقية أوروبية شهيرة تعزف في إحدى زوايا "الروف"، بينما الندل لم يتوقفوا عن التجول بصوانٍ تحمل صنوفًا مختلفة من فواتح الشهية من الكافيار والسلمون، وأطباقا من لحوم الغزلان والنعام، ويقدمون بعدها الحلوى التي صنعتها أشهر محلات الحلويات الفرنسية وجاءت على متن طائرة خاصة.

يفعلون ذلك حسب بروتوكول تقديم الطعام "فواتح شهية، حساء، سلطة، طبق رئيس، حلو". وبين كل نوع والذي يليه وقت كافٍ لتناوله. كانت تريد أن تعرف من الشخص الذي رتب هذه اللائحة بهذا الشكل؛ وكأنه المعني بأذواق الناس، وعاداتهم، ومعداتهم على صغرها أو اتساعها. هي مثلًا لا تحب تناول الحساء، وتفضل أن تضع في طبقها أنواع الطعام كافة مرة واحدة، وتبدأ في التهام ما تفضله دون ترتيب.

أيعود ذلك مثلًا إلى أنها لم تعتَد على أكل عدة أصناف؟! كانت أمها تقوم بطهي صنف واحد فقط، وفي الغالب كان عبارة عن وجبة من الخضار أو النشويات. أما البروتين الحيواني فنادرًا ما طبخته. كانت تستعيض عنه بالبروتين النباتي، ويأخذ والدها وقتها في شرح فوائد البروتين النباتي وذكر محاسنه، ويعقد مقارنة بينه وبين البروتين الحيواني المضر بالصحة.

كانت طفلة مطيعة تأكل ما يقدم لها. لم تتذمر يومًا من أجل طعام. في الكثير من الأحيان، كانت شهيتها تتوق لأصناف أخرى؛ مثل تلك الشهية التي تحكي عنها زميلاتها عنها أو تتسلل رائحتها إلى أنفها من نوافذ مطابخ الجيران. أوقات كثيرة أثناء مرورها من أمام دكان الجزار كانت تقف خلف الواجهة الزجاجية وتنظر إلى صنوف اللحوم المختلفة، وتراقبه وهو يقطعها برقة وحرص كجراح يحرص على جسد مريضه.

لم تفهم ما الذي يصنعه الرجل ذو الصدغين المتهدلين والبطن السمين، الذي يرتدي معطفًا أبيض مثل الأطباء وقبعة منفوخة وعالية فوق رأسه؟ ولماذا يحرص على تقطيع اللحوم بأشكال مختلفة: مكعبات صغيرة، ومكعبات كبيرة، شرائح، دوائر... أليست في النهاية جميعها لحم، وجاءت من حيوان واحد، ولها مذاق واحد!؟

وذات يوم، وهم حول مائدة الطعام، طرحت هذه الأسئلة على أبيها، فأجابها بأن المذاق واحد، ولكن كل جزء له طريقة طهي مختلفة، ووقت للنضج مختلف. وأيضًا الأجزاء التي تتم تسويتها بسرعة هي أكثر ثمنًا من التي تأخذ وقتًا أطول في الطهي. بعدها بعدة أيام، عندما عاد من عمله، كان يحمل في يده لفافة كرتون مبقعة بلون أحمر، وأخبرها مبتسمًا: "سأعد لك أطيب طبق لحم".

سعدت، فأخيرًا سوف تتذوق ما يدعى اللحم. طها أبوها وجبة من اللحم والخضراوات شهية جدًّا. وأمام ما كلفه من مال للاستمتاع بلذة هذا المذاق الذي بقي في الفم لدقائق معدودة، عاشوا بعدها أيامًا من التقشف.

وجدت نفسها تزيح الطبق الذي وضعه النادل أمامها، قطعة ستيك غارقة بصوص "الشامبنيون"، وقطع من الخضار السوتيه؛ فهذه الذكرى أفقدتها شهيتها وأصابتها بالغثيان.

- هناك أصناف أخرى في حال كنت لا تريدين تناول هذا الصنف.

- لا أشعر بالجوع.

- من الواضح أن هناك أمرًا مهمًا يشغل تفكيرك.

- ربما لأني لا أحب هذه الأجواء.

- عندما ذهبنا لحفل رجل الأعمال الكوري أخبرتني أيضًا أنك لا تحبين هذه الأجواء. أي أجواء تفضلينها إذًا!؟

- لم أتعود على هذه الأجواء الاحتفالية الصاخبة.

- ليست هناك أي أجواء صاخبة. فالموسيقى هادئة، والأضواء خافتة، ومستوى المدعوين راقٍ.

هل تخبره أنها تتحدث عن صخب آخر؛ صخب الثراء وفحشه؟ ولكنها صمتت.

- لا أعرف تحديدًا ما مشكلتك! ولكن أيًا كانت، أنت شخصية عامة، وأمينة واحد من أهم متاحف العالم، وعليك الاختلاط مع طبقات مختلفة ومتميزة من المجتمع.

طبعًا، كان جزء كبير من كلامه صحيحًا، وعليها أن تزيل هذا الوجه المتكدر وتضع ابتسامة.

هناك ثلاثة من الحراس الشخصيين الأجانب يتبعون الإمبراطور كظله. إنهم ليسوا كالحراس الذين اعتدنا رؤيتهم؛ فهم طوال، ومفتولو العضلات، وتكاد أوتارهم تتمزق من قوة بنيتهم. يبدون رجال عاديين، ولكن من الواضح أنهم على درجة عالية جدًّا من الذكاء والتدريب. اقترب الإمبراطور من طاولتهم، وأزاح مقعدًا وجلس، وقال بصوت رفيع وحاد:

- زرت متحف "أوفيزي" بفلورنسا مرتين في حياتي. أعتقد أن المرة الأولى كانت قبل مولدك. به قطع فنية مذهلة. مؤكد تملكين الذكاء الكافي لتشغلي مركزًا هامًا مثل هذا.

بعد برهة أضاف:

- أين تلقيت تعليمك؟

- أكاديمية فلورنسا للفنون.

هز رأسه إعجابًا.

- إنها واحدة من أهم وأشهر أكاديميات الفنون في العالم، والدراسة فيها مكلفة جدًّا.

ورمقها بنظرة من يقيس مظهر شخص لمعرفة مستواه المادي، ثم وهو ينفث سيجاره السمين:

- هل عبد المولى لقب عائلتك؟

- إنه جدي لأبي. اسمي بالكامل رنيم مصطفى عبد المولى.

ضيّق حدقة عينه، وهز رأسه:

- ومنذ متى تعيشين في إيطاليا؟

- انتقلنا إلى هناك وأنا في أعوامي الأولى. أنا لست من عائلة شديدة الثراء، وكل ما في الأمر أنني كنت متفوقة دراسيًّا، فحصلت على منحة مجانية.

هز رأسه:

- عظيم... عظيم.

لم تفهم ما العظيم بالتحديد: أنها من عائلة بسيطة، أم تفوقها دراسيًّا؟

فجأة، غادر الطاولة بعد أن كست وجهه ملامح واجمة، فتبادلت النظرات هي ويزن، ولاحقًا أثناء عودتهما، قالت له:

- ألا تجد أن هذا الرجل غريب الأطوار؟

- مؤكد.

- لماذا مؤكد؟

- لأنه فاحش الثراء، وواسع النفوذ.

لم تقتنع بكلامه. فليس هناك مبرر ليكون كذلك. ولكنها لم تحاول أن تناقشه؛ إذ كانت مجهدة، وتعلم أنه يملك دائمًا طرقه للإقناع. لم يكن من هذا النوع الذي يتركك تعتقد أن أفكارك التي هي عكس أفكاره صحيحة. بل، يحاول إقناعك بشتى الطرق بأنه هو الذي على صواب.

33

في العاشرة من صباح اليوم التالي، كانت تقف وسط مجموعة من الخبراء للكشف عن المومياء بعد نقلها إلى مختبر وطني يعدّ أبرز مركز بحثي يعمل تحت إشراف مجموعة من البلاد الأوروبية التي تمول مشاريعه بالدعم المادي والبحثي.

تحدث خبير على مشارف الستين بهيئة جادة:

- تواصل معنا السيد حسام، وأخبرنا أنك تريدين نقل المومياء للخارج للكشف عنها بطرق حديثة. يمكنك أن تطمئني، هذا المركز واحد من أهم المراكز والمختبرات البحثية في العالم.

أشار لأحد الأجهزة الذي يشبه مركبة فضائية وتابع:

- هذا الجهاز مثلًا يستخدم التكنولوجيا الفائقة للمسح على الكثافة بأشعة إكس السنكروترونية بهدف إجراء دراسة تفصيلية ثلاثية الأبعاد لجسم المومياوات. يظهر أدق المحتويات غير الظاهرة أسفل الأربطة، وذلك دون إتلاف طبقات الأقمشة حول الجسم. إنها طريقة يسلط فيها حزم مركزة من ضوء كثيف لمسح أي هيكل أسفل السطح، وذلك طبعًا بعد وضعها تحت الأشعة السينية.

أضاف وكأنه يلقي محاضرة:

- أهم مميزات تكنولوجيا أشعة إكس السينكروترونية أنها تتيح للباحثين إمكانية دراسة الهيكل الداخلي لأي شيء داخل المومياء، بطريقة أكثر تفصيلًا مقارنة بأي عمليات مسح أخرى.

وأشار لجهاز آخر.

- وهذا الجهاز يمكننا من خلاله فحص الأسنان والهياكل بحزم أشعة إكس "فائقة الضوء والأشد طاقة" تكنولوجيا النانو.

ثم بنبرة ثقة:

- وبذلك، أعتقد لن تحتاجي لنقل المومياء لأي مكان آخر.

- لم أعرف أن في مصر مراكز ومختبرات بحثية بمثل هذا القدر من التكنولوجيا. هذه الأجهزة غير موجودة حتى في أكبر دول العالم.

بنبرة لم ترتَح لها أجابها:

- ها أنت تعرفين الآن!

شعرت أن الجميع يعاملونها بغرابة؛ يظهر ذلك يظهر بوضوح في تلك النبرات والنظرات، ولم تفهم السبب. ربما كانوا جزءًا من هذه الصفقة وعلموا أنها لا تريد إتمامها، أو أن طلبها نقل المومياء للخارج للكشف عنها جعلهم يعتقدون أنها تشكك في قيمتهم وقدراتهم. وبدلًا من أن تبادلهم تلك النظرات والنبرات، وضعت على وجهها ابتسامة.

- ولكني لم أتعرف عليك.

- أنا خبير تشريحي في المومياوات.

اكتفى بقول ذلك وكأن ليس له اسم! من الواضح من مظهره وطريقة حديثه أنه يملك الخبرة الكافية التي تؤهله ليعمل بمنصب مهم للكشف عن الآثار. ومشاركته في أمر مثل هذا سيجعله يفقد منصبه بالتأكيد، فكان من الأفضل ألا تعرف اسمه.

ولكنها اقتربت منه مصافحة.

- تشرفت بمعرفتك سيد...

وضع ابتسامة ساخرة على وجهه وأجابها:

- يطلقون عليّ "المدهش".

- سعدت بمعرفتك سيد مدهش.

- أعتقد أنه قد حان وقت العمل.

كان بصحبة السيد المدهش بروفيسور آخر وثلاثة باحثين يساعدونه ويتابعون العمل بين الأجهزة والنظر في الشاشات والمراقبة وطباعة التقارير. وكان السيد المدهش من حين لآخر يطلب منها أن تتقدم وتشاركه الكشف.

وفي النهاية، كان ما توصّلوا إليه هو أن هذه المومياء لسيدة في العقد الرابع من عمرها، توفيت بين عمر 40 -45 عامًا، بأسفكسيا الخنق.

والفحص عن اللوحة كشف عن وجود طبقات لون متعددة في الجزء الأيمن. يبدو أن العمل المخفي قام برسمه فنان مختلف لأن ضربات الفرشاة واضح جدا أنها مختلفة. وإكليل الغار الذي تزين به السيدة رأسها مدهون بالذهب الخالص في طبقة السطح، بينما الطبقة الخلفية كانت من لون ذهبي. والعقد في جيد المرأة مرصع بفصوص من طحن أحجار اللازورد والبرلنت. وهذه الأحجار لم تظهر في طبقة الألوان الخلفية.

أضاف المدهش:

- إن مومياء هذه المرأة تدل على "طقوس جنائزية سخية نسبيًّا"؛ وذلك يشير إلى أنها كانت تتمتع بمكانة بارزة.

- هذه المومياء محيرة جدًّا.

نظروا إليها باستغراب، فقامت ووقفت بجانب شاشة عرض معلقة على الجدار بعد أن قامت بتوصيلها بجهاز الكومبيوتر، وتحدثت بصوت هادئ:

- المرأة في اللوحة ليست هي بأي حال من الأحوال صاحبة المومياء. فالمومياء التي بحوزتنا لسيدة في العقد الرابع، بينما المرأة في اللوحة عمرها حوالى 25 عامًا. سبب الوفاة أيضًا غريب، فالنتائج أشارت إلى أنه أسفكسيا الخنق. ولكن لم يتضح إن كان هذا الخنق نتيجة لظروف

طبيعية أم بفعل فاعل، ولكن على الأرجح طبعًا أنه كان بفعل فاعل؛ حيث إنه لا توجد أي نتائج تدل على أن المرأة كانت تعاني من أمراض.

قاطعها المدهش:

- في الكثير من الأوقات، كانت صور هؤلاء الأشخاص ترسم أثناء حياتهم، وبعدها يتم لصقها على المومياء، لذلك بخصوص العمر لن نستطيع أن نجزم إن كانت صاحبة البورتريه هي نفسها المومياء أم لا.

- بالنسبة لهذه الفرضية التي تفيد بأن بورتريهات الفيوم كانت أحيانًا ترسم في حياة الأشخاص ومن ثم تلصق على المومياء، فهذا لم يثبت بعد، إنها مجرد افتراضات. وأعمل في مشروع كبير لكشف أسرار وجوه الفيوم، ولم نصل لحقيقة هذا الأمر بعد. ولكن، لو كان الافتراض صوابًا، فهل يمكن أن ترسم هذه المرأة قبل موتها بخمس عشرة سنة أو أكثر. مؤكد لا! إنه افتراض خاطئ تمامًا. وما ينفي هذا الافتراض أن قياسات وجه اللوحة مختلفة تمامًا عن قياسات وجه المومياء.

ذهبت إلى جهاز الكومبيوتر، ونقرت بأصابعها على لوحة المفاتيح، فظهر وجه المومياء بقياساته المفصلة بكل شيء فيه على الشاشة. أخذت تكبِّر في كل جزء وتتوقف عنده:

- جبهة عريضة، بؤبؤان كبيران، أنف مفلطح، فك واسع، شفتان غليظتان؛ هذا ما ترسمه أمامنا قياسات الوجه. انظروا إلى هذه الملامح جيدًا.

ثم انتقلت الشاشة لتعرض صورة صاحبة اللوحة، ثم بدأت في عرض القياسات، وقارنتها بالقياسات الأخرى فكانت مختلفة تمامًا.

ثم تجولت بالنظر في وجوههم:

- هاتان المرأتان مختلفتان. وهذا وحده يشكل علامة استفهام كبيرة! ولكن هناك مفاجأة أخرى تشكل المزيد من علامات الاستفهام؛ هناك أمر مؤكد أن اللوحة المخفية في الجانب الأيمن لوحة كاملة، ومن ثم انقسمت نصفين. ولسبب مجهول، قام فنان آخر برسم الجزء المفقود منها؛ وهو

الجزء الأيسر، وقام بلصق الجزأين معًا بغراء قوي، ثم حاول توحيد الشكل واللون، فقام بإعادة تلوين الجزء الأيمن بطلائه بطبقة جديدة تتماشى مع طبقة اللون التي استخدمها في رسمه.

لأكثر من ساعة، قامت بالشرح والتفسير، مستعينة بالنتائج الدقيقة التي توصلت لها الأجهزة والتي تفسر كل شيء وتوضحه بدقة متناهية.

كان وقع المفاجأة قويا على جميع الموجودين. وكان من الممكن أن يكون كذلك عليها؛ لولا أنها رأت في وقت سابق الجزء الآخر من اللوحة؛ وذلك يفسر الكثير من الأشياء وأهمها أن وراء الأمر سرًّا كبيرًا.

من نطق هذه المرة هو حسام الذي كان يهمه بالطبع من بين كل ذلك بيع اللوحة ولا شيء آخر.

- أعتقد أننا لسنا هنا لإثبات ما إذا كانت اللوحة تخص صاحبة المومياء أم لا! ما يهمنا هو إثبات أصالة العمل.

أجابته بنبرة حازمة:

- السيد يزن سيدفع مقابل هذا العمل ملايين الدولارات، ومن حقه أن يعرف ما الذي سوف يقوم بشرائه تحديدًا. السيد يزن لن يشتري هذا العمل ليحتفظ به في جدران منزله، بل سيعرضه للبيع، والمشتري مؤكد سوف يقوم بالكشف عن العمل، وعندها سيعثر على هذه الأدلة، وربما قيمة العمل تقل.

- أحقًّا ما تقولين!؟ مؤكد أنك تعلمين أن هذه الأمور ترفع من قيمة العمل وتزيد من سعره؟

نظرت ليزن وبنبرة قوية:

- ما رأيك سيد يزن؟

سعل سعالًا خفيفًا ثم أجاب:

- أريد معرفة ما إذا كان موت السيدة وتحنيطها قد تزامن مع وضع اللوحة على المومياء؟

أجابه المدهش:

- من التاريخ التقريبي لرسم اللوحة وتاريخ تحنيط المومياء يتضح أنها متزامنة.

نظر إليها ينتظر إجابتها:

- من الواضح طبعًا أن اللوحة ألصقت على المومياء منذ أمد بعيد جدًا. وألصقت بالطريقة التي كانت تستعمل في لصق اللوحات على المومياوات.

لمعت الفكرة في رأسها. كيف فاتها أن تتأكد من أمر مهم كذلك؛ فهذا سوف يؤدي للكشف عن المزيد من الأمور.

نطق المدهش:

- أعتقد أن السيد يزن سيقوم بشراء اللوحة فقط. فلماذا لا نفصل اللوحة عن المومياء الآن؟

أجابه حسام:

- لم تؤكد عملية الشراء بعد، ومن الأفضل أن نجعل اللوحة كما هي على وضعها.

أجاب يزن بصوت تملأه الحيرة:

- الأمر محير جدًّا!

أضاف حسام بغيظ

- على أي حال، نحن لسنا هنا لفك لغز جريمة قتل ارتكبت منذ آلاف السنوات! ولا للبحث في هويات ونسب، كل ما يهمنا هو معرفة ما إذا كان العمل عملًا أصليًا وواحدًا من بورتريهات الفيوم أم لا.

تبادلت النظرات هي ويزن الذي كان ينتظر منها أن تتحدث.

كان يقف في الخلف فارع الطول، منفرج الساقين قليلًا، وواضعًا يده في جيب بنطلونه مزيحًا سترته للخلف.

- من فضلك رنيم، حدّثينا عن أصالة العمل.

- من المؤكد طبعًا أن هذه اللوحة بجزأيها المختلفين واحدة من لوحات مومياوات الفيوم، وقد رسمت في حدود القرن الأول بعد الميلاد.

أدار رأسه ونظر للناقد الفني.

- حسنًا، انتظر مني مكالمة تليفونية بخصوص إتمام الصفقة.

اتسعت ابتسامته، فظهرت أسنانه الصفراء، ولمحت في نظرته التي رماها بها شيئًا من التشفي.

في طريق العودة، كانت صامتة لسبب يجهله. لم يفهم جيدًا ما يحدث معها. هناك كثير من الأفكار تتزاحم في عقلها، وخاصة في ما يتعلّق بالجزء المفقود من اللوحة. حاول أن يكسر الصمت بقول شيء:

- إنها مفاجأة كبيرة.

- فعلا، شيء غريب! بالرغم من أن قصص اللوحات المخفية ليست بغريبة. هناك الكثير من اللوحات المخفية تم الكشف عنها مؤخرًا وذلك بسب تقنيات البحث الحديثة. وهذه الرسومات أحيانًا للعمل نفسه قبل تعديله، أو لمشاهد مختلفة تمامًا. كرسم لرجل وجد مخفيًّا تحت لوحة بيكاسو الشهيرة "الغرفة الزرقاء". ولكن أولئك الفنانين كانوا يفعلون ذلك في أغلب الأوقات بسبب الفقر، فلم يكن في متناولهم أن يشتروا قماش أو خشب للرسم عليه فكانوا يرسمون فوق العمل نفسه أم بعد إزالته بمزيل ألوان أو بتغييرات في طبقات اللون. ولكنّ ما حدث في هذه اللوحة هو العكس؛ فالرسم المخفي هو الفقير في الخامات المستخدمة؛ ولكنه الأجمل.

- ومن أين عرفت ذلك؟ فلم يظهر الوجه المخفي بوضوح، بل مجرد خيالات ظهرت في الأشعة.

- ضربات الفرشاة أقوى وأصدق. لقد رسم روحها.

- رنيم، ماذا حدث لك؟ أي ضربات وأي روح تلك التي تتحدثين عنها؟ نحن لم نزِل الألوان ليظهر الوجه المخفي.

فاتها الأمر ونسيت، وأخذت تتحدث عن نصف الوجه الآخر الذي رأته في المتحف.

ارتبكت قائلة بنبرة قوية لتخلص نفسها من شكوكه:

- عذرًا يزن. هذا عملي، لن تستطيع أن ترى أو تفهم ما أراه وأفهمه.

- لا يهم. ولكن، أخبريني بتثمين العمل. في رأيك كم يساوي؟

- يجب وضع لجنة لتثمين العمل حسب السوق العالمي لوقتنا الحالي، ونقارن بينه وبين أسعار هذه الأعمال في المزادات والأسواق. هذا عمل ضخم وكبير، وهو ليس مجرد لوحة فنية؛ إنه واحد من أهم الأعمال التي وجدت في التاريخ.

- يمكنك أن تقومي وحدك بعمل اللجنة؛ فهذا جزء من تخصصك.

- أمهلني بعض الوقت إذًا.

أرادت أن تؤخر قدر الإمكان أن إتمام هذه الصفقة حتى تستطيع أن تفكر جيدًا وتقرر ما عليه فعله.

رن هاتفها برقم السيد جلال والد منتصر يخبرها أنه ينتظرها على الغذاء، وحاول أن يحمسها بإثارة شهيتها:

- لقد أعدت الطباخة أصنافًا شهية جدًّا.

ابتسمت وهي تزفر براحة:

- شكرًا على هذه الدعوة، كنت أحتاج إليها فعلًا.

بنبرة نزقة:

- من الواضح أنها دعوة مهمة. لقد تبدلت تمامًا منذ ردك على الهاتف، هذه هي المرة الأولى منذ يومين التي أراك فيها تبتسمين.

لم تفهم سبب هذه النبرة النزقة في حديثه، أتكون بدافع الغيرة!؟ لا يجب أن تذهب بخيالها بعيدًا، ربما مجرد شعوره أنه يوجد من استطاع أن يعيد لها ابتسامتها؛ لأنه من الناس الذين يعتقدون أن صحبتهم ألطف شيء في الوجود. على أي حال، كانت كذلك بالنسبة لها.

- أين المكان؟

- منطقة الظاهر.

انشغل بهاتفه، وانشغلت هي أيضًا بأفكارها. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ من هي السيدة صاحبة المومياء؟ ومن هي صاحبة الصورة؟ وما حقيقة القص واللصق في اللوحة؟ وما السبب في محاولة إيهام الناس بأنها هي المتوفاة؟ العديد من التساؤلات تذهب بها لمتاهة نفق مظلم من الأسئلة. وكانت على يقين أن الإجابة عليها مستحيلة. بصيص وحيد من الضوء تملكه، وسوف تبحث وراءه، فربما يقودها لشيء ما؛ وهو التأكد من أن اللوحة الناقصة في المتحف هي الجزء المكمل للوحة الملصوقة على المومياء.

فتحت صورة اللوحة التي أرسلها لها مدير المتحف ضمن الملف، وكانت بدقة عالية جدًّا. انتبهت لعقدة تربط طرفي الشال الذي ترتديه. وكانت تعلم أن هذه العقدة تسمى عقدة إيزيس كما أطلق عليها المؤرخون؛ لأنها ترمز للإلهة إيزيس. ونساء تلك الفترة كن يتشبهن بالإلهة إيزيس من خلال عقد ربطة الشال بهذه الطريقة.

لم تنتبه عندما سألها السائق: "وصلنا إلى الظاهر سيدتي، أي شارع تريدين؟" فربّت على يدها:

- من الواضح أن هناك ما يشغلك.

أغلقت شاشة الموبايل خشية أن يلمح الصورة.

- وهل هذا سؤال؟! وكأنك لم تكن معي وترى بنفسك.

هز رأسه بما يفيد نعم.

ودعته وذهبت. يجب أن تسيطر على نفسها، فهي مدعوة إلى الغذاء في جو حميمي ولطيف، وليس هناك من داعٍ لكي تشيع في الجو هذا التوتر الذي تشعر به.

34

استقبلها منتصر، مرحِّبا بها بمرحه المعهود "يا أهلا، يا أهلا". شعرت براحة عند رؤيته، فوجوده قادر على أن يشعرها بالهدوء والطمأنينة؛ وهذا ما تحتاج إليه. قبل أن تجلس شدها من يدها.

- ماذا؟ هل ستجلسين؟ هيّا إلى المطبخ، يوجد ما ينتظرك هناك.

حياها والده بإيماءة من رأسه وهو يعد طبق السلطة، وأخبرها أنها سوف تتذوق ألذ طبق سلطة.

كانت الطباخة تضع اللمسات النهائية على الطعام. سمينة بملامح بشوشة. عرّفها منتصر:

- "دادة أم محمد"، هي من تتولى شؤون البيت من قبل ميلادي.

ابتسمت وهي تتفحصها طويلًا ثم سألتها:

- هل تفضلين الثوم المقلي بكثرة على الملوخية؟

احتارت بماذا تجيبها، فهي لم تطهها يومًا.

تكفّل منتصر بالرد:

- رنيم لم تذق الملوخية من قبل، لذلك نريدها أن تتذوق ألذ طبق ملوخية.

أجابته السيدة:

- نعم، تبدو غير مصرية.

أجابتها رنيم بنبرة مؤكدة:

- بل مصرية.

كأن أحدًا ضغط زر التوقف بالريموت كنترول، فتسمر الجميع على وضعهم، وتوقفوا عما يفعلونه، والتفتوا بنظرهم إليها. الدادة وبيدها ملعقة كبيرة كانت تقلب بها الطعام، والأب بيده سكين يقطع به الطماطم، والابن بيده رغيف خبز يضعه في السلة.

نطقتها بإصرار وغضب في آن.

كان الطعام على المائدة شهيًا كثيرًا، فكانت تأكل بشهية كبيرة. داعبها منتصر:

- من الواضح أنك لم تأكلي منذ مدة.

- نعم. بالرغم من أنني بالأمس كنت مدعوة إلى حفل عشاء فخم جدًا. بعض أنواع الطعام جاءت بطائرات خاصة من مطاعم شهيرة في باريس وسويسرا.

سألها الرجل وهو يقضم الحمام المحشو بالفريك.

- ومن يا ترى فاحش الثراء؟

- إنه رجل أعمال ومستثمر أراضٍ وعقارات يدعى علاء الصواف.

غصة في الحلق منعته من بلع اللقمة.

- هل تقولين علاء الصواف!؟

- نعم، إنه هو.

- ولكن، كيف؟

- كيف ماذا؟

- كيف وأين تعرفت عليه؟ وما مناسبة دعوته لك!؟ هل يعرفك شخصيًّا؟

ترك الطعام الذي كان يأكله بشهية مفرطة، وكمحقق أخذ يلاحقها بالأسئلة وعلى وجهه تعابير غير مفهومة.

نظرت إلى منتصر بما يفيد "ماذا هناك؟"، فنظر بدوره لوالده:

- ما الأمر أبي؟ ما مشكلة هذا الرجل!؟

انتبه الرجل إلى أنه سوف يلهيهما عن تناول الطعام فقال:

- دعانا نأكل، وسنتحدث لاحقًا.

بعد الطعام، دعاها للجلوس في غرفة المعيشة.

- أعتقد أنك أصبحت فردًا من العائلة، ولا داعي لغرفة الصالون. إنها للغرباء.

ابتسمت له بامتنان. جلست على كنبة في غرفة المعيشة تضم مقاعد مريحة وشاشة كبيرة. على طاولة جانبية رصت صور أفراد الأسرة في مراحلهم العمرية المختلفة. كان كل شيء في هذا المنزل يبعث على الدفء والحميمية. دفء لم تشعر به من قبل حتى في بيتها الأنيق المطل على أهم ميادين فلورنسا.

وضعت السيدة صينية عليها أكواب من الشاي، وقدمت لها قطعًا من البسبوسة والبقلاوة.

- شكرًا، سأكتفي بالشاي.

وأشارت إلى بطنها:

- تكاد معدتي تنفجر. لا أذكر أنني أكلت بشهية مفرطة مثل اليوم.

رد منتصر دون أن ينظر إليها، وهو يقلب قطعة السكر في كوب الشاي:

- لاحظت ذلك.

- شكرًا لكم على هذه المأدبة، وهذا الوقت الجميل؛ كنت أحتاج إلى هذا حقًّا. لقد مررت بيومين عصيبين حقًّا.

- هل الأمر يتعلق بالصواف؟

سألها باهتمام.

دارت الأفكار في رأسها سريعًا.

- نعم. هو جزء كبير من الأمر.

- كيف وصل إليك؟ أم أنت التي حاولت الوصول إليه!؟ احترسي منه؛ فهو مجرم حقيقي.

- كيف وصل إليّ!؟ عذرًا، لا أعرف ما الذي تعنيه.

- هل يمكنك أن تخبرينا بظروف معرفتك به بالتفصيل؟

قصت عليهما كلّ ما حدث.

- إذا الأمر توقف على مومياء وجدها مدفونة في أرضه ويدعي حق ملكيتها، فذلك لا يعدو عن كونه جريمة مقارنة بجرائمه وإجرامه.

- ألهذه الدرجة!؟

- نعم، وأكثر. إنه أكثر الرجال فسادًا على وجه الأرض. ولقب الإمبراطور ليس ادعاء، فهو إمبراطور فعلًا لإمبراطوريته الخاصة التي صنعها لنفسه منذ أمد طويل.

لاحظ شرودها فسألها:

- ولكن، غريب! هل هذه هي المرة الأولى التي تسمعين فيها باسمه أو تعلمين عنه شيئًا؟

- نعم.

- للأسف، هو السبب في ما حدث لأسرتك وأبيك.

وقعت المفاجأة على رأسها مدوية.

- كيف؟

- الأمر يطول شرحه.

- أرجوك أخبرني به بالتفصيل.

- في بداية السبعينيات، ومع قانون الانفتاح الاقتصادي الذي تبناه أنور السادات بعد حرب 1973، ظهرت طبقة جديدة من رجال الأعمال، كان الهدف منها هو الانتقال من الاشتراكية إلى الرأسمالية وتنشيط الاستثمارات في مصر. وبناءً عليه، بدأ التجار بتغيير نشاطات تجارتهم لتتلاءم مع هذه السياسة الجديدة، فظهرت هذه الطبقة.

فتحت هذه السياسة باب الاقتصاد المصري لرأس المال العربي والأجنبي، في شكل استثمار مباشر في كل المجالات تقريبًا. ومن أهم هذه المجالات كان استصلاح الأراضي والإسكان والامتداد العمراني. أدى هذا الانفتاح إلى ظهور مراكز قوى اقتصادية اكتسبت نفوذًا
وهيمنة لا يستهان بهما في توجيه السياسات الاقتصادية ووضع القرارات
العامة.

رشف من كوب الشاي، وقضم من البقلاوة ومضغها بلذة وهو يسألها:

- أمتأكدة من أنك لا تريدين قطعة!؟

ودت أن تخبره أن كل ما تريده هو أن يحكي لها باختصار: لماذا كان هذا الرجل سببًا في ما حدث لعائلتها؟

- من مساوئ هذا النظام أنه أدى لظهور طبقة "النوفو ريش" حديثي النعمة وأغنياء الحرب. كان كل همهم هو التربح من هذا القانون بشتى الطرق. ولتحقيق ذلك، مارسوا أساليب عديدة قبيحة ومخزية؛ مثل استغلال النفوذ السياسي والإداري، والارتشاء، والتواطؤ مع القطاع الخاص على حساب القطاع العام، والمضاربة في الأراضي والمباني، والاتجار في السوق السوداء، والتهريب، والتهرب من دفع الضرائب، والاستيلاء على أموال الدولة. وكان الصواف واحدًا من أهم المنتفعين من هذا النظام. كان ما زال شابًا تملأه الحماسة، وبالتأكيد لم تكن حماسة العمل والإنتاج، ولكن استغلال الفرص والتربح غير شريف من قانون التجارة الحرة والاستيراد والتصدير. فاستطاع أن يحقق ثروة كبيرة في وقت قصير.

بعدها وجّه نشاطه للاستثمار العقاري. بدأ بشراء مساحات واسعة من الأراضي في مدن جديدة مثل 15 مايو، والعاشر من رمضان، ثم بني مشاريع سكنية تناسب الطبقة المتوسطة.

ظهرت بعد ذلك تصدعات وميل وشقوق في مشاريعه. فقام السكان بتقديم الشكاوى ووعد بحلها.

وفي صباح أحد الأيام، فجأة، وبدون سابق إنذار تهدم برج من أبراجه ودفن تحته عدد كبير من السكان. وكعادة رجال الأعمال أصحاب النفوذ، المحميين، استطاع أن ينفد بفعلته، ووجهت التهم لكبير مهندسي المشروع والمقاول.

والدك وقتها كان صحفيًا حديث التخرج، يحمل آمالًا وأحلامًا واسعة، ويعتقد أن العالم كله في مثل نقاوته وبراءته. فتح ملفًا في جريدة معارضة للتحقيق فيما حدث، وبدأ في شن حملات ضد علاء الصواف. ولم يكتفِ بذلك، إذ أخذ يبحث وينبش عن الحقيقة. ليلًا ونهارًا. لم يؤدي دور الصحفي فقط، بل أصبح مخبرًا وجامع أدلة وبيانات، وكلما توصّل لمعلومة جديدة يقوم بنشرها. ولكن، في كل مرة يقترب فيها من كشف الحقيقة يغير الشهود أقوالهم أو يفضلون الصمت، فيعيد الكرة مع آخرين. لم يهدأ ولم يحبَط تملكه إصرار وتصميم على كشف هذا الرجل. حتى توصل لمعرفة أسماء أشخاص مهمين في الحكومة يقومون بمساعدته. وفي إحدى المقالات، أشار إلى أنه قريبًا سيقوم بفضح أسمائهم.

بعدها، تم فصله من العمل، وتعرض لمحاولات للخطف وتهديدات بالقتل، ولفّقت له عدة تهم. لذلك طلب اللجوء السياسي.

صحيح أنهم لم يمنحوه الفرصة لفضحهم، ولكن مقالاته أثارت الرأي العام حول الفساد الحكومي ومساوئ قانون الانفتاح الذي يتم استغلال ثغراته الكثيرة في أعمال مريبة لتوظيفها في صالح رجال الأعمال الفاسدين.

اختفى علاء الصواف لمدة. وعندما ظهر مجددًا كانت قوته غاشمة، وتضاعفت ثروته؛ بعد أن انضم لمافيا السلاح العالمية، وبدأ في توزيعه لدول أفريقيا، تحت ستار أعماله في البناء والاستثمار هناك. استطاع أيضًا أن يخلق له عالمًا خاصًّا به لا يستطيع أحد ولوجه أو الاقتراب منه. لقد حصّن نفسه تمامًا ضد أي شيء وكل شيء، وأصبح من النادر أن تتم صفقات باسمه.

من حين لآخر، تثار قصة الصحفي حديث العهد الذي قام بكشفه وبعدها اختفى، ولم يعرف أحد ما حدث له. كان آخرها منذ شهور مضت، إذ استضافه برنامج توك شو مشهور، ووضعت

على شاشة في الاستديو صورة والدك وكتب اسمه وبجواره علامة استفهام كبيرة، فظهر على الصواف الارتباك.

ثم توقف عن الحديث كما لو أنه تذكر شيئًا.

- حلقات البرنامج مسجلة على اليوتيوب، ويمكننا أن نشاهدها.

بينما كان السيد جلال يتحدث عادت بها ذاكرتها إلى ذلك اليوم الذي بات بعيدًا. أعطاها والدها دفتر المذكرات مهمهما (احتفظي به). قرأته في رحلتها الطويلة إلى فلورنسا، ولاحظت أنه يختصر اسم الرجل الذي يتحدث عنه بحرف العين وحرف الصاد (ع-ص). استغربت وقتها لماذا لم يذكر اسمه كاملا في تلك المذكرات!؟ لكنها لم تشغل بالها طويلا بهذا الأمر. كانت تعلم أنها مرحلة مظلمة في حياة أبيها وانتهت. اليوم فقط فهمت لماذا لم يأت على ذكر اسمه كاملا! فهو يملك من النفوذ والفساد ما يجعله لا يتواني عن فعل أي شيء. لذلك، بالرغم من مرور الزمن، وبالرغم من بعد المسافات خشي والدها أن تمتد يده إليه أو إلى أسرته الصغيرة.

وصل منتصر الشاشة بهاتفه، وكتب اسم البرنامج وعنوان الحلقة. وعند الوصول للجزء المطلوب قام بتشغيله.

ظهرت صورة والدها على الشاشة. صورة لم ترَها له من قبل. كان في ريعان شبابه، وسيمًا ومبتسمًا وأنيقًا، يختلف عن أبيها رث الهيئة الذي تعرفه. نعم، كان ذلك في زمن سابق، زمن كان فيه ممتلئًا بالأمل والحماسة، اللذين حطمهما هذا الرجل الخالي وجهه من أي تعبير. من الواضح أنه أجرى عملية تجميل جعلت وجهه مشدودا كغطاء على فراش.

اقتربت الكاميرا من صورة أبيها، وامتلأت بها الشاشة لثوانٍ، ثم اختزلها المخرج في برواز جانبي في أعلى الشاشة، ووضعت صورة لعلاء الصواف في شبابه أيضًا. سأله المذيع:

"يشكل هذا الاسم علامة استفهام كبيرة في حياة رجل الأعمال علاء الصواف، ما الذي يمكنك أن تقوله عن ذلك؟"

ظهر عليه الارتباك، واهتزت جفونه، وظهر كمن يرمش بسرعة كبيرة.

- هذا مجرد نكرة. واحد من الصحفيين الذين انضموا لموجة الصحافة الجديدة. هذا النوع الفاشل من الصحافة الصفراء الذي يقوم على الشائعات والنميمة والأخبار الكاذبة. حاول أن يتسلق سلم النجاح بالخوض في سير ونزاهة وشرف الآخرين.

فقام الجمهور في الاستديو بالتصفيق الحاد.

شعرت بنغزة في القلب، طعنة سكين حادة. ليس بسبب حديثه الجارح عن أبيها، ولكن بسبب تصفيق الجمهور الحاد. هم يصفّقون امتهانًا فوق جثة والدها.

لاحظ سيد جلال تأثرها فاعتذر بلطف:

- اعذريني، لم أكن أقصد مضايقتك، ولكنني أردت أن أحذرك منه. هو لم ينسَ ولن ينسى ما فعله والدك معه. بالرغم من إجرامه، فوالدك هو البقعة السوداء الوحيدة التي لطخت سيرته. هو لن يتركك في حالك، من الأفضل أن تتجنبيه تمامًا.

تذكرت عندما سألها عن اسمها، وتبدل ملامحه، ثم ملاحقته لها بعدها بأسئلة فضولية.

- الآن هو متأكد من أنني ابنة هذا النكرة.

قالتها بصوت خفيض يكاد لا يسمع، فتبادل الأب والابن النظرات.

- سوف أثأر لأبي من هذا الرجل.

ظهرت على جلال علامات التوتر، وربما ندم لأنه حكى لها شيئًا.

- أرجوك اهدئي. أي رجل هذا الذي تريدين الثأر منه!؟ إنه مجرم عتيد.

- أَوَليس هناك قانون!؟

- هذا الرجل فوق القانون.

- ليس هناك أحد فوق القانون.

- هو.

- وثورة يناير، ألم تكن لمحاربة الفساد، والقضاء على هؤلاء الناس. لقد استطاعت أن تزيح نظامًا سابقًا، ألن تنجح في القضاء على مثل هؤلاء الأوغاد؟

- لا.

قالها بحدة وإصرار، وكان يقصد بها "لا تحاولي".

أخذت حقيبتها، وجمعت أشياءها، وتهيأت للرحيل.

- انتظري، سوف أوصلك.

- لا داعي، سأطلب سيارة تاكسي.

- أريد التحدث معك.

أذعنت أمام إصراره.

صافحت "جلال" الذي انتظر حتى أدارت ظهرها وذهبت للباب، فأشار لمنتصر بما يفيد أن أقنعها.

في السيارة، سألها منتصر بنبرة صوت هادئة، كمن يحاول أن يهدئ من روع أحد.

- هل يمكن أن نفكر معًا. أخبريني ماذا تريدين أن تفعلي؟ وما هي حججك وأدلتك؟

- هو يعرض قطعة أثرية ملكًا للدولة للبيع. بالإضافة إلى أنني أشك أن الأرض التي اشتراها ليقيم عليها مدينته الجديدة في الإسكندرية أرض أثرية وغير مصرّح ببيعها أو البناء عليها. ومؤكد وراء ذلك شبهة فساد كبيرة.

- وهل تعتقدين أن تقديم بلاغات ضد هذا الرجل سوف يؤدي لشيء! كما أخبرتك، هو يحمي ظهره بطرق متعددة، فهناك دائمًا من يتحملون فساده. فلن تصلي إلى شيء في النهاية.

أجابته بعناد:

- بل سأصل. يكفي أن اسمه سيكون كمتهم في قضايا هامة. ووقتها سوف أريه ما الذي يمكن أن تفعله به ابنة النكرة.

- وهل تعتقدين أنك عندما عرّفته بنفسك، لم يبدأ في أخذ حذره. لا تلعبي بالنار، أرجوك.

- لن ألعب بالنار، سأفعل ما يتحتم علي فعله. معرفتي بأمر هذه القطعة الأثرية وعدم الإبلاغ عنها يسمى "تسترًا"، وهذا يجعلني شريكة معهم في الجريمة. وقبل أن أقدم البلاغ، هناك شيء مهم علي التأكد منه ليكون بلاغًا قويًا قائمًا على حقائق.

35

تحوّلت غرفتها بالفندق إلى مركز أبحاث؛ على المكتب جهاز اللابتوب، وبجواره الآيباد، محادثات تلفونية طويلة عبر القارات مع أساتذة التاريخ والآثار في أهم جامعات إيطاليا المتخصصين في هذه الحقبة الرومانية. كانت تسمع بإنصات، وتدوّن جميع المعلومات المهمة. بعد عدة ساعات قضتها في البحث والتقصي، كان عليها أن تقوم بمقارنة ما توصلت إليه بما تعرفه لتصل لنتيجة.

موقع المجمع السكني الذي يملكه علاء الصواف يقع في الجانب الغربي من مدينة الإسكندرية على بعد حوالى 50 كيلومتر من مركز المدينة في العصر الروماني، ومعروف أن الرومان كانوا يدفنون موتاهم في أماكن تبعد كثيرًا عن المناطق السكنية، وقد خصصت قطعة أرض- في فترة حكم الإمبراطور "ماركوس أوريليوس 161 - 180"- تقع في غرب مدينة الإسكندرية لبناء مقبرة إمبراطورية كبيرة لدفن الشخصيات الرومانية الهامة والبارزة التي تحكم مصر وفقًا للطقوس والعادات الرومانية في الدفن.

قياس المسافات والمواقع كان أمرًا غاية في الصعوبة بالنسبة لها. وخاصة أن ما تبحث عنه في هذه الخرائط القديمة لمدينة الإسكندرية يرجع لآلاف السنين، والبنية الجغرافية للمدينة بأكملها تغيرت عبر السنوات، وخاصة أنها مدينة ساحلية، تتعرض لنحر البحر بصفة مستمرة، بالإضافة للزلازل الخطيرة والقوية والتسونامي التي تعرضت لها على مر القرون الماضية.

بالرغم من أن حدسها كان يخبرها بأن شكوكها حقيقية، ولكن الأمر كان يحتاج لخبير في الطبوغرافيا. فكرت في من يمكنها الاستعانة به في هذا الشأن، فتذكرت أنه منذ عدة سنوات، عقد مؤتمر عن الآثار الرومانية في مدينة الإسكندرية، تحت رعاية مركز أبحاث جامعة روما. واستضاف عددًا من الخبراء والجيولوجيين، وكان من بينهم متحدث يحمل الكثير من الخبرة والثقة؛

حتى إنه حاز على إعجاب الحاضرين الذين صفقوا له بشدة بعد نهاية تقديم بحثه وعرضه. لم تتذكر اسمه جيدًا، لقد حدث ذلك منذ عدة سنوات. راجعت رسائل بريدها الإلكتروني، إذ كانت قد استلمت دعوة لحضور المؤتمر من مركز أبحاث الجامعة. بحثت في النشرة الخاصة التي تضمنتها الدعوة، وعند معلومات المشاركين وجدت صورته وبياناته.

لم تهتم بأن الساعة تخطت العاشرة، والاتصال به في هذا التوقيت ربما يكون غير لائق. ولكن، كان هناك ما هو أهم من هذه الأشياء.

جاءها صوته بعد أول رنة للهاتف بنبرة مرحبة، فعرفته بنفسها، وأخبرته أنها حضرت مؤتمرًا له منذ عدة سنوات، وطلبت لقاءه لأمر هام. لم يسألها عن الأمر الهام، بل اكتفى بأن أخبرها أنه سيستقبلها بمكتبه في الجامعة في العاشرة من صباح الغد.

وهي في طريقها كانت مترددة، فهل تخبره بالتفاصيل كافة؟ وبشكها في أن هذا المجمع السكني بني فوق مقبرة رومانية؟ أم تكتفي بسؤاله عن موقع المقبرة؟

استقبلها بحفاوة بالغة، مهنئًا إياها على المركز الهام الذي استطاعت أن تشغله شابة مصرية.

شعرت معه بالاطمئنان، وقررت أنه لا داعي للمراوغة. أخبرته عن شكّها بأن هذا المجمع السكني يقع على مقبرة رومانية ملكية. وقدمت له جميع الحقائق والأدلة التي استطاعت أن تتوصل إليها.

وبعد أن انتهت من كلامها، فتح عدة خرائط على جهازه، وأخذ يدرس ويحدد أشياء ما، ويضع حول مناطق دوائر حمراء، ثم يعود مرة أخرى لموقع آخر، ويذهب ويأتي بعين الخبير التي كانت تلمع دهشة من مفاجأة الاكتشاف.

- إلى حد كبير، إنها المنطقة. ولكن، لكي نتأكد يجب أن نقوم بعملية مسح للأرض.

- وكيف باستطاعتنا أن نفعل ذلك؟

- يجب أن نقدم مذكرة نوضح فيها هذه الحقائق والأدلة، ونطلب معاينة المكان، ومسحًا طبوغرافيًا له.

إننا لم نستطع العثور على هذه المقبرة، واعتقدنا أنها ربما تكون ضمن الآثار الغارقة، ولكن لم نعثر عليها أيضًا. لقد أدت الزلازل، وأمواج تسوماني، والهيدرولوجية، والفيضانات، والتغيرات في
مستوى سطح البحر، والهبوط في نطاقات زمنية مختلفة، إلى
هبوط بطيء للأرض وهبوط طويل الأجل لحافة دلتا النيل. وأدى
ذلك للغمر التدريجي للأرض في منطقة "كانوب" في نهاية القرن
الثامن الميلادي.

لقد تم اكتشاف مدن كاملة غارقة مثل مدينة هراكليوم التي بنيت
في العصر البطلمي (320-30) قبل الميلاد. وأطلق عليها هذا الاسم
نسبة للإله هرقل. وأهمية اكتشاف هذه المدينة يرجع للتماثيل التي وجدت فيها، إذ عثرنا على تمثال كامل من الجرانيت للإله حابي، وتمثال للإلهة إيزيس، وتمثال لملكة بطلمية غير معروفة. والبعثة الفرنسية التي عملت على كشف أسطول نابليون 1996 عثرت على مدينة كاملة تسمى مينوتس تقع على مساحة كيلومترين من شاطئ مدينة
أبو قير.

وفي عام 1992، قامت بعثة المعهد الأوروبي للآثار الغارقة بعمل مسح طبوغرافي للميناء الشرقي، وكشف عن بقايا مسرح روماني وجزيرة انتيرودوس واللسان المعروف بشبه جزيرة التيمونيوم. وفي عام 1998، بدأ المعهد الهلليني بالبحث في منطقة معهد الشاطبي وكانت تسمى "رأس لوخياس" في العصر البطلمي، وهي الجهة الشرقية لمنطقة الحي الملكي. لذلك، كان من المتوقع العثور على القصور الملكية والمعابد التي كانت موجودة في هذه المنطقة. وللأسف، لم يتم العثور سوى على قطع من المرجح أن تكون من بقايا معبد إيزيس أو قصر الملكة كليوباترا السابعة. لقد تم الكشف عن الكثير من الآثار تحت الماء، ولكننا لم نستطع العثور على المقبرة الملكية.

وهناك أسباب كثيرة لعدم العثور عليها؛ فربما تمت سرقتها، أو فتّتت التربة المالحة المومياوات. وقيل إن الأقباط عثروا على العديد من التماثيل الرومانية وهم يحفرون الخنادق لزرع كروم العنب. ولكن ظهور مومياء في هذا المكان ويرجح أن تكون لشخصية هامة؛ فالأمر هام بالتأكيد ويجب البحث ورائه.

استمعت للتفاصيل التي قصها عليها، ثم ودعته بعد أن أخبرته أنها سوف تكتب مذكرة للكشف عن هذه البقعة من الأرض ومسحها وستقدمها للجهات المختصة.

كان الطقس حارًا، ومن آن لآخر تهل نسمات صيفية تلطفه. فكرت أن تجلس في مكان هادئ على النيل لتشرب قهوتها وتعيد ترتيب أفكارها. لقد أمسكت بطرف الخيط، وهذا مطمئن بالنسبة لها. تلقت مكالمة من منتصر، وبعدها من يزن، ولم تجب على أي منهما. كانت تعلم أن كلًا منهما سيحاول ثنيها عن هدفها. فمنتصر سيفعل ذلك لأنه يخشى عليها، ويزن لأن مصلحته فوق كل اعتبار.

السيدة التي في اللوحة تنتمي لإحدى الأسر الملكية الرومانية. وهذا ما تشير إليه البقعة الأرجوانية في ثيابها من جهة اليمين؛ وهي الجزء الذي قام فنان برسمه كي يظهر بأن هذه السيدة من الطبقة الحاكمة الرومانية. لذلك، نقش الإكليل الذي ترتديه بمسحوق الذهب، كما طحن مجوهرات نفيسة من اللازورد والبرلنت ووضع البودرة المستخلصة من طحنها في الأصباغ المستعملة لتلوين العقد في عنقها. أما في اللوحة الناقصة، فتوجد عقدة تربط طرفي الشال الذي ترتديه، وهذه العقدة تسمى "بعقدة إيزيس"، وقد اعتادت النساء المصريات والأغريقيات أيضًا في هذه الفترة على التشبه بالإلهة إيزيس. وحرص الفنان على رسم العقدة ليؤكد هوية المرأة، مثلما حرص الفنان الآخر على تأكيد هويتها الرومانية.

دققت في ملامحها. إن ملامحها مزيج من الملامح المصرية والإغريقية. ولكنها لا تشبه أبدًا نساء روما. لقد اطلعت على لوحات وتماثيل عديدة لهن في تلك الفترة الزمنية، وكانت بعيدة جدًّا عن ملامح هذه المرأة؛ بشرة ذهبية، وعينان بنيتين، وحاجبان كثيفان على هيئة قوس، ورموش كثيفة. هذه الملامح لا تشبه أبدًا ملامح نساء روما ذوات البشرة الفاتحة والعيون اللوزية.

كبّرت الصورة على هاتفها ودققت النظر أكثر. دققت أكثر. حاولت أن تركب الجزأين معًا في مخيلتها، وظهرت الصورة في بؤرة عقلها. ظهرت بوضوح شديد كما لو أنها تعرض أمامها على شاشة سينما عملاقة. هناك انحراف واضح في عينيها.

تسارعت دقات قلبها أمام هذه المفاجأة المدهشة:

- يا الله! إن هذه المرأة واحدة منهم.

والآن، ما الذي يمكن أن تفعله. لا يمكن أن يبقى الأمر طي الكتمان! هناك سر كبير وراء هذه المرأة، سر يتعلق بحكم، بملك، بإمبراطورية. سرّ يتعلق بحضارات، بهويات، وبحياة وموت.

وهذا المشروع الذي يعمل منذ سنوات طويلة على كشف أسرار وجوه الفيوم، وهي الوجه الممتلئ بالأسرار والحكايا. ماذا عنها؟ إنها أحق من أولئك جميعهم في البحث وراءها!؟

شعرت أن الأفكار تكاد تعصف بها. تريد أن تشارك أحدًا معها، أن تستشير أحدًا، وتأخذ برأي ونصيحة أحد.

- منتصر، هل يمكن أن نتقابل؟

استشعر اللهفة والقلق بصوتها.

- طمئنيني، هل كل شيء بخير؟

- أريد التحدث معك في أمر هام.

وفي موعدهما، قصت له كل شيء عن اللوحة. عن النصف الناقص الذي يحتاج لترميم بمخزن المتحف، وعن اللوحة الكاملة الملصوقة على المومياء، وعن المومياء.

- الآن لا أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله!؟ أخشى أنني لو اتخذت إجراء قانونيًّا أن يختفي هذا العمل تمامًا؛ إذ يمكنهم أن ينكروا وجوده، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أصمت عن قصة البيع؛ لأنها لو تمت- بالإضافة إلى أنني سأكون شريكة في عمل إجرامي- اللوحة ستكون بحوزة أشخاص آخرين، ووقتها سيكون من الصعب الكشف عنها وعن أسرارها. كما أن لوحة بمثل هذه الأهمية من المجحف حقًّا ألا تعرض في أهم وأكبر معارض العالم وألا يراها الجميع.

كان يستمع إليها بإنصات دون أن يقاطعها للسؤال أو الاستفسار. وعندما نطق سألها:

- ما علاقتك بيزن؟

فاجأها السؤال! هل يمكن أن يكون في كل ما قصته عليه ما يهمه هو معرفة علاقتها به؟

- عمل وصداقة.

نظر مباشرة إلى عينيها:

- تقولين ذلك، بينما كل جزء بك ينطق بعكسه.

- أرجوك. هل هذا كل ما يهمك في الأمر!؟

- سأعتبر نفسي سمعت الحقيقة التي حاولت أن تخفيها، بينما كل جزء في جسدك أشهرها. بدءًا من نظرة عينيك، إلى ارتعاشة صوتك، وتشنج فمك، وحركة يدك وهي تمتد إلى الفنجان لتحتضنه.

- يمكنك أن تعتبرها علاقة معقدة نوعًا ما.

- أسأل عن حقيقة شعورك تجاهه لأن شعورك تجاهه هو بوصلتك. فما يقودك لحب شخص هو أن طاقتك الروحية تتوافق مع طاقته. ويعزز هذا الكلام الحديث النبوي "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف". والروح لا تخطئ أبدًا، وخاصة الأرواح النقية التي تشبهك.

أعتقد أن هذه هي المرة الأولى لك التي تقعين فيها بالحب. روحك انتقائية، وتعلم جيدًا ماذا تفعل، وفي حب من تقع. لذلك، لا أفهم لماذا بنيت هذا التصور على أن هذا الشخص سيئ، وأخفيت عنه كل هذه الحقائق؛ بالرغم من أنه الوحيد القادر على الوقوف إلى جانبك ومساعدتك.

فكرت في كلامه، هل حقًّا كانت متسرعة في حكمها على يزن؟! ولكن، هو يعلم جيدًا أن هذه اللوحة ليست ملكًا لهؤلاء الناس، وبالرغم من ذلك لم يتوانَ عن شرائها. تذكرت عندما قال لها: "لو لم أقم بشراء اللوحة فغيري سيفعل". ربما فكر في الموضوع من منظور ورؤية مختلفة.

- أتقصد أن أخبره بكل شيء.

- نعم. وعندها سوف تتأكدين من طاقة روحك.

- تقصد حدسي.

- الأمر مختلف. صحيح أنهما مرتبطان بشكل ما، ولكن طاقة الروح أقوى كثيرًا من الحدس.

قامت بالاتصال به، فجاءها صوته هادئًا ومشوبًا بنبرة لم تستطع تفسيرها. دائمًا كان صوته نشيطًا ومفعمًا بالأمل.

- أريد لقاءك.
- ها أنت تختفين ثم تظهرين فجأة وتطلبين لقائي!
- انشغلت بأمر مهم في الأيام الماضية.
- يمكنك المرور عليّ بالفندق في الجناح 104. سأكون في انتظارك.

كانت تريد أن تخبره أن يلتقيا في مكان آخر غير الفندق، ولكنه وضع نقطة نهاية بعد "سأكون في انتظارك".

36

في طريقها إلى الفندق، كانت متخوفة من هذا اللقاء؛ وأن تكون معه في غرفة بمفردهما. فهي لا تستطيع مقاومته في الأماكن الصاخبة المزدحمة. دائمًا ما تغريها تفاصيله، وحركاته، وإيماءاته. بإمكانه أن يكون جذابًا ومثيرًا دون أن يبذل أي جهد. وكثيرًا ما كان هذا يربك أنوثتها. كثيرًا ما تملّكها شعور قوي بأن تلقي بنفسها بين يديه، وتغوص داخل جسده وروحه.

كثيرًا كان يقبض عليها أثناء تلك اللحظات التي تكون فيها مأخوذة به، فيبتسم. هو يعلم تمامًا شعورها تجاهه، والمحير أنه لم يصدها ولم يشجعها. هل يستمتع بتعذيبها أم يستمتع بهذه الطاقة من الحب التي تمنحه إياها؟

في مرآة المصعد جددت زينتها. طابق بعد طابق، كان التوتر يتصاعد أكثر، وضربات قلبها تضرب بقوة وهي تطرق باب الغرفة.

استقبلها مرتديًا مئزر الحمام. وهو عابق بعطور ذكورية جذابة؛ رغوة الجسم وعطر بعد الحلاقة.

- مرحبًا.

جناح بإضاءة خافتة. طقم جلوس في البهو ملحقة به غرفة نوم وحمام وتراس كبير يفتح على النيل. وفي إحدى الزوايا بار صغير.

بدا أكثر شبابًا وحيوية. حرره المئزر من القيود التي طالما حبس نفسه فيها. ربطة العنق، الأزرار، الحزام... هذه الأشياء التي تحتم علينا المظاهر أن نرتديها. لذلك في عرينا، في ملابسنا الخفيفة، نبدو أكثر شبهًا بأنفسنا، نبدو نحن.

ذهب إلى البار، وبمهارة "بارمان" محترف صنع "كوكتيل بالليني"، القليل من عصير الفاكهة، والقليل من شراب بالليني ومكعبات ثلج. رجّه بقوة ثم صبه في كأس. وذهب للأريكة المقابلة لها، وجلس فاردًا ذراعه على مسندها، يهز الكأس بيده مستمتعًا بصوت ارتطام الثلج بالبلور ومتأملًا إياها. قامت وجلست بمحاذاته مسندة رأسها على كتفه، فضم ذراعه عليها.

همست:

- أحبك.

- أعرف.

- ثم؟

- لا شيء.

حرك الثلج أكثر في الكأس.

- لا شيء. لا أستطيع أن أفعل شيئًا. ارتبطنا منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا. هناك رابط قوي يجمع بيننا.

تململت، وهي تحاول أن تخرج من بين ذراعه، فأحكم قبضته.

- وأنا؟

- يمكننا أن نبقى معًا في حدود تراعي التزامي بهذا الرباط الذي بيننا.

- أهذا لغز؟

- فكري بعقلك، وستفهمين ما أقوله.

كانت تسمع دقات قلبه وأنفاسه الحارة المتصاعدة. لم يفلح الثلج في الكأس أن يطفئ ما يشعر به. تجرع كأسه مرة واحدة، وكمن ينزع نفسه من بئر عميق، قام مبتعدًا ودخل الشرفة. كانت السماء صافية، والقمر مكتملًا ومنيرًا، والنهر يجري... المدينة تتلألأ كشجرة عيد ميلاد.

- يا للروعة! كيف يمكن لأحد أمام هذا الجمال أن يقف مكتوف اليدين ولا يستطيع أن يستمتع!؟ مؤكد إنسان بائس.

اقتربت منه. كانت تعلم ما يجول في نفسه من صراع. كانت تعلم أنه يريدها تمامًا مثلما تريده، ولكنه يقاوم.

ضمها بقوة، ونظر في عينيها، ولمس شعرها ووجنتها. كان صوت ريهانة يصدح بقوة من الإذاعة الداخلية التي تبث عبر سماعات بغرف الفندق:

(tonight, I saw the life inside your eyes, you and I are beautiful like diamonds in the sky)

نعم، كانا معًا كالألماس في السماء؛ في توحدهما معًا، في اتحادهما. كانا يبرقان... يضويان. استطاع كل منهما أن ينير عتمته. استطاع أن ينير عتمة الآخر.

جلسا صامتين، مكتفيين بما يشعران به. يعلمان جيدًا أن أي تململ، أو أي همسة ستخرجهما من هذه الحالة.

هذا التواصل الروحي الذي غمرهما، جعله يشعر بالذنب، وكلما زاد شعوره بالذنب التصق بها أكثر، وضمها إليه أكثر. وكلما تصاعدت هذه المشاعر بداخله ازداد عناقه لها حرارة، وازداد حنانًا، ازداد قسوة ورغبة وألمًا. وكلما انتقلت اللحظة إلى اللحظة، كان يرتبط بها أكثر، يحبها ويكرهها أكثر.

أنغام الساكس تأتي وتذهب مع النسائم التي تهب من النيل، صوت يشوبه بحه مغرية يغني (أحبُّك ليس لِما أنت عليه فقط، لكن لِما أنا عليه، عندما أكونُ معك).

قالت له بصوت مبعثر:

- يخيل لي أننا نحلم.

- نعم. نحلم.

وحاولا وهما داخل حلمهما أن يرجئا اللحظة... أن يمداها... أن يمكثا بها وفيها لأقصى زمن.

- لا أريد أن يكون هذا وهمًا يبدده الصباح. أرجوك، أخبرني أنه حقيقة.

لا شيء سوى السكون، وهواء بارد يتسلل إليهما من النافذة.

اتفقا على موعد في صباح اليوم التالي، لتخبره بما كانت تنوي إخباره به، ولكن الظروف حالت دون ذلك.

وحول عدة فناجين من القهوة، حكت له كل شيء. لم تدع تفصيلة صغيرة إلا وأخبرته بها. أخبرته عن طفولتها البائسة، عن الفقر والعوز، عن الانغماس في العمل طوال عمرك بجد وجهد فقط لتزيح عنك لقب تكرهه. أخبرته عن أبيها، عن ذله وانكساره. عن أمها التي تحولت لشبح امرأة، أخبرته عن حذائها البالي، وعن الرطوبة التي تسكن بيتهم، وعن النوم ببطن جائع.

لم يقاطعها حتّى عندما غالبتها الدموع في بعض الحكايا. تركها تتحرر بإلقاء حملها الثقيل الذي لم يكن لها أي ذنب في حمله. وعندما انتهت:

- إذًا، أنت بطلة.

انتظر برهة ثم أضاف:

- دعينا نفكر بشكل مختلف. صحيح أنك عانيت كثيرًا، ولكن في اعتقادي أنه لا شيء يحدث لنا إلا ليقودنا لمصيرنا. ولولا هذه المعاناة لما وصلت لما أنت فيه الآن. انظري إلى نفسك، شابة جميلة وأنيقة تعمل في منصب من النادر أن يشغله، إلا من فاق عمرها الضعف، ليكون قد اكتسب خبرة تؤهله لذلك. تفوّقك منذ صغرك وعملك منذ أن كنت طالبة في المتاحف، وانتقالك من متحف لآخر، وتدرجك في السلم الوظيفي أدت بك إلى ذلك. جهدك بمثابة نيشان شرف لأنه حملك لواقع مختلف وحياه مختلفة. وهذا هو الجزء المضيء في قصتك، والذي عليك دائمًا التفكير فيه لتتحرري من عقدتك. يكفي أن كل من يتعرف عليك وعلى منصبك، يندهش متسائلًا كيف لشابة في مثل عمرك أن تشغل هذا المنصب؟ وكنت واحدًا منهم. وأعتقد أن لا أحد يمكن أن يخطر على باله الطريق الصعب الذي اجتزته لتصلي.

- لأن الناس دائمًا يحكمون على المظهر.

- الناس يحكمون على ما يرونه. وأنت تريدين أن يراك الناس في أبهى صورك: أنيقة، جميلة، ثرية، مثقفة، عصرية، قوية.

- وفي الحقيقة أنا عكس ذلك تمامًا؛ ضعيفة، مهلهلة، منكسرة، متعبة.

- أبدًا. لست كذلك. لأنك ما كنت لتصبحي مثل ما أنت فيه الآن.

- عندما أختلي بنفسي، عندما أقف أمام المرآة، أزيل الأصباغ عن وجهي. عندما أخلع فستاني، ومجوهراتي، وحذائي، عندما أصبح عارية تمامًا أمام نفسي... أراها على حقيقتها؛ امرأة تعسة، بائسة.

- يؤسفني أن أسمع منك ذلك.

- دائمًا الحقيقة موجعة ونأسف لسماعها. ولكن، هذه حقيقتي، وأعتذر لأنني لم أكن المرأة التي حسبتها هي. المرأة التي تليق أن تكون معك، المرأة القوية الأنيقة الواثقة التي تستطيع أن تبرر لنفسك أنها تستحق أن تخوض التجربة من أجلها. للأسف خيبت آمالك، وكشفت لك حقيقتي.

حملت حقيبتها وذهبت دون وداعه. تركها تذهب، ولم يحاول أن يستوقفها؛ إذ شعر أنها بحاجة إلى أن تكون بمفردها.

النادل الذي كان يراقب ما يحدث بفضول، استغرب أن هذه المرأة الجذابة عندما دخلت للمكان كانت تضج بالحياة والحيوية، وعبرت أمامه بخفة فراشة، مع إيماءة خفيفة من رأسها. بينما عند ذهابها كانت تجتهد لتلملم أشلاءها. اقترب من الطاولة وسأله

- هل تريد أن أحضر لك شيئًا!؟

مقاطعًا أفكاره التي كانت تبحث في تاريخ معرفته بها منذ لقائهما الأول في المتحف؛ عندما وقفت خلفه تمامًا، وسألته بصوت
متردد:

"أتحتاج إلى مساعدة".

كيف لم يستشف هذا القدر الأليم الذي عاشته، وهو الرجل الخبير المحنك في نفوس البشر. ما إن يتطلع في وجه أحد حتى يقرأه بمهارة فائقة، ويستشف أي حياة عاشها. ولكنها كانت بالذكاء لكي تضع كل شيء وتخفيه في جرة عميقة بجنبات الروح، لذلك عندما رآها اعتقد أنها عاشت حياة مدللة.

معها وقع ضحية للمظاهر التي تحمي نفسها بها. طريقة عيشها، أناقتها الفائقة، وتخرجها من أكاديمية فلورنسا للفنون. كيف من وسط كل هذا يستطيع أن يعرف أنها كانت تنام بمعدة خاوية.

فجأة، شعر أنه يريد أن يضمها إليه، يضمها معتذرًا بالنيابة عن الزمن، بالنيابة عن الحياة. يخبرها أنه سوف يعوضها عن كل ما عاشته، عن كل ما فقدته وتفتقده. سيكون لها الوطن الذي حرمت منه، الأب الذي عاشت معه ولم تعرفه، الأم الحاضرة والغائبة دومًا.

سيعوضها عن الفقر، عن الحاجة، عن الحزن، عن التعاسة. ولكن، هل كان بإمكانه حقًّا أن يفعل ذلك!؟

هو الذي عاش طفولته وشبابه ممزقًا من ويلات الحرب، هو الذي اضطر إلى أن يهاجر من بلده ليعمل ويعيش في بلاد غريبة عنه وسط ناس لا يمتون له بصلة، لا يشبهونه، ولا يتكلمون لغته، ولا يعتنقون ديانته، لا يعلمون شيئًا عن عاداته وتقاليده. وكان مجبرًا على ذلك هربًا من جحيم الحرب في بلده الممزق ما بين عدو خارجها وعدو داخلها. هو أيضًا مثلها، كان ضحية. لذلك، يعلم تمامًا ألم أن تكون ضحية. هو أيضًا مثلها، فمن يتعرف عليه ينخدع معتقدًا أنه رجل قوي، واثق، مسيطر، وهو في الواقع ممزق.

بين فنجان قهوة وآخر، تهجم عليه الذكريات الواحدة بعد الأخرى.

طفولته كانت بين أسرة مترابطة من الطبقة المتوسطة. أب لم يحصل على تعليم جامعي، ولكنه حاول بكل جهده أن يعوض ذلك في أولاده، فقدم لهم حياة كريمة. كان الأوسط بين ثلاثة إخوة من الذكور. لم يحتم عليه تحمل المسؤوليات التي تقع دائمًا على عاتق الأخ الكبير، ولم يكن مدللًا كالصغير. تفوّق في الدراسة من صغره، وتخصص في الاقتصاد. كان يعلم أنه واحد من أهم متطلبات العصر. فبعد خوض العالم لحروب دامية، حان الوقت لترميم نفسه مجددًا. وكان الاقتصاد هو الاتجاه الأمثل لإقامة دول قوية مسيطرة.

أحب زميلته في الجامعة، وذهب ليطلبها للزواج من أهلها، فخيروه بين الموافقة على الزواج ومباركته وبين سفره للعمل في الخارج والذي كان يرتب له. كان سفره هو تذكرته للحرية والعيش بأمان وسلام. فأصبح مترددًا بين ما يمليه عليه قلبه وما يريده عقله. ومع تدهور الأوضاع يومًا بعد آخر، وتخرجه بتقدير امتياز، لم يسر على خطى القلب. وكان نسيان حبها محنة يصعب اجتيازها. ولكن الوقت والعمل ومحاولة التكيف مع عالمه الجديد جعلت الأمر يمرّ.

في مجتمعات ترفع رايات وشعارات الحرية جهارًا وتخفي عنصريتها، وجد الكثير من الصعوبات. في البداية، لم يكن الأمر سهلًا لكونه عربيًّا، وازداد الأمر صعوبة عندما حقق نجاحًا استطاع به أن يتسلق السلم الوظيفي بسرعة فائقة. فكان عليه دائمًا أن يعيش وسط عداء. ولكي يتصدى له، كان عليه أن يشرع كل أبواب المحبة. تمامًا كإسفنجة بحرية، حاول امتصاص كل ما يحيط به من وسخ.

لذلك، في أقصى لحظات غضبه، كان يضع على وجهه قناع بارد مغلف بابتسامة، ويكبت، ويكبت، ويكبت... حتى يصل حد الانفجار، فيحطم وقتها كل ما تقع يده عليه، ويركل كل ما يجده أمامه، أو يخرج راكضًا في الشوارع والطرقات، راكضًا بأقصى سرعة. وصارخًا بأقوى ما يستطيع من صوت.

نعم. هو الرجل الذي يبدو أنه يتمتع بقدر كبير من القوة والثقة بالنفس، كان يركض صارخًا في الشوارع.

37

فكر أن يتصل بها، ولكنه لم يكن في حال تسمح له بمواساة أحد. هو نفسه بحاجة للمواساة. كذلك، بماذا ستفيدها هذه الكلمات الجوفاء!؟ ما الذي يمكن أن تفعله لها!؟

هي لم تحكِ له ليواسيها، بل ليعرف حقيقتها، حقيقتها البائسة. وسيساعدها، سيساعدها بكل ما أوتي من مال ومن قوة ومحبة.

مرت هذه الليلة عليها تمامًا كما مرت عليه، بلا نوم. كانت كل المشاعر السيئة تتقلب معهما على فراش الأرق؛ وجوه تمرّ مسرعة، صدى أصوات بعيدة، ضحكات، بكاء، صرخات.

غادر فراشه، فلا جدوى من التقلب فوق جمر الذكرى لاستدعاء نوم ذهب دون عودة. جلس على الكنبة، وذكريات ذلك اليوم تهل عليه بكامل تفاصيلها. صوت المرأة في إذاعة المطار يعلن عن النداء الأخير للرحلة المتجهة إلى لندن، ينتفض، كما انتفض وقتها. ها هو يغادر وطنه، حاملًا في يده حقيبة، وفي روحه وعقله خوف وقلق وتوجس.

هي أيضًا غادرت فراشها. تهيأ لها أنها سمعت طرقات سريعة على الباب لشدة ما تلبستها الذكرى لم تفهم أي باب هذا الذي يطرق، هل باب غرفتها بالفندق أم باب منزلهم البعيد؟

كان منتصف ليلة ممطرة. طرقات سريعة ومتلاحقة. وجدت أباها مرتديًا بذلته الوحيدة الرثة يرتديها في المناسبات القليلة التي دعوا إليها ومبللًا من غزارة الأمطار.

دخل يحمل كيس بلاستيك في يده وضعه على المائدة. وهو في طريقه لإيقاظها، وجدها تقف عند عتبة الغرفة، فأشار لها بكف يده:

- هيا. أحضرت لك عشاء لذيذًا.

ركضت.

- حقًّا! أنا أتضور جوعًا.

- جميع ما يمكن أن تشتهيه نفسك: لحوم، دجاج، مكرونة، حلوى.

تلتهم الطعام. تبلعه بانعدام صبر دون مضغ.

ابتسم لها بحنان وهو يناولها كوب الماء بعدما انحشر الطعام في "زورها".

- تمهّلي، الطعام كثير، لا تقلقي. سوف تأكلين حتّى تشبعي.

جاوبته وفمها ممتلئ:

- ولكن، من أين حصلت عليه؟

- كيف يمكنني أن أحصل عليه!؟ بالطبع اشتريته.

- مؤكد قد كلفك الكثير.

- لا شيء يغلو عليك.

لاحظت أن أمها لم تمد يدها للطعام.

- الطعام طيب ماما. لماذا لا تأكلين؟

مد أبوها يده بقطعة من اللحم إلى فم أمها، فزمته، وأشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر.

- لا آكل فضلات أحد.

ثم ذهبت إلى غرفتها مسرعة.

- ما الذي تعنيه بفضلات أحد؟

- لا تشغلي بالك حبيبتي. أمك لا تحب أكل المطاعم كما تعلمين. تقول إنهم لا يغسلون الخضار بشكل جيد.

- ولكنه أطيب من طعامها وأشهى.

غمز لها وهو يقول بصوت يكاد لا يسمع:

- نعم، كثيرًا.

ربت على شعرها بحنان، وتطلع إليها بعينين مغرورقتين بالدموع. وهي سألته ببراءة طفلة:

- ما الذي يحزنك؟

- لا شيء... لا شيء.

اعتاد أبوها بين الحين والآخر أن يرتدي بذلته المهترئة، ويعقد ربطة عنقه، ويلمع حذاءه، ويصفف شعره المجعد ويغادر. أحيانًا يحدث ذلك صباحًا وأخرى مساء. كانت تبتهج عندما تجد أباها قد ارتدى هذا الزي، لأنها تعلم أنه سيأتي حاملًا معه كيسًا به طعام شهي.

ذات يوم. عادت أمها من العمل بمظهر مختلف. ثيابها ذاتها: الفستان البني المحزم عند الخصر، ولكنّ وجهها محتقن وثائر بشكل لم ترَها فيه من قبل. وأخذت تصيح في أبيها.

- كفى، لقد جعلتنا أضحوكة في القرية. ألا تعتقد أنهم يعرفون بأمر أفعالك المحرجة؟! إنهم يلقبونك بجامع الفضلات ولاعق الأطباق. اليوم سمعتهم يحكون عنك، يحكون عن رجل بهيئة مزرية يجوب حفلات الزفاف، ومراسم العزاء، ومعه حقيبة بلاستيكية يضع فيها ما فاض من الأطباق والطاولات. كيف وصل بك الأمر إلى أن تفعل ذلك؟ هل كرامتك أهدرت بمثل هذا الشكل!؟ هل نسيت ما كنت عليه!؟

تصرخ "كيف... كيف... كيف؟" وتشده من سترته. كان يبدو كالخرقة البالية بين يدي أمها، لعبة هزازة. لم يحاول أن يوقفها، لم يحاول أن يمنعها، لم يحاول أن يصلب جسده، لم يحاول أن يرفع نظره في وجهها.

لم تصدق ما سمعته! هل فعلًا كان هذا الطعام هو الفائض في أطباق المدعوين والمعزين!؟ لم تلقِ باللوم عليه، إذ كانت تعلم جيدًا أنه يفعل ذلك من أجلها هي.

في اليوم التالي، أتت أمها بمقص وقصت السترة، والقميص، والبنطلون، وربطة العنق. ثم وضعتها في كيس وحملته إلى الفناء. كانت خطواتها سريعة ونظراتها شاردة.

أشعلت النار فيها قرب مكب النفايات، فتصاعد دخان أسود داكن. وقفت تراقب الدخان المتصاعد وتبكي وتصرخ كاتمة صوتها بيدها. صوتا غريبا كحشرجات مخنوقة.

أرادت أن تركض باتجاه أمها، وتشدها من ذيل ثوبها، وتمسد على كتفها، وتحضنها، وتواسيها. ولكنها لم تستطع أن تفعل ذلك.

41

نفّذا الخطة التي وضعها لهما رئيس هيئة مكافحة جرائم الآثار بحذافيرها عندما ذهبا إليه وحكيا له كل شيء.

عملا بكل ما أوصاهما به، وخاصة في ما يتعلق بتوخي الكثير من الحذر. خطواتهما ربما تكون مراقبة. لذلك في اليوم التالي من زيارتهما له، كخطة تضليلية نشرت جميع الصحف خبرًا مفاده أن خبيرة في الفن الروماني تتعاون مع هيئة الآثار، للكشف عن الآثار الغارقة تحت الماء.

اتصل يزن، بحسام الصواف لإتمام الصفقة. تم الاتفاق على أن يجري تحويل بنكي من حساب المشتري لحساب خاص. وفي اللحظة التي سيتم فيها التحويل وتدخل الأموال الحساب سيتم تسليم اللوحة.

في مكتب في الدور الثالث عشر، تطل نافذته الزجاجية على القاهرة، بمساكنها، بنيلها، بأنوارها، بأهلها. بكل شيء في هذه المدينة التي تحمل الشيء وعكسه "الإيمان والفسق، الغنى والفقر، القصور والخرابات، المساجد والخمارات، الطيبة والكراهية، العدالة والظلم، الجمال والقبح..."

هذه الغرفة أيضًا كانت تحمل الشيء وضده. كان يجلس إلى المكتب واحد من رجال علاء الصواف واضعًا أمامه عدة أجهزة كمبيوتر. وفي الجهة الأخرى هي ويزن والناقد الفني. هيئة الرجل تبدو كأحد رجال البوليس السياسي في الستينيات، أو كرجل من عصابات المافيا. شارب كثيف، شعر أسود بفارق من الجنب، والكثير من الإكسسوارات الضخمة: سلسلة ذهبية، خاتم فضي، ساعة رولكيس بالفصوص. كان مندمجًا بالنظر إلى جهازه والكتابة على لوحة المفاتيح.

- عذرًا، ولكن علي إرسال بعض "الإيميلات" الهامة للبنك قبل عملية التحويل. البنوك السويسرية لها برتوكولات معقدة خاصة إذا كان المبلغ كبيرًا.

كان يكفي أن يتحدث ليؤكد صوته الأجش الخشن أنه ينتمي إلى أحد رجال العصابات، أو البوليس السياسي في الماضي. إنه واحد من أولئك الذين يخضع الجناة للتعذيب على أيديهم لإجبارهم على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها. جرائم ضد الأمن الوطني.

ثم أخيرًا:

- سيد يزن، هذا رقم الحساب الذي سوف تقوم بالتحويل إليه.

مد له ورقة.

قام يزن بإدخال الأرقام على هاتفه، ثم قام بإرسالها لرقم متفق عليه مع إدارة شرطة الأثار قبل بدء عملية التحويل. ولكسب أكبر قدر من الوقت، كان يقوم بعملية التحويل ببطء، ولم يضغط على "تأكيد الموافقة بتحويل المبلغ" إلا بعد استلامه رسالة. وقتها فهم أن كل شيء يتم كما تم التخطيط له، وليس هناك من قلق أن يتمم العملية.

مرت دقائق ثم ظهر المبلغ في حساب المرسل إليه.

قام الرجل من مقعده، وصافحهما مهنئًا على إتمام الصفقة الكبيرة.

- والآن سيد يزن، هذه المرأة الجميلة أصبحت من مقتنياتك. ولكن، حذار أن تقع في غرامها. إنها فاتنة حقًّا، وخصوصًا هذه النظرة في عينيها التي لا يعرف تفسيرها.

تناول زجاجة ويسكي من بار موضوع في إحدى الزوايا، وصب في الكؤوس.

- لنرفع نخب هذه المرأة الجميلة.

تمت عملية نقل اللوحة بحرص شديد إلى صندوق السيارة. أكدت رنيم على السائق أن يقود ببطء شديد، ويتفادى الحفر والكسور والمطبات. لم يفهم السائق سبب إملاء هذه المرأة عليه لائحة من الممنوعات، ولكنه رجح أنها ربما تكون حامل بعد علاج طويل من العقم.

نعم، حرصها وخوفها الشديدان على اللوحة، كخوف امرأة يحمل رحمها جنينًا أخيرًا. شعرت عند ركوبهما السيارة وابتعادهما باللوحة عن ذلك المكان براحة كبيرة. كانت تخشى أن تذهب اللوحة لشخص لا يقدر قيمتها، شخص لا يعرف ما وراءها من أسرار، واحد من أولئك المهووسين باللوحات الفنية، الذين لا يتوانون عن دفع الملايين من الدولارات ليعلق العمل على جدار منزله. وكانت تخشى أكثر أن تختفي ولا تظهر أبدا.

عندما رأتها للمرة الأولى كان وقع المفاجأة عليها أكثر من قدرتها على احتماله. وما أحزنها أكثر أنها وقعت في أيدي هؤلاء اللصوص الذين لا يقدرون قيمتها. والآن، أصبح كل شيء مطمئنًا، ويرجع الفضل إليه. تطلعت إليه بنظرة يملأها الحب والتقدير. مؤكد كانت غبية عندما شكت في نواياه، ولولا كلام منتصر معها لما أخبرته.

في الواقع، في هذه اللحظة بالذات، شعرت بالامتنان للقدر في كل ما رتبه لها مؤخرًا، مجيئها إلى هنا، وللرقم الذي أعطتها إياه أمها وطلبت منها الاتصال به، وللصوت الذي أجاب على الهاتف مرحِّبًا بها، وللرجل الذي أسدى إليها نصائح من علم الطاقة والتي أفادتها كثيرا. ومؤكد بعظيم الامتنان لأنه عرفها على هذا الشخص الذي يجلس بمحاذاتها الآن.

أخيرًا قد رضي عنها القدر. وكما أخبرها يزن، لولا ما مرت به في حياتها، لما وصلت لما هي فيه الآن. جعلها تمشي في البداية على أشواك لينتظرها الحرير في النهاية.

كانت السيارة تسير ببطء محاطة بحماية عدد من السيارات التي يقودها أفراد من الشرطة، متخفين في ملابس مدنية لتأمينهما. الخطة كانت أن تذهب بهما السيارة أولا إلى الفندق، وأن تأتي بحقيبتها وتخرج من الباب الخلفي حيث تنتظرها سيارة ستقلها إلى المطار للسفر إلى إيطاليا، يشاركها يزن الرحلة نفسها. بينما تخضع اللوحة لإجراءات حماية خاصة وتلحق بهما.

كلما ارتفعت الطائرة بها شعرت بالحنين والراحة أيضًا. الحنين للأرض التي تبتعد عنها؛ الأرض التي شعرت فيها أن روحها ردّت إليها مجددًا عندما وضعت قدمها عليها. والراحة لنجاة اللوحة من أولئك اللصوص. فخروجها بها يعد معجزة لم تتخيل تحقيقها. وذلك كان بفضل رجال أوفياء، ونزهاء، وشرفاء يعملون في فرقة مكافحة جرائم الآثار. فالذين تكفلوا بهذه المهمة لم يخشوا سلطة ولا بطش الإمبراطور الذي نظم دولته الخاصة داخل الدولة.

تطلعت إليه. كان يراقب السحاب من نافذة الطائرة، ويظهر عليه القلق. تم سحب ملايين الدولارات من حسابه المصرفي، ولكنه كان واثقًا في وعد رئيس هيئة المكافحة الذي أكد له أن أمواله سوف تعود إليه مرة أخرى. ففور دخول المال للحساب الآخر سيقوم البنك بتجميده، ولن يسمح له بصرفه أو التصرف فيه، وذلك تم على شكل اتفاقية بين البنك وهيئة مكافحة الآثار.

لمست يده بحنان، فبادلها ابتسامة، وأدار رأسه مرة أخرى باتجاه النافذة.

كانت تتمنى أن يضمها إليه، ويخبرها أنه يحبها ولكنه لم يفعل. لم تسمعها منه قط. في الحقيقة، هو يفعل من أجلها الكثير من الأشياء التي تفوق حدود الحب نفسه، ولكنها لا تعوّض أبدًا عن سماع هذه الكلمة. كان بالنسبة لها لغزًا كلما اعتقدت أنها توصلت إلى حله يتعقد أكثر وأكثر. في إحدى المرات أخبرها: "لا تورّطي نفسك بفهمي لأنك لن تستطيعي. ليس بسبب قدراتك العقلية طبعًا، ولكن لسبب بسيط، وهو أنني لا أفهم نفسي". لذلك، كان من الصعب التكهن بما يدور في داخله. أخبرته: "أشعر أني أحب "اللهو الخفي". وكان ذلك حقيقيًّا؛ فهو رجل لا يظهر إلا ليختفي. وعندما يعود لا يعد بشيء، ولا يقول شيئًا. رجل يضمها إلى صدره بحنان، ولكنه لا يحبها. رجل ممتلئ بالثقة والعنفوان ولكنه في واقع الأمر مهترئ نفسيًّا.

20

الفيوم، القرن الأول قبل الميلاد

في سرية تامة، أرسل رئيس المحققين جاسوسًا خبيرًا للتأكد من صحة كلام هذا الشخص، ولمعرفة ما إذا كانت هناك امرأة تسكن معهم. وعندما علم بصحة الأمر، ذهب على الفور لنائب الإمبراطور ليسأله عن طريقة القتل التي يفضلها لأولئك الرعاع.

- هناك أدوات تعذيب، وطرق مبتكرة أكثر إيلامًا وعنفًا. خطافات مصنوعة لنزع اللحم عن العظم، وأذرع معدنية مخصصة للضغط على الرؤوس والجماجم لتحطيمها.

دخل ليوناردوز في تفكير عميق. هو يعلم أن كل أدوات وطرق التعذيب الجسدي تؤدي في النهاية إلى الموت. ولكنه لا يريد لهم تعذيبًا يفضي في النهاية لموتهم. فما قيمة ذلك؟ ما قيمة أن يتألموا لبعض الوقت وسرعان ما يأتي الموت ليخلصهم من آلامهم!؟

لا. ليس هذا ما يريده، هذا لن يشفي غليله أبدًا، ولن يرد له كبرياءه وكرامته. هو لن يعاقب أجسامهم، بل سيعاقب العقل المدبر الذي يقود تلك الأجساد! سيعاقب العقل الذي خطط ودبر وحرض؛ فالجسد ليس سوى أداة في يد العقل.

- يجب على أولئك الخونة أن يفقدوا عقولهم.

قالها بصوت هادئ وهو مسرنم في عالمه الخاص، كأنه يحدث بها نفسه. وبالرغم من ذلك، سمعه كبير المحققين فردّد وراءه:

- يجب أن يفقدوا عقولهم. حسنًا يا مولاي، سوف نشق رؤوسهم نصفين، ونلتقط عقولهم ونلقيها بعد ذلك للكلاب والقطط لتأكلها.

نهره بصوت عالٍ:

- هل جننت يا رجل؟! أي قطط وأي كلاب تلك التي تتحدث عنها؟! من الواضح أن عقلك هو الذي يجب أن يلقى للقطط والكلاب لتأكله؛ هذا إن تنازلت وفعلت ذلك.

ارتعدت أوصال الرجل الذي ردّ بصوت متهدج وكأنه كان يركض أميالًا وأميالًا.

- عذرًا مولاي المبجل، ولكنني لم أفهم ما الذي تقصده تحديدًا.

قام من مقعده بقوة ملتحفًا بطرف عباءته على ذراعه الأخرى، وجاب الساحة ذهابًا وإيابًا، وقال بصوت عالٍ كما لو أنّه يخطب:

"سوف نسلبهم ذكاءهم، وقدرتهم على التفكير ليصبحوا بلا عقل، بلهاء، أغبياء، لا يفقهون شيئًا، ولا يستطيعون حتّى التعرف على أنفسهم."

استغرب من كلامه، وأخذ يفكر في هذه الطريقة الغريبة في التخلص منهم. والعجيب أنه كيف بإمكانهم فعل ذلك؟

- ليس أمامنا لنصل إلى هذه النتيجة سوى أن نسحق رؤوسهم؛ وذلك بأن نضعها داخل آلة السحق الحديدية ونضغط عليها بقوة.

- أي آلة سحق تلك التي تتحدث عنها أيها الغبي؟! أنا أريدهم أن يصابوا بالجنون، وليس سحق عظام رؤوسهم.

سأله الرجل بنفاد صبر:

- إذًا، أخبرني كيف ذلك، وأنا سوف أنفذه على الفور؟

- ألم تسمع عن الأعشاب التي تذهب بالعقل!؟

فردّد خلفه بنبرة استنكار واستعجاب:

- أعشاب تذهب بالعقل.

- اذهب واطلب لي كبير كهنة معبد أمون، فهو الذي يعلم تمامًا من الذي بإمكانه أن يفعل ذلك.

بعدها بيومين، كان كبير كهنة معبد أمون يقف بين يديه. بلغ الرجل من العمر عتيًّا، وكانت الرحلة من سيوة للإسكندرية مرهقة بالنسبة له. لم يخبره أحد ما السبب في أن نائب الإمبراطور يطلبه على وجه السرعة؛ لأن أحدًا لم يعلم السبب.

في سرية تامة، دخل القصر ووقف في بلاطه المهيب بأعمدته العملاقة. وأمام مقعد مرتفع بمسندين على شكل رأس أسد يجلس عليه ليوناردوز تضاءل جسد رئيس الكهنة أكثر وأكثر.

عندما أخبره ليوناردوز بأنه يريد تركيبة عشبية تذهب بالعقل وتؤدي للجنون، ابتسم الرجل في لؤم واستهزاء:

- ولكن، يا مولاي المعظم، ما حاجتك لفعل ذلك وبإمكانك أن تقصف رقابهم بعقولهم؟!

رمقه ليوناردوز بنظرة قاسية تفيد "لا تتدخل في ما لا يعنيك".

- على أي حال، هناك رجل يدعى "أشمون بتاح"، هذا الرجل خبير في الأعشاب وأنواعها وطرق مزجها. يعالج ويطبب بها منذ زمن، وهو على دراية بكل شيء عنها، ويملك مكتبة كبيرة تحتوي على برديات كتبها خبراء كانوا يعملون عند الفراعنة القدماء، ومؤكد واحدة من هذه البرديات تحتوي على طلبك.

بعد ذهابه، طلب في جلب أشمون بتاح على الفور. وإذا كان كبير كهنة معبد أمون قد بلغ من العمر عتيًّا، فأشمون بتاح فاقه عمرًا؛ حتى إنه لم يكن يقوى على الوقوف وصلب ظهره، فجاء به اثنان من الحرس بعد أن وضعاه في قفة من الخوص وحملاه.

وكان على ليوناردوز أن يرفع صوته لدرجة كبيرة حتّى يستطيع الرجل سماعه؛ فقد كانت حاسة السمع واحدة من ضمن الحواس التي فقدها مع الزمن.

ألقى عليه ليوناردوز نظرة متسائلة: كيف بإمكان هذا الشخص أن يقوم بتركيبة خاصة وهو بالكاد يبصر، ويده ترتجف كرداء خفيف منشور في ريح أمشير!؟

ولكن شكوكه ذهبت عندما أجابه الرجل بثقة

- سوف أفعل لك وصفة عشبية إذا أضيفت إلى الطعام وتناولها الشخص لمدة شهر وربما أقل سوف تؤدي به للهذيان والجنون.

- متى؟

- هذه الوصفة تتكون من سبع أعشاب أملكها جميعها عدا عشبة نادرة لا تنمو إلا في بلاد القوقاز، وبدونها لن يفلح الأمر.

ردّد وراءه بنبرة يائسة:

- القوقاز.

ولكنه عندما تذكر أن هذه العشبة ستكون طريقته في الانتقام، تبدلت نبرته لحماسة متقدة وهو يسأله:

- أخبرني ما اسمها؟ وما الكمية المطلوبة منها؟ وأين نجدها تحديدًا هناك؟

- هذا يتوقف على الكمية التي سوف أمزجها من الأعشاب. كل شيء بمكيال ومقدار. أخبرتني أنهم عدة أشخاص.

- نعم، سبعة أشخاص.

- أعتقد أننا بحاجة لكمية متوسطة من هذه العشبة.

- سوف أرسل على الفور في جلبها، وأنت ستبقى هنا تُرعى بعناية خاصة وفائقة إلى أن يتم جلبها. وبعدها سأرسل معك شخصًا ليشرف على عملية إتمامك المهمة.

بعد أقل من شهر، كانت الوصفة جاهزة. ولم يكن من الصعب على نائب الإمبراطور الذي أرسل سفينة خاصة للقوقاز لجلب العشبة النادرة أن يضع خطة محكمة هو وكبير المفتشين ورئيس المخابرات للطريقة التي سوف يتناول بها أولئك الأشخاص الخلطة. سوف تمنح لخباز يدسها في

العجين الذي يعجن به الخبز. ولضمان أنهم سوف يشترون الخبز من هذا المخبز تحديدًا، صدر أمر بغلق مخابز المدينة جميعها.

21

الفيوم، القرن الأول بعد الميلاد

علم الثوار أن وجودهم في هذه المدينة أو أي مدينة أخرى فيه خطر على حياتهم، فقرروا السفر إلى جزيرة كريت بعد أن تهدأ الأمور لأن كل السفن مراقبة. وحتى ذلك الحين، يجب عليهم الحذر الشديد. كان أوناس يخرج في حال جاءه طلب للرسم. وكان في الكثير من الأحيان يتمم إنجاز العمل في منزله. عدد قليل من المجموعة استطاع الحصول على عمل. وخلال ساعاته، كانوا لا يفتحون أفواههم بأي كلمة، ولم يختلطوا بأحد، أو يصادقوا أحدًا.

سيرينا لم تكن تغادر البيت إلا في الليالي المظلمة بعد أن يعم السكون. فتخرج للتريض بمفردها أو مع أوناس، ويجلسان على حافة البحيرة ينصتان للطبيعة من حولهما ثم يعودان أدراجهما.

كان الأمر بالنسبة لها غاية في التقييد والملل. وللقضاء على ذلك، كانت تساعد أوناس في مزج الأصباغ وتنظيف الفرشات وتقطيع الأخشاب. وتراقبه وهو يرسم، وفي كل مرة بعد أن تكتمل اللوحة، يتسرب إليها شعور دفين بالحزن. وجه بعد آخر، ولوحة بعد أخرى، أدركت سطوة الموت وجبروته. فمن فتاة شابة، لطفل صغير، لرجل قوي، لامرأة عجوز، لا يعرف الموت نظامًا، ولا يتّبع خطة. كل من يقع عليه الدور في صف الحياة الطويل يقوم بأخذه. لا شيء يحكمه؛ لا العمر الصغير، ولا الصحة الجيدة.

كانت أحيانًا للترويح عن نفسها تفعل مثلما كانت تفعل في الماضي تزور أوناس في مرسمه؛ فيأخذان في رسم أقدار لأصحاب اللوحات. وفي يوم، وبعد انتهائه من رسم وجه لامرأة جميلة:

- اسمها ماشة، عمرها ثلاثون عامًا، لديها ثلاثة أبناء. لم تحب زوجها، أحبت شخصًا آخر، ولكن أهلها منعوها من الزواج منه. في الليالي القمرية، كانت تذهب للبحيرة، وتحمم نفسها هناك، وتتضرع للآلهة لتجمعها بمن تحب. ولكن الموت لم يمهلها.

التفّ حولها الرجال يستمعون إليها وهي تحكي بصوت خفيض حكايات مختلفة وممتعة تجعل أعينهم تزداد دهشة تارة، وتغمض تأثرًا في أخرى. كانت تجعلهم يشهقون ويضحكون. ولأنها كانت دائمًا أقدارًا حزينة، كانوا يبكون كثيرًا. وهكذا، وجه وراء آخر، وحكاية وراء أخرى، وقدر مختلق وراء قدر. كان هؤلاء الأشخاص يقضون على عقارب الزمن البطيئة التي تبدو أن لا نهاية لها.

في إحدى الليالي، وبعد أن أنهت حكايتها، تأملت اللوحة:

- وأنا ترى، من سوف يقص حكايتي؟ وأي مزاج يمكنها أن تجلبه على سامعيها؟ الحزن أم سعادة!؟

ربت أوناس على كتفها.

- ما زلت صغيرة، والحياة أمامك متسعة، وسوف تملئينها بالبهجة والفرح والمحبة.

- دعنا نتفق أنّ العمر ليس مقياسًا؛ واللوحات التي ترسمها تدل على ذلك. أما البهجة والفرح فلا أعتقد أنني سأعيشهما.

- لمَ تقولين ذلك؟ لماذا كل هذا التشاؤم؟

- ألم تقل لي إني بارعة في خلق الأقدار؟! للحد أنك أحيانًا تجد تشابهًا بين القدر الذي أختلقه والمصير الذي لاقاه الشخص في حياته عندما يخبرك أهله عنه. هذا تمامًا ما أشعر به الآن.

عندما لمحت التأثر على وجهه، حاولت تبديل الموضوع.

- لا عليك، لا يهم ما سوف يحدث في المستقبل. دعنا في حاضرنا، نحن هنا ومعًا.

رماها بنظرة مليئة بالعطف، وضمها إليه، فشعرت بالراحة.

22

الإسكندرية، القرن الأول بعد الميلاد

منذ أن طرق رجلا نائب الإمبراطور بابه ووضعاه في القفة وأخذاه إليه، وأخذت الحيرة برأس الخبير ودخل في تفكير عميق حول أولئك الشخوص الذين يريد هذا الرجل معاقبتهم بهذه الطريقة الغريبة. تساءل: لماذا لم يأمر بقتلهم والتخلص منهم؟! مؤكد أن الأمر كبير جدًّا. ترى، ما كانت فعلتهم؟ وما الجرم الذي ارتكبوه ليطلب منه صناعة تركيبة تودي بعقولهم!؟ من المؤكد أن عقولهم هي التي هزمته. واضح أنهم شخوص في منتهى الذكاء لينجحوا في ذلك.

ومؤكد أنهم مصريون! هذا الروماني يريد أن يسلب مجموعة من أذكى المصريين عقولهم ليهيموا على وجوههم في الشوارع والطرقات فاقدي العقول.

فجأة صاح:

"لا، لن أفعل ذلك. لن أجعل أولئك الأشخاص يعيشون كالبهيمة التي لا عقل لها. الموت أرحم بكثير من هذا العقاب القاسي بأن تعيش دون عقل".

امتدت يده إلى بردية الأعشاب السبع وجلبها من على رف المكتبة. كانت بردية قديمة، يستعملها سحرة قارون، تكاد أن تتفتت في يده. تحتوي على سبع طرق مختلفة لمزج سبعة أعشاب مختلفة بكميات دقيقة جدًّا.

الغريب فيها أنه بإمكان الأعشاب السبع أن تعطي نتيجة مختلفة تمامًا؛ لو تمت زيادة نسبة عشبة في التركيبة عن الأخرى.

قرأ الطريقة الثالثة التي تقود للجنون، ثم تخطاها للطريقة الرابعة التي تقود للموت، وبعدها توقف طويلا أمام الطريقة الخامسة التي تقود للجنون والموت معًا. كان من المفترض أنّه يصنع التركيبة كما موضح في الطريقة الثالثة، ولكن بدلًا من ذلك قام بصنع التركيبة الخامسة.

لن ينفذ تعليمات نائب الإمبراطور الذي أخبره إياها محذّرًا لو أن هذه الوصفة لن تؤدي لجنونهم خلال خمسة عشر يوم فسيقوم بقتله. قرر أن ينقذ أولئك الأشخاص من العيش فاقدي العقول. التركيبة الخامسة تؤدي إلى الجنون ومن ثم الموت.

ولو حدث ولامه الرجل فسوف يريه البردية، ويخبره أن تركيبة وصفة الجنون هي نفسها وصفة الجنون والموت. الأمر يختلف، اختلاف قليلًا جدًا في المقادير؛ وهو العجوز البائس الذي لا يستطيع التحكم في أعصاب يده ربما دون أن ينتبه وضع زيادة عن المقدار من مسحوق العشبة القاتلة.

لو سامحه فحمدا لله، ولو أمر بقتله فهو الذي يعيش عمره في انتظار الموت، وانتظار الموت أمر سيء جدًّا. فيا حبذا لو خلصه من هذا الانتظار.

وهكذا نفذ أشمون بتاح خطته مخالفا الخطة التي رتبها نائب الإمبراطور للانتقام من أولئك الأشخاص، مثلما في زمن سابق وضع له سكرتيره خطة حتى لا يقوم بالتخلص منه؛ وهذه الخطة التي وضعها كانت نتيجة لما خططته له محظيته قادين، والتي نفّذتها بناء على ما خططته لها سيرينا التي كانت تعتقد أن انضمامها لمجموعة الثوار تم بملء إرادتها، وفي الحقيقة لم يكن انضمامها سوى تنفيذ لخطة ورغبة أوناس للانتقام من زوجها؛ ولكنّ أيًا منهم لم يكن يدري ذلك.

23

الفيوم، القرن الأول بعد الميلاد

أغلقت المخابز جميعها دون معرفة تفسير واضح لذلك. واضطر أوناس إلى الذهاب لجلب الخبز من المخبز الوحيد بالمدينة.

سأل أوناس الخباز:

- لماذا تم إغلاق جميع المخابز؟

- إنه قرار من الشرطة، ولم نعرف سبب ذلك. ولكن، ألا يعجبك خبزنا؟

- لا، أبدًا. ولكنّ المكان بعيد عن منزلنا.

- أين تسكن؟

- في المربع الجنوبي من المدينة.

- صحيح سكنك بعيد. ولكن، هناك صبي يخرج يوميًّا لتوزيع الخبز الطازج على الزبائن، وهو يذهب للمربع الجنوبي. فلو أردت أجعله يمر عليك لمنحك حصتك من الخبز.

- حسنًا، وبذلك ستكون وفرت عليّ السير تحت الشمس القائظة كل هذه المسافة.

أمر مدير المخابرات بتعيين رجل لمساعدة الخباز الذي استغرب في البداية، وسأله من هذا الرجل؟ ولماذا؟

وعندما رمقه مدير المخابرات بنظرة حنق صمت ولم ينطق. كان مساعد الخباز أحد تلاميذ خبير الأعشاب وأوكله بمهمة وضع كمية من المسحوق في العجين الذي سوف يصنع منه الخبز الخاص بهم.

ومع شروق شمس كل يوم، كان صبي التوصيل يضع الخبز الذي صنع مخصوصًا لهم في سلة من الخوص، ويحملها فوق رأسه، ويطرق باب أوناس ويسلمه الخبز، ويأخذ الاسات ثمنها ويذهب.

واتفق الجميع أثناء التفافهم حول مائدة الإفطار التي وضع عليها جبن وكرات وبصل وبيض بأن هذا الخبز لذيذ الطعم. وبعد عدة أيام، شعر الجميع بأعراض غريبة. في بداية الأمر، لم يعرفوا سببها. بدأت، بهلاوس وتخيلات. ولكن، سرعان ما أصبحت غير محتملة. وجوه تمرّ سريعًا، أصوات متداخلة، أحداث من الماضي والحاضر لا يمكن الفصل بينها، صفير وجلبة لا يستطيع المرء تحملهما.

لم يحاول أحد التصريح بما يشعر به. كل منهم كتم هذه الأمور عن الآخرين ظنًّا منهم أنه مجرد إرهاق، أو ربما نتيجة الوضع الذي يعيشون فيه من عزلة وخوف ويأس.

فالثورة التي كانت آمالهم وأحلامهم تتشبث بها فشلت، وبفشلها خسروا كل شيء؛ مكانهم وعملهم وعائلاتهم. فالرومان يتوعدونهم ولن يتركوهم أبدًا يعيشون بسلام. هذا إذا تركوهم يعيشون؛ فالموت أصبح يتربص بهم في كل مكان.

ومع مرور الأيام، تخطت الأعراض سياج العقل، وأصبح سلوكهم غريبًا. لم يكن سلوك فاقدي العقول من المجانين، بل كان أكثر صعوبة؛ فهم يدركون كل شيء حولهم، ولكن الهلوسات والأصوات والتهيؤات تكاد تفتك بهم.

كانوا يتحدثون مع اللا شيء، يصرخون. ولم يفهم أحد ما الذي يحدث. أثرت تلك الأعشاب على عقولهم وطباعهم، وأيضًا على ملامحهم. إذ اتخذت أعينهم شكلًا غريبًا؛ لقد انحرفت مقلة إحدى العينين عن وضعها الطبيعي، ولم يستطع أحد الخروج للذهاب للحكيم. كانت الأعراض تذهب وتأتي. وبعد عشرين يومًا، راحت الأجساد تتهاوى بعد أن تغادرها الروح فجأة. أثناء الأكل، أثناء النوم، أثناء دخولها في عراك مع شخص لا وجود له.

علموا أن ما يحدث غير طبيعي، وتوقعوا أنه تدبير من آلهة الرومان التي ربما قُدِّمت لها القرابين الكثيرة لتنتقم منهم. وها هم يتساقطون الواحد بعد الآخر؛ بعد أن أصابتهم حالة غريبة. وبدا لهم أن الموت أكثر رحمة من العيش وسط هذه الهلوسات والتشنجات.

رسم أوناس وجوه 7 من رفاقه الراحلين، وبعدها ساءت حالته فلم يستطع أن يقوم برسم الأجساد التي كانت تغادر؛ الواحد بعد الآخر، وشعر بالحزن لذلك. لأنه من بين ما رسم من جميع الوجوه، فأن هؤلاء الأشخاص هم من يستحقون أن يرسموا. هم من يستحقون الاحتفاء بهم وتكريمهم. لقد ضحوا بكل شيء في سبيل وطنهم، فكان هذا مصيرهم.

أحد أفراد المجموعة كان يعمل في حفظ المومياوات سابقا، خرج في جلب المواد المستخدمة في التحنيط. وبمساعدة أوناس له، كانت الجثامين تجهز للحفظ الطويل، ثم يقوم أوناس بلصق اللوحات على وجه المومياء، ويقومون بدفنها في القبو. وهكذا، نفدت ألواح الخشب والألوان ومواد التحنيط، ولم يعد في متناول جيوبهم أو عقولهم الخروج لشراء أو لمواصلة العمل.

عندما رحلت بكى أوناس أثناء لصقه اللوح الخشبي الذي يحمل صورتها. رسمها بالشكل نفسه الذي رحلت عليه، فلم يحاول أن يبدل من شكل مقلتها التي انحرفت. رسمهم جميعا على الهيئة نفسها التي رحلوا بها؛ لكي يتذكروا عندما يستيقظون من رقدتهم ويتطلعون في صورهم، كيف كانوا أقوياء وشجعانًا استطاعوا أن يقفوا في وجه وحشية وقسوة روما الكبرى، ليهزموا الظلم، وينصروا الحق؛ وهي كانت أشجعهم. هي التي كانت سكنت في عرين الأسد وروحها بين أنيابه، لم تخشَ منه، واستطاعت بالذكاء والشجاعة أن تخدعه وتهزمه وتنتقم لأبيها وأهلها ووطنها. كان بإمكانها أن تعيش عمرها أميرة رومانية متوجة، ترتدي أفخر الثياب، وتعيش في عز وجاه، ولكنها فضلت أن تعيش حرة.

في غضون عشرين يومًا تحول القبو إلى مقبرة جماعية ضمت بعض المومياوات والجثامين التي لم تحنط. ومن بينها جثمان أوناس. لم يرسم لنفسه لوحة، إذ كانت الألواح والأصباغ قليلة، فقرر أن يرسم بها زملاءه.

أما هو رسام الوجوه فلم يكن بحاجة لذلك. عندما يعود للحياة مجددًا لن يكون بحاجة إلى صورة لتذكره كيف كان قبل موته؛ لأن هذه الأحداث التي عاشها لن تنسى.

علم الجواسيس الذين كانوا يتناوبون على مراقبتهم ليل نهار بما حدث، وذلك عندما طرق بائع الخبز الباب عدة أيام متتالية ولم يفتح أحد. أخبروا رئيسهم بذلك، فوصل إلى المدينة، ودخل البيت بحث عنهم فلم يجدهم. قادته قدماه إلى القبو، وهناك وجدهم. وبين المومياوات امرأة جميلة في أوج شبابها يطوق شعرها إكليل الغار.

تأكد رئيس المخابرات أنها المرأة التي يبحث عنها، فأمر واحدًا من الحرس نزع اللوحة ليذهب بها ويريها لرئيسه. ولكن الحارس لم يستطع نزع اللوحة لقوة الغراء الملصوقة به، وعندما استعان بسكين، للقيام بذلك انكسر اللوح إلى نصفين؛ نصف بقي على المومياء، والآخر في يده. وضعوا الجزء المفصول في قطعة القماش، وسدوا القبو بالطين والجير. وتخلصوا من كل ما يخصهم، وكل ما تركوه وراءهم، وكل ما يدل على أن هذا البيت كانت توجد فيه حياة.

عندما ذهب رئيس المحققين لنائب الإمبراطور بالنصف المنزوع من اللوحة، وقص عليه ما حدث جن جنونه. لم يكن موتها ما يريده، كان يريد أن تعيش عمرها فاقدة عقلها، عقلها الذي حاولت أن تتذاكى به عليه، ونجحت في خداعه. فلو كان يريد التخلص منها لكان من السهل أن يرتب لها طريقة قتل قاسية.

ظهر عليه الغضب، وتطاير الشر من عينيه، وأرسل في طلب خبير الأعشاب.

فكر أنه لئيم وبدّل تركيبة الأعشاب وجعلها مميتة، أو أنه غبي ولم ينجح في صنع التركيبة. وفي الحالتين، ستتم معاقبته بأقصى عقاب.

ولكن الموت كان أرحم بأشمون بتاح؛ فقد سبق الحراس وأخذ روحه قبل أيام قليلة.

43

فلورنسا 2018

استيقظت هذا الصباح، و شعاع الشمس يتسلل من خلف الستارة، من زاوية لم تكن مغلقة بإحكام. وكانت ذرات غبار تطفو حول هذا الشعاع الذهبي. لطالما أثارها هذا المشهد كثيرًا في منزلهم؛ عندما تُوارب أمها النافذة الخشبية، فيتسلل شعاع الشمس من بين ألواحها، كاشفًا عن ذرات غبار تسبح في المكان. كانت تركض حولها، وتحاول أن تمسك بهذه الذرات بلون الذهب.

وجدت نفسها تفعل ما كانت تفعله. لفت ودارت حول الشعاع المنبثق، اخترقت الذرات التي تسبح حولها. فتحت الستارة أكثر، فسطع الشعاع أكثر وانتشرت الذرات أكثر. شعرت بنفسها هائمة في مكان ما. شعرت بخفة وكأن جسدها تفكك، وانحل من كتلته، وتحوّل لملايين من الذرات التي تسبح في الفضاء، وحول الأشياء، تطفو... تطوف... لا يمكن الإمساك بها... لا يمكن رؤيتها إلّا عبر شعاع شمس منبثق في مكان يسوده الظلام.

يا له من صباح! أدارت الراديو على قناة الأغاني الإيطالية الكلاسيكية. أغنية للمطرب "بيغو أنو ناتشي" بصوته الأجش ذي البحة، الممتلئ بالحنان وهو يغني: "بدونك أنا لن أعيش بعد الآن". صنعت الكابتشينو و"بريوش" محشوًّا بالجبن، وتناولت إفطارها بشهية كبيرة. كان واحدًا من الصباحات الجميلة القليلة التي يحظى بها الشخص في الحياة، تشبه تلك الصباحات التي يستيقظ فيها الشخص بعد ليلة حب طويلة.

كان موعدها في العاشرة صباحًا مع رئيس هيئة الآثار الإيطالية لبحث موضوع الجزء الناقص من اللوحة. جرت بين هيئة الآثار المصرية والإيطالية مباحثات طويلة خلال الأيام الماضية. وكان الجانب المصري ينتظر رد الجانب الإيطالي الذي طلب مهلة بضعة أيام للبحث في

الأمر. ومن خلال اطلاعها على المراسلات والمباحثات التي دارت بين الجانبين، تأكدت أن الجانب الإيطاليّ سيوافق؛ وذلك لدرايتها بطريقة تفكيرهم. كما أن الهيئة تولي اهتماما كبيرا لمومياوات الفيوم، وللبحث فيها ومعرفة أسرارها. ولن يكون في صالحها أبدًا رفض منح الحكومة المصرية الجزء الناقص من اللوحة.

لذلك، ذهبت للاجتماع ممتلئة بالثقة التي زادت مع الحفاوة التي استقبلها بها مدير الهيئة. بدأ حديثه بأن هذه المومياوات فن وحضارة وثقافة، وليست حكرًا ولا ملكًا لأحد، ويحق للعالم كله أن يمتلكها لأنها دليل على عبقرية البشرية.

من الواضح أن هذا الصباح الجميل كان يعد بأشياء جميلة. لم يخيِّب الرجل ثقتها فيه. كانت تعلم أنه يتبنى فكرًا جديدًا عن آثار الشعوب التي تضمها متاحف إيطاليا. فالإمبراطورية الرومانية حكمت تحت رايتها على مدار قرون طويلة العديد من الشعوب. وكأي دولة استعمارية، ترى أن كنوز هذه المستعمرات وخيراتها وفنونها ملك لها ومن حقها؛ فالكثير من الآثار انتقلت إليها. ونص القانون الإيطالي على أنه بما أن هذه الآثار على أرضها فهي حق لها. ولكن منذ توليه الهيئة، بدأ في اقتراح قوانين أقل تعصبا تجاه ملكية إيطاليا لهذه الآثار، وذلك يرجع لكونه في الأساس فنانًا تشكيليا، ويعرف قيمة العمل الفني وما يمثله من هوية وانتماء.

ختم لقاءهما قائلًا:

- إن كان رد هذه القطعة للحكومة المصرية سيساعد في الكشف عن هوية المرأة- ومن الجائز أن يكون وراءها سر كبير من أسرار أعظم الحضارات- فالحكومة الإيطالية لن تمانع برد اللوحة، ونأمل أن تتوصلي لمعرفة من هي صاحبتها. لقد قرأت المعلومات التي كتبتها عن اللوحة، وهو أمر محير جدًّا، وأعتقد أن وراءها سرًّا كبيرًا سيكشف عن معلومات هامة مخبوءة في دهاليز التاريخ. لذلك، تأكدي أننا لن نبخل أبدًا في مد يد التعاون والمساعدة للبحث وراء هذا العمل، وذلك كله سيتم وفق اتفاقية للتعاون بين البلدين. سوف نقوم بإرسال اللوحة إلى مصر في أقرب وقت.

- أنا في غاية الامتنان والشكر. ولكن، من الأفضل إبقاء اللوحة في الوقت الحالي هنا، وإدراجها ضمن مشروع مومياوات الفيوم، وذلك للبحث وراءها.

- وهيئة الآثار ستقدم خطاب توصية لمدير المشروع ليولي اهتمامًا خاصًّا بهذه التحفة.

ودّعته بابتسامة امتنان كبيرة. وهي في طريقها رن هاتفها، وأخبرها يزن أن أمواله ردت إليه. كان صوته مشوبا بسعادة كبيرة وهو يخبرها عن احترامه وتقديره لذكاء الشرطة المصرية وخبرتها.

بعدها، تلقت مكالمة من منتصر بنبرة فيها الكثير من السعادة والحماسة، زفّ إليها خبرًا نشر في جميع الجرائد والمواقع الإلكترونية والقنوات الإعلامية مفاده "وزارة الآثار تنقب في أرض أحدث وأهم مشروعات شركة الطلائع للمقاولات بمدينة الإسكندرية، وهي إحدى شركات رجل الأعمال علاء الصواف، وذلك بعد العثور على مومياء ترجع للعهد الروماني تم اكتشافها عن طريق المصادفة بعد الحفر تحت قبو إحدى الفيلات هناك. وأشارت عمليات البحث المبدئي إلى أنه من الجائز جدًّا أن تكون هذه الأرض هي المقبرة الملكية خلال العصر الروماني. وتتكاتف جهود كل الجهات المعنية من خبراء في الجيولوجيا والبيئة والآثار للبحث والكشف عن ذلك".

وجدت الدموع تنساب بقوة وغزارة وكأنها غيمات كانت معلقة في الذاكرة وحان وقت هطولها. كانت دموعًا حارة تحمل الفرح والحزن والألم.

كان هذا الخبر بمثابة الشرارة الأولى لكشف التاريخ القذر لهذا الرجل. ما إن نشر الخبر حتى توالي ظهور التهم والفضائح التي ارتكبها على مدار عمره. فلم يعد الأمر- كما في الماضي- معقدًا ومقيدًا ويجعل الناس تخشى التحدث. "فالسوشيال ميديا" حررت الأشخاص من خوفهم ومخاوفهم. فلم يعد الأمر يستدعي المواجهة. لم تعد هناك حاجة ليرتدي المرء ملابسه، ويذهب ليدلي بشهادته لضابط التحقيقات الذي ينصت إليه وتتدلى من جانب فمه سيجارة، ويرمقه بنظرات الشك.

اليوم، يكفي أن يجلس المرء خلف الشاشة ويدلي بدلوه، ليخبر العالم كله بما يملكه من معلومات. ومن الواضح أن الشرور والآثام التي ترسخت فيه على مدار عمره أوجدت له عددًا كبيرًا من الضحايا. وكانت هذه فرصتهم للخروج عن صمتهم الذي طال لسنوات. الجميع بدأ في كشف ممارساته المؤذية: موظفون قدامى، عمال في مشروعاته، مديرون، شركاء، مورّدون، زوجات سابقات، عشيقات، جيران، أقارب، زملاء الدراسة... الكل يتحدث، يعترف، يكشف. فضيحة وراء فضيحة، ملف وراء ملف، جرم وراء جرم. ليتضح أنه من أقذر الشخصيات.

موقع إلكتروني لجريدة شهيرة لها الكثير من القراء والمتابعين خصّص ملفًّا عنه، وكان من أكثر المواقع التي حرصت على تتبّع الأمور وكشفها بجدية وإخلاص. تابعت بشغف كل ما ينشره، وتأكدت أن أباها لم يكن وحده ضحية هذا الرجل.

فقررت هي الأخرى أن تتحدث أيضًا، لن تدع قصة أبيها
طي الكتمان. إذ يحق للعالم كله أن يعرف ما ارتكبه هذا الرجل في
حق أبيها.

تواصلت مع مدير تحرير الصحيفة وعرفته بنفسها. في البداية، كان اهتمامه لأنها تعاونت مع إدارة سرقات الآثار، وكانت السبب في كشف السرقة التي ربما ستكشف عن كشف أثري هائل.

- أنا لا أحدثك اليوم بصفتي المرأة التي تعاونت مع إدارة سرقة الآثار لكشف عملية سرقة كبيرة، بل أحدثك بصفتي رنيم مصطفى عبد المولى، ابنة مصطفى عبد المولى.

لم يعقب الرجل. لم يقل شيئًا. كان من الواضح أنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل. اعتبرت ذلك طبيعيًّا؛ فعمره كما يبدو لم يتعدَّ الخامسة والأربعين، فمن أين له أن يكون قد سمع بأبيها أو عرفه وقد غادر البلاد منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وبعد مغادرته عمل الصواف ورجاله على طمس تاريخه، فلم يأتِ أحد على ذكره وكأنه لم يكن!؟ ولكن، بعد مرور كل هذه السنوات، سيخرج اسمه مجدّدًا للوجود.

أخبرته بأنها تملك مذكرات لوالدها دون فيها معلومات خطيرة عن هذا الرجل وعن إجرامه وجرائمه وعن شركائه في هذه الجرائم جميع من ساعده وجميع من تستر عليه. في هذه المذكرات أيضًا دون كل ما تعرض له بسبب ملاحقته له ومحاولة كشفه وكشفهم. قبل إنهاء المكالمة: أخبرته أنه سيكون من الجيد أن يتزامن نشر هذه المذكرات مع ما يحدث الآن، فذلك سيدين الرجل أكثر.

استمع إليها من دون أن يقاطعها، ثم بنبرة متحمسة:

- هل يمكن إرسال المذكرات للاطلاع عليها وترتيب طريقة نشرها؟ فمثلما قلت، من المهم جدًّا أن يتزامن نشرها مع كشف هذا الرجل.

- سوف أقوم بإرسالها لك غدًا عن طريق البريد السريع. بعد يومين ستصلك.

- في انتظارها. إنه أمر غاية في الغرابة. بعد كل هذه السنوات، يتم كشف جرائم الإمبراطور على يد ابنة الرجل الذي ظلمه.

- ربما يمكننا أن نطلق عليها مصادفات القدر.

"أو تعويضه". قالتها بعد أن أغلقت الخط.

في غضون أيام قليلة، تحولت القضية من مجرد "تريند" على مواقع "السوشيال ميديا" إلى قضية رأي عام.

بلاغات... تهم... تحقيقات... قضايا... وكانت تتابع كل ما يحدث بشغف وتشفٍ ونشوة الانتصار. توالت الأحداث سريعة ومتلاحقة.

تحطمت القلاع الحصينة التي يحتمي بها، ووجد نفسه في العراء. هناك أقاويل بأنه أصبح غير مرغوب فيه من قبل أشخاص مهمين، ولم يكن بمقدورهم التخلص منه بسهولة، فوجدوا في هذه القضية فرصتهم؛ وخاصة أنها قضية هامة ولا يمكن إغفالها. وكل محاولاته للخروج منها كعادته مثل الشعر من العجين باءت بالفشل.

بعد أيام قليلة من إرسالها المذكرات، تلقت اتصالًا من رئيس التحرير يخبرها أنه قرأها بنفسه، ومن المؤسف حقًّا ما حدث لعائلتها. وأكد أن هذه المذكرات ستفقد جزءًا كبيرًا من أهميتها لو نشرت في حلقات يومية؛ فما جاء فيها يستحق أكثر من ذلك. يستحق أن يوضع بين دفتي غلاف يحمل صورة والدها، ويحوي بداخله جميع الأسرار، وجميع القصص والحكايا، ويكشف الظلم والمعاناة والقهر.

وأكد لها أن اكبر دور النشر ستتسابق لنشر العمل، وستكون مستعدة أن تدفع لقاء شرائها الكثير من الأموال.

- وهل تعتقد أنني من الممكن أن أتربح من وراء مذكرات دوّن فيها أبي ألمه!؟

- لا أقصد ذلك. ولكن، أعتقد أن هذا من حقك. فدار النشر ستبيعها وتربح منها.

- يمكنني التنازل عن ذلك مقابل أن تطرح في الأسواق بسعر منخفض؛ حتى يكون في متناول الجميع شراؤها وقراءتها.

- كما تريدين. وفور إغلاقي المكالمة معك سأجري اتصالاتي مع عدد من أهم دور النشر ليتم ذلك بأقصى سرعة، ولتطرح في الأسواق خلال أيام فقط. فذلك سيساعد في أن يلقى هذا الرجل عقابًا مضاعفًا.

كان يتحدث وتذهب بها الذاكرة إلى هناك، ليوم شتوي قارس البرودة، لرجل يبدو عليه أن الزمن دمره، يودعها عند محطة الحافلات، لدفتر منتفخ بأوراق مصفرة قليلًا، وهي تقلب الأوراق يومها في الحافلة، كان أبوها موجودًا بين الأوراق. رائحة تبغه عابقة فيها، نقطة عرق انزلقت من جبينه، دمعة فرت من عينيه، فاختلطتا بالحبر وشكلتا بقعة هنا وأخرى هناك. لم يكن دفترًا يحتوي على عدد من الكلمات قط، بل كان الماضي وكان الحاضر. كان في زمن آخر حياة.

بيد مرتجفة يناوله لها مؤكدًا: "احتفظي به"؛ احتفظي بسري، بألمي، بحزني، وشجاعتي. وقد حدث واحتفظت به في قعر درج بعيدًا ومنسيًّا. كانت تريد أن تخفيه، وتخفي الحياة التي عاشها، الحياة التي لم تستطِع أن تمحوها أو تبدّلها. ولكنها استطاعت أن تخرجها من مخبئها وتحررها.

نعم، هذه الأحرف التي شكلت كلمات، والكلمات التي شكلت مقاطع، والمقاطع التي شكلت نصوصًا، والنصوص التي حكت مأساة رجل آن لها أن تنحل، وتتكاثر، وتنسخ ويعاد نشرها في عدد لا حصر له من الكتب، وستكون بحوزة آلاف من القراء.

24

الإسكندرية، القرن الأول بعد الميلاد

أذيع في شرق البلاد وغربها، وطولها وعرضها، أن زوجة نائب الإمبراطور مريضة جدًّا، وطلب من جميع كهنة المعابد المصرية والإغريقية والرومانية أن تقيم الصلوات من أجل روحها وتدعو لها بالشفاء.

وبعد أيام قليلة، خرج الخبر بموتها من القصر، وتم الإعلان عن موعد موكب جنازتها.

فقد قرر زوجها أن يكون موكبًا جنائزيًّا مهيبًا يليق بزوجة نائب الإمبراطور؛ تلك المرأة المخلصة والوفية. بعث لأشهر رسامي الوجوه في المدينة، ومنحه الجزء المقسوم من اللوحة، وطلب منه أن يقوم برسم الجانب الآخر من وجهها.

تطلع الرسام إلى اللوحة واستغرب من الأمر، ولم يفهم لماذا لم يسمح له برؤية زوجته لرسمها، وتساءل عن سر هذا الجزء المفقود، فمن تراه رسمه؟ ولماذا؟ ولكنه فهم من ملامح وجه ليوناردوز التي تبدلت للحنق الشديد عندما فتح فاه قائلًا: "لكن..." بأن عليه أن يذعن للأوامر دون أن يفتح فمه بكلمة.

استخدم الفنان في رسمه أدوات غالية، وثمينة، تليق بمقام السيدة. أجود أنواع الأخشاب، وأفخم الأصباغ، واستخدم مسحوق الذهب الأصلي في إكليل الغار الذي يزين شعرها، واللازورد في العقد الذي حول عنقها، وأعاد تظليل الجانب الآخر الفقير بالأصباغ نفسها. وعندما انتهى من رسم اللوحة لصقهما معًا، وتأملها وهي على حامل اللوحات، ثم ابتسم ابتسامة رضى.

- ممتاز، ليس هناك فرق. لن يستطيع أحد اكتشاف أنهما جزءان مختلفان.

قام كبير محنطي المومياوات بتحنيط جثمان امرأة أخبروه أنها زوجة نائب الإمبراطور التي ماتت بمرض غريب أدى إلى اختناقها. لكنه لم يكن بالغباء لكي لا يعرف أن المرأة التي يقوم بتحنيطها ليست المرأة التي شاهدها مرارًا وتكرارًا في صحبة الإمبراطور في المناسبات والاحتفالات.

ولكنه لم يستطع أن يتكلم. وبالرغم من أنه لم يتكلم مثل الفنان تمامًا فقد تم التخلص منهما. أمر ليوناردوز رئيس التحقيقات بتنظيف العملية.

تم التخلص من جميع من شارك في هذه العملية؛ بالرغم أنهم لم يفهموا شيئًا، ولم يعرفوا هوية المرأة التي يتم البحث عنها. اعتقد أن بدفنه لهؤلاء الناس سيدفن ما حدث. وفي حقيقة الأمر، ما يريد التخلص منه كان ذاكرته التي تصر دائمًا على أن تذكره بما فعلته به زوجته.

في روما، أقام كاهن معبد جوبيتر الواقع على أعلى تلال روما السبعة قداسًا خاصًا لروحها. كما أرسل الإمبراطور سفيرًا عنه ليشهد موكب الجنازة. ونحرت 7 ثيران للإله أبولو؛ إله العالم السفلي لكي يستقبلها استقبالًا حسنًا عند قدومها.

في الإسكندرية خرجت الجماهير تودع سيرينا وتلقي زهور الصبار على تابوتها الذي وضع على عربة عسكرية مفتوحة يجرها ثوران لفّت حول قرونهما قطع قماش سوداء. في مقدمة الموكب، كان زوجها مع سفير الإمبراطور يلتمعان بالقرمزي والأسود والشرائط الذهبية المعقودة على صولجانيهما والتي ترمز إلى رتبتهما.

في الصف الخلفي، سار كبار كهنة المعابد المصرية والرومانية والإغريقية وهم يحملون المباخر، وكل منهم يتمتم بالأدعية الخاصة بآلهته.

ضبط الكهنة معدل خطو جليل وموقر على هدهدة الترانيم الجنائزية، وساروا به حتّى المقبرة الملكية الرومانية. وضعت في حجرة الدفن وأغلقت المقبرة على مومياء ليست لها.

44

روما 2019

وصلت اللوحة إلى المختبر، وسبقتها إلى هناك اللوحة الناقصة. عدد من أعضاء المشروع حضروا الاجتماع الذي أقيم خصّيصًا لهذا العمل، وعلى وجوههم علامات الدهشة والاستغراب: كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

والأهم من كيف هو لماذا؟ والإجابة عن هذا السؤال كانت ضربًا من المستحيل. تحمس الجميع للعمل على هذه التحفة للحصول على نتائج ربما في النهاية ستقود لحل اللغز وتفسيره أو تساعد على فهم ما حدث.

التفّ عدد من خبراء المشروع حول اللوحة، وتحدث كل منهم بانطباعه الخاص عن العمل في نطاق خبرته وتخصصه. الفكرة الأولى التي طرحت هي فصل الجزء المختلف ولصق الجزء الآخر مكانه لتكتمل اللوحة. ومؤكد، ذلك يلزمه الكثير من الخبرة والمهارة، ويجب أن يتم بحرص شديد. لذلك، وُكِّل العمل لرئيس قسم الترميم بالمتاحف الإيطالية.

ثم بعدها وزعت المهام: خبير الأخشاب عليه إجراء أبحاثه لمعرفة نوع الخشب المستخدم. فأخبرهم أنه سوف يقوم بكشط عينة من الأخشاب التي رسمت عليها اللوحة، وسيحرص على التأكد من أن الجزء الذي ستجرى عليه التجارب لم تطُله الرطوبة أو العفن.

وخبير الأصباغ عليه وضع مذيب للون، وأخذ عينات منه لتحليله لمعرفة الأصباغ التي تم استخدامها.

هي ومجموعة من مؤرّخي الفن والباحثين سيحاولون التوصل لمعرفة هوية صاحبة اللوحة من خلال خطة بحث كبيرة ومكثفة ومتعددة الأوجه والاتجاهات. الأمر مؤكد سيكون صعبًا، فهم لا يملكون أي معلومات. حتى إن الدليل الوحيد الذي ربما يقودهم الي شيء - العلامة الأرجوانية على عباءتها- هناك شكوك وراءه لأنّها في الجزء الآخر من اللوحة كانت تعقد شالها على هيئة عقدة إيزيس.

ومن غير المعقول أن تكون نبيلة رومانية أو زوجة سيناتور أو شخص مهم في الدولة وتعقد هذه العقدة التي لا تمت بصلة لهويتها. ومن هنا أيضًا طرحت علامة استفهام كبيرة، فأحدهم يصر على إثبات الهوية الرومانية لهذه المرأة، والآخر يريد أن يثبت مصريتها. وربما هذا مفتاح اللغز.

الجميع في الغرفة تختلج داخلهم مشاعر مختلفة ومتضاربة؛ حماسة ويأس، أمل وإحباط. ولكنّ اصرارهم لم يتراجع؛ فالكل سوف يبحث ويعمل. واتفقوا على أن الاجتماع القادم سيكون بعد شهر لعرض ومناقشة ما توصلوا إليه؛ على أن يبقوا على تواصل دائمًا في حلقات البحث عبر الموقع لإلكتروني الخاص بالمشروع.

وبعد شهر اجتمعوا، وكان من الواضح أن الجميع بذلوا خلاله قصارى جهدهم. وأجمل ما في الأمر عندما دخلت قاعة المختبر ووجدت اللوحة وقد اجتمع جزآها. الآن، بعد إلصاق الجزء الناقص أصبحت اللوحة حقيقية وواقعية.

إلى مائدة مستديرة جلس أعضاء اللجنة. وضعوا أمامهم دفاتر وأجهزة "اللابتوب" الخاصة بهم الموصولة بشاشة العرض، وتوالوا في عرض ما توصلوا إليه في ضوء الأبحاث والدراسات التي قاموا بها.

تحدثت في البداية مديرة المشروع:

- للتحقق من الرسم غير المرئي، أجرى القائمون على الترميم وعلماء الحفظ وأخصائيو التصوير فحصًا شاملًا وتصويرًا استعانوا فيها بتقنيات فنية غير ضارة بالعمل.

لقد قاموا بالآتي (الفحص المجهري البصري (OM) وذلك بواسطة الفحص المجهري للضوء المستقطب (PLM) وتصوير وتحويل الانعكاس (RTI) والتصوير القياسي متعدد الأطياف

(MSI)، وفلورة الأشعة السينية المحمولة (pXRF)، (XRF) ومطيافية انعكاس الألياف البصرية (FORS) ومطيافية مصفوفة الانبعاث والإثارة الفلورية (EEM) ومطيافية الأشعة تحت الحمراء والتحليل الطيفي الكتلي (GC/MS)).

وذلك كله لنتوصل بطريقة بارعة ودقيقة إلى الرسم الأصلي وكان يجب علينا فعل ذلك بصبر وتأنٍّ، ثم استخدمنا أحدث وأهم وأفضل الوسائل التي وجدنا أنها سوف تساعدنا في فصل الألوان وكشفها.

وأعتقد أننا نجحنا في ذلك، وها هي اللوحة معروضة بالكامل أمامكم. لوحة في منتهى الروعة والجمال، بل تعد واحدة من أجمل لوحات الفيوم. بناءً على الأسلوب، تم تأريخ العمل إلى حوالى القرن الأول الميلادي. وتشير السجلات إلى أن اللوحة قد اكتُشفت في إقليم الفيوم، وقد دخلت متحف "كابيتولين" في عام 1894، عندما تم شراء اللوحة من مجموعة (ثيودور جراف).

والآن يمكنكم التحدث.

تحدث خبير الألوان والصبغات:

- لقد اكتشفنا أن الفنان استخدم صبغات متنوعة منها "الأوربيمنت، والمغرة الحمراء، والجبس، والأبيض الرصاصي، والكرمة السوداء، وكان أهمها وأغربها القرطم والأزرق المصري"، وسوف أشرح ذلك بشكل مختصر ومفيد في الوقت نفسه.

استغربنا كثيرًا من الصبغة التي استعملها الفنان؛ لأنها لم تكن ضمن الألوان التي استخدمها الفنانون القدامى؛ في رسم مومياوات الفيوم. في العادة، استخدموا نبات الفوة الذي شاع في صباغة النسيج وصنع الأصباغ منذ آلاف من السنوات.

وذلك لأن الأصباغ المشتقة منه كانت متوفرة على نطاق واسع في العصور القديمة. نظرًا لأن الفوة عبارة عن صبغة عضوية، يتأثر مظهرها وتألقها بعدة عوامل مختلفة؛ بدءًا من طريقة استخلاص الصبغة وتصنيعها، والإضافات الأخرى.

المادة الوحيدة التي تظهر تألقًا مشابهًا للفوة هي نبات القرطم "العصفر"، التي تمنح اللون الأصفر والبرتقالي بتدرّجاته التي تصل إلى الأحمر الدامي. وجدنا أن الفنان قد طلى بها تحت

العينين ليمنح الوجه تألقًا ملحوظًا. وهو أسلوب معقد ويحتاج لفنان ذي خبرة كبيرة!

أما لماذا لم يستخدم الفنان نبات الفوة واستعاض عنه بالقرطم؟ فتحديدًا لا نعرف السبب. هل يمكن أن يكون أراد التمييز أم لعدم توافر الفوة في محيطه!؟

لم تكن الصبغة المستخرجة من نبات القرطم فقط مفاجأتنا، فوراء هذا العمل كان هناك الكثير من الاكتشافات التي أثبتت أن وراء رسمه أمرًا خفيًّا وخاصًّا ومميزًا.

فبالإضافة لاستخدام القرطم، استخدم أيضًا اللون" الأزرق المصري"، وهي صبغة تعتمد على بودرة النحاس الذي يتم خلطه مع أصباغ أخرى لإنشاء "الأخضر والأبيض والأرجواني والوردي والبيج الوردي والأسود والبني". وأظهرت الأبحاث التي أجراها المشاركون في المشروع أنه من النادر استخدام الأزرق المصري في رسم مومياوات الفيوم. وقد تم الكشف عن بعض القطع الأثرية ظهر فيها هذا اللون في ممفيس والعمارنة في مصر، وكوما في إيطاليا، وكوس في اليونان. وتم العثور عليها مع أصباغ وسلع أخرى في حطام السفن المتعددة.

وربما كان ذلك إشارة منه، بوضع هذا اللون المميز في سياق فني واجتماعي واقتصادي أوسع. مع منحها اهتمامًا خاصًا بقيمتها. فلو نظرنا إلى معنى اللون الأزرق في الحضارات القديمة، نجده ارتبط بالشمس والحياة والخلود في التاريخ الفرعوني. وكان يستخدم غالبًا لتصوير جسد آلهة، مثل الإله آمون، ووصف (لوريلي كوركوران) اللون الأزرق بأنه صاحب "التأثير المتلألئ" الذي "يضفي على عمل فني غير حي شعورًا من الوجود الحي". وغالبًا يشير المؤلفون إلى التقنية المتلألئة للأزرق. فاستخدام اللون الأزرق في طبقات الجلد له معنى رمزي في الأدب الكلاسيكي؛ حيث يشير غالبًا إلى الشباب أو إلى مظهر إلهي كما في الفن الفرعوني. وفي الفن الإغريقي أيضًا يصف زيوس، وبوسيدون، وآلهة أخرى بأنهم يمتلكون شعرًا ولحى زرقاء. وفي الأوديسة، غيّرت أثينا مظهر أوديسيوس عند عودته إلى إيثاكا، جاعلة شعره وجلده بلون أزرق متلألئ.

وفي هذا العمل الفني، وجدنا اللون الأزرق المصري على ملابس السيدة وإكليل الغار والشعر، ويمكننا أن نفترض أن إدراجه كان متعمدًا.

والأهم في ذلك كله هو استخدام اللون الأزرق في لون بشرة السيدة؛ وهو الأكثر إثارة للاهتمام على الإطلاق. وفي كتابه "التاريخ الطبيعي"، أخبرنا "بليني" أن صبغة تسمى "أنولاريان

وايت" كانت تستخدم لإضفاء بياض لامع على الشخصيات الأنثوية. وكان يتم تحضيرها من طباشير ممزوج مع عجينة زجاجية، وطريقة تركيبها وتأثيرها قريبة جدًّا من اللون الأزرق المصري.

وهذا يؤكد أن استخدام الفنان للون الأزرق لم يأتِ اعتباطًا أو من قبيل المصادفة، فقد أراد أن يميّز عمله، أن يمنحه شيئًا مختلفًا لا يوجد في لوحات مومياوات الفيوم، أن يجعل هذا الوجه الذي أمامنا بالرغم من مرور كل تلك السنوات على رسمه يبدو كما لو أنه رسم للتو، كما لو أن صاحبته تتمتع بالحياة والحيوية. وها هي تنظر إلينا، تشاركنا الجلسة، وتنصت لما نقوله عنها. ربما تكتم ضحكاتها من تكهناتنا عنها وعن الفنان؛ فهي وحدها تمتلك معرفة السر.

بعد أن انتهى من حديثه، قام الأعضاء بتحيته بتمتمات شكر من شفاههم.

طلب خبير الأخشاب أن يتحدث. وقبل بدء حديثه، تجرع كوب الماء تحسبًا لحديث قد يبدو طويلًا.

- بعد معركة أكتيوم عام 31 قبل الميلاد، أصبحت مصر جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. وفي القرنين الأول والثالث بعد الميلاد، كان هناك شكل جديد من التحف الجنائزية وهي "صورة المومياء"، وأصبحت شائعة للغاية في مصر. لا يقتصر الأمر على أن العديد من هذه الصور عبارة عن صور واقعية بشكل ملحوظ للأفراد، بل إنها تعكس أيضًا اندماجًا غير عادي للتفضيلات الجنائزية.

يستحضر الأسلوب الطبيعي لهذه الأعمال الرسم الإغريقي والروماني في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وتم دمجها في الممارسة التقليدية للتحنيط المصري في توابيت خشبية مزخرفة للغاية، فأصبحت تمتلك ثلاثة أنواع مختلفة من فنون أهم ثلاث حضارات.

في عام 1995، نظم المتحف البريطاني ندوة كبرى عن عادات الدفن في مصر الرومانية. وبعدها بعام، أقام المتحف معرضًا يضم صور مومياء من مصر الرومانية، وضم صور مومياء من العديد من المتاحف حول العالم، وأطلق برنامجًا للبحث العلمي لمعرفة نوع خشب بورتريه المومياءات المعروضة. هذا البرنامج نتجت عنه منشورات ودراسات أصبحت مرجعًا أساسيًّا في البحوث الدولية بعد ذلك. وشرفني أنني كنت عضوًا مشاركًا في هذا البرنامج، وفي برامج كثيرة

بعدها للبحث عن نوع خشب البورتريهات. ونظرًا لأنني حدّدت الأخشاب المصرية المحلية المستخدمة في التوابيت والتحف الجنائزية في فترات كرونولوجية سابقة. وجدت منذ بداية أبحاثي في هذا المجال التي ترجع لعام 1996، أن معظم صور المومياء مصنوعة من خشب "الجير / الزيزفون". في البداية، دعوني أخبركم أن تشريح الخشب مجال متخصص معترف به في علم النبات. ويجب أن توجد متطلبات تصنيفية دقيقة، بالإضافة إلى بروتوكولات محددة متأصلة في عملية تحديد الهوية. ولحسن الحظ، التزم مشروعنا بهذه المبادئ العلمية الصارمة، وتم تطبيقها بدقة.. فمن أجل تحديد علمي دقيق للأخشاب القديمة والتاريخية والحديثة، يعد إعداد الأقسام الثلاثة التالية إلزاميًا:

القسم العرضي (TS)، والقسم الطولي العرضي (RLS)، والقسم العرضي الطولي (TLS)

ويجب أن يتوافق تعريف الخشب بشكل صارم مع بروتوكول الرابطة الدولية لعلماء تشريح الخشب، وتصنيف السمات العددية من أجل ضمان إمكانية المقارنة العالمية للنتائج الموثوقة. وهذا يعني أن كل جنس أو نوع يتطلب التعرف على ما بين أربعين إلى ستين خاصية محددة مسبقًا، منها 90 بالمائة سمات خلوية تشريحية. ويجب عند إجراء الاختبارات التأكد من أن الخشب الذي أجريت عليه التجارب لم يتأثر بالعفن أو هجوم الحشرات أو الفطريات، ومناطق بها مسامير، أو ثقوب، أو ملصقات، أو توقيعات، أو علامات منشار أو حفر؛ أو أي تعديلات أخرى على السطح.

وقد خضع هذا العمل لاختبارات متعددة للكشف عن نوع الخشب المستخدم، ووجدنا أن الخشب المستعمل في اللوحة هو "خشب شجر التين"، أكرر التين وليس الجميز الذي اعتاد العامة من قدماء المصريين استخدامه في صناعة التوابيت.

ويرجح أن الأمر وراء ذلك يعود لسببين: الأول لأنه المتاح وقتها. والثاني لأنه أرخص من خشب أشجار الجميز. ومع ملاحظة الأدوات المستخدمة في عملية الرسم، سنجد أن الفنان استخدم أقل تكلفة ممكنة؛ ربما بسبب الظروف المتاحة أو بسبب الفقر.

اللافت للنظر أنه بتشريح الخشب الذي رسم به الجزء الآخر من اللوحة، وجدنا الكثير من التفاوت بينهما. ففي الوقت الذي رسم فيه جزء بأقل الإمكانيات الممكنة، كان هذا الجزء على

نقيضه. فالخشب المستخدم هو خشب الأرز المستورد من أوروبا، وهو نوع اعتاد استعماله علية القوم من الرومان في صناعة التوابيت أو في صناعات الأثاث.

نوع الخشب السائد في رسم مومياوات الفيوم هو خشب أشجار الزيزفون. أما خشب الأرز فلم نجده مسبقًا في أي من اللوحات؛ وذلك لندرته. وما يميز هذا النوع من الخشب هو قلة تعرضه للآفات الحشرية والعفونة والرطوبة. وهذا دليل على أن الشخصية التي رسمت من أجلها اللوحة شخصية ذات شأن، ولذلك نجد أن هذه المرأة رسمت على نوعين من الأخشاب من النادر أن يستخدما في الرسم عليهما.

الجزء الذي عثر عليه في هوارة كان أكثر احتفاظًا بخصائصه؛ وذلك لدفنه في المناخ الجاف الذي تمتاز به تربة منطقة الفيوم. بينما الجزء الآخر من نوع الخشب نفسه، تعرّض لبعض التلف؛ وذلك بسبب تربة الإسكندرية الرطبة التي استطاعت أن تؤثر على نوعية هذا الخشب الرديئة وتتلفها بسهولة. بينما الجزء الذي رسم على خشب الأرز لم يتأثر كثيرًا، ولا يزال يحتفظ بخواصه الفيزيائية. وذلك طبعًا كما ذكرنا من قبل لأنه من أجود أنواع الخشب.

تم ترميم الأجزاء التالفة من الخشب. وكما ترون، يظهر العمل وكأنه رسم للتو؛ وذلك بفضل براعة وخبرة جميع الذين شاركوا في هذا البحث.

بعد أن انتهى خبير ومؤرخ الأخشاب من المحاضرة التي وضح فيها اكتشافاته، قام الجميع بالتصفيق له بحرارة، فأجاب على تشجيعهم بأن قام وأحنى رأسه تحية لهم.

تحدث خبير مواد الغراء واللصق، وهو رجل تخطى الستين من عمره بلحية صهباء تغطي ذقنه. بعد أن ألقى نظرة على الجالسين، بدأ حديثه بصوت هادئ عميق، وكان من الواضح أنه لا يحب أن يضيع وقتًا لذلك تحدث في الموضوع مباشرة.

- عند تحليل المادة الصمغية التي لصق بها الجزآن معًا، وجدنا أن الفنان استعمل نوعًا قويًا من الغراء. عند فصله اكتشفنا أنه أكثر من نوع تم مزجها بكميات متفاوتة. والأنواع المستخدمة ونسبتها وجودتها تدل على أهمية الفنان وتميزه. وهذه النوعية من الغراء استعملت في أعمال فنية في فترات لاحقة في الفن الروماني؛ كاللوحة الجدارية "الدنيوية الأخيرة" التي رسمت على جدار كنيسة "سيستن" للفنان الإيطالي "مايكل أنجلو". لقد استعمل الفنان تركيبة الغراء نفسها التي

استعملها قبله بقرون صانع غراء اللوحة. وهذا دليل على أنها واحدة من التجارب الأولى المهمة لصناع الغراء في العالم، وتتكون من جلد البقر وجلد الأرانب وشمع العسل.

ومن الواضح طبعًا أن من قام بنزع اللوحة لم يكن فنانًا أو خبيرًا، بل هو شخص ليست له صلة بالرسم؛ فقد انتزعها بإهمال وسرعة. وربما يرجع السبب إلى أنه فعل ذلك بنية السرقة أو تقديمها كدليل على شيء ما. ولذلك استخدم سكينًا أشبه بتلك التي تستخدم في المطابخ لتقطيع اللحوم وما شابه. حتى إن حوافها لا تزال ظاهرة في الخشب، بالرغم من حنكة ومهارة صانع الغراء في إخفاء ذلك. وقد ساعدت رداءة نوع الخشب على نزع هذا الجزء بسهولة بسكين مطبخ وليس بمنشار مخصوص.

عقب الجميع على حديث مؤرخ الصمغ بتصفيق حاد.

وعندما جاء دورها:

- لقد عمل فريق البحث في تاريخ اللوحة بجد وجهد وتوصلنا لعدة أشياء. ولكننا بالطبع كنا في انتظار هذه الاكتشافات لأنها ستوجهنا بشكل أفضل. في واقع الأمر، كل ما هو مرتبط بهذا العمل معقد وغير مفهوم. على أي حال، الخيط الذي بدأنا البحث منه هو مكانة هذه المرأة في المجتمع الروماني المصري؛ فكل شيء يشير إلى أنها كانت ذات مكانة مرموقة. على الأرجح هي زوجة أوكاليوس أو سيناتور. والمكان الذي عثر فيه على المومياء، تقوم الآن هيئة الآثار المصرية بمسح طبوغرافي شامل له لمعرفة ما إذا كان هو المقبرة الملكية الرومانية التي اختفت ولم يستدل عليها حتى الآن. وبناء على شكوكنا حول مكانة السيدة، بدأنا البحث في تاريخ حكم الإمبراطورية الرومانية لمصر لمعرفة النواب الذين حكموها في توقيت رسم اللوحة الذي رجّحنا أنه في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس.

وفي عهده، كانت الأمور متوترة، وظروف الحكم تمر بفترة عصيبة. فكان النواب يتبدلون بسرعة كبيرة، وفاق عددهم عشرين نائبًا. ومع هذا العدد الكبير يصعب كشف الحقيقة. ولكننا سنحاول أن نرصد البحث في نقاط محدودة، وذلك لنستطيع أن نصل لنتيجة. على سبيل المثال، النواب الذين توفت زوجاتهم أو بناتهم خلال توليهم حكم مصر. الأمر كما ترون لن يكون سهلًا على الإطلاق، ولكن سنحاول بذل قصارى جهدنا. ولكن، بالرغم من كل ذلك، هناك شكوك لو تأكدنا منها فأعتقد أننا سنقترب بشكل كبير من حل اللغز.

أثارت كلماتها الحضور الذين بدأوا ينصتون لها باهتمام.

أعتقد أن هذه اللوحة الماثلة أمامنا من ضمن اللوحات التي رسمت لمجموعة من الأشخاص الذين يعانون من عيوب بصرية نتيجة مرض عصبي اكتشفناه بعد أن خضعت هذه المومياوات للأشعة الطبية. ولكي نتأكد من ذلك، سنعمل على فحص نوع الخشب والألوان التي استخدمها الفنان في رسم هذه المجموعة ونقارنه باللوحة. وفي حال تطابقا، فسيؤكد لنا أن هذه المرأة كانت ضمن هذه المجموعة، وأن المرض العصبي الذي أصابهم لم يكن عن طريق المصادفة قطّ، بل كان مقصودًا. مؤكد هذه المرأة تعرضت لمحاولة للنيل منها. رسم المرأة بهويتين مختلفتين يؤكد أنه كان هناك نزاع على إثبات هويتها؛ فأحدهما رسمها بهوية مصرية إغريقية، والآخر أصر على أنها نبيلة رومانية. وهذا مؤكد يرجع لأسباب سياسية.

بعد أن أنهت حديثها، تعالت الهمهمات، ثم بدأت الأسئلة والمناقشات. وفي الأخير، تحدثت مديرة المشروع:

- نحن أمام لغز محير، وكشف حقيقة هذا العمل ستقودنا لكشف الكثير من الحقائق، وستثير اهتمام الجمهور والنقاد، وستمنح المشروع الذي عملنا عليه لسنوات طويلة أهميته وقدره.

انتهى الاجتماع، واستعد الجميع للذهاب؛ يجمعون أوراقهم، يغلقون أجهزتهم، يحملون حقائبهم. تحدثوا قليلًا، تواعدوا، ألقوا التحيات وغادروا. وحدها بقيت وجهًا لوجه معها. اقتربت من اللوحة، اقتربت أكثر، تحسست وجهها بأطراف أناملها.

- ترى، ما الذي حدث لك؟ وأي حياة غريبة تلك التي عشتها؟ هل عانيت بسبب حبيب أم عدو؟ لن أستغني عنك يا عزيزتي، لا تقلقي أبدًا. عشنا أقدارًا متشابهة أفهمها تمامًا. سأحاول جاهدة كشف سرك للجميع، لأنني على يقين أن الغدر وراء ما حدث لك.

في زمن آخر، أراك فتاة جميلة تركضين بين سنابل القمح. تركضين ويتماوج شعرك خلفك. أشعة الشمس الذهبية تضيء وجهك وروحك. أراك تركضين إلى الحياة بلهفة غير مدركة ما تخبئه لك.

ثم ها أنت شابة يافعة، ترتدين الزي المصري، وتلفين حول خصرك حزامًا ذهبيًّا عريضًا. تجمعين شعرك في ضفائر ضيقة، وتقفين في خشوع أمام تمثال الإلهة إيزيس الشامخة، تلمسين قرص القمر الذي وضع بين قرنين من الذهب فوق رأسها، وتبتهلين بدعائها

أنا أم الأشياء جميعها

سيّدة العناصر

وبادئة العوالم

حاكمة ما في السماوات من فوق

وما في العالم السفلي من تحت

مركز القوّة الربانية أنا

أنا الحقيقة الكامنة وراء الآلهة والإلهات

عندي يجتمعون في شكل واحد وهيئة واحدة

بيدي أقدار أجرام السماء

وريح البحر وصمت العالم السفلي

يعبدني العالم بطرق شتّى، وتحت أسماء شتّى

أما اسمي الحقيقي فهو إيزيس،

به توجّهوا إلى بالدعاء.

أراك أيضًا في زمن آخر امرأة تمتلئ بالجمال والأنوثة. تقف على حافة باخرة ملكية، يرفرف شعارها بعلم الإمبراطورية الرومانية. تضمين عباءتك على جسدك، وتعقدين شعرك كتاج فوق رأسك. تضيئين وتبرقين بالفصوص التي تتزينين بها. تنظرين إلى الشمس هناك عبر المدى البعيد، ولسانك يلهج بتراتيل الإله رع إله الشمس:

أنت تشرق... أنت تضيء

خالق الإنسان والتاسوع الإلهي والجنوب والشمال والغرب والشرق

قدم الثناء إلى رع رب السماء

الملك فليحيا فليصح في رخاء، خالق الآلهة فاعبدوه

يسبح لك الذين في الأعالي والذين في الأعماق

لعلك ترضى عني حتى أرى جمالك

عسى أن أسير في مناكب الأرض

وليجعلني أرى قرص الشمس.

كانت ترتل معها، يتداخل صوتاهما، يتمازجان، يتحدان. شعرت أنها تسمعه، تسمع ذلك الصدى الذي يأتي من الماضي السحيق عابرًا آلاف الأعوام. تسمعه وهو يرتل، وهو يبتهل، وهو يردد: "يسبح لك الذين في الأعالي والذين في الأعماق.. لعلك ترضى عني حتى أرى جمالك.. أنت تشرق... أنت تضيء.. أنت تشرق... أنت تضيء.."

كانت تقف على بعد خطوات قليلة منها في السفينة الملكية. كانت مخلفة لها ظهرها، تراقب الأفق موجهة وجهها للشمس. اقتربت أكثر منها، أكثر، أصبحت على حافة جسدها. رائحة البخور، حفيف الثوب، مجاديف يحركها العبيد، أشرعة تخفق، تسير السفينة بسرعة في اتجاه اللا مدى.

شعاع الشمس يخترق كيانهما، يدفئ ويضيء روحيهما، ويمنحهما الحياة مجددًا تسمعها ترتل "أنت تشرق... أنت تضيء"، وترتل معها.

اقتربت منها، اقتربت أكثر، لا شيء يفصلهما، تسمع أنفاسها، تشعر بكيانها، تستشعر وجودها. اقتربت أكثر، مدت يدها تكاد تلمسها.

صوت المشرف على المبنى:

- حان وقت إغلاق المكان سيدتي.

كم بقيت على تلك الحال لا تدري. كانت هناك في حياة أخرى، حياة بعيدة، بعيدة جدًّا.

45

تعاقدت مع واحدة من أكبر دور النشر، والتي كلفت بدورها عددًا من أهم المحررين ليعملوا على تحرير الكتاب، وتنسيقه وإعداده للنشر. تم ذلك بسرعة لم تتوقعها. وفي غضون أيام، كان الكتاب يشغل أرفف المكتبات، وتم الإعلان عن طرحه، والتسويق له بشكل واسع ومكثف.

نفدت الطبعة الأولى خلال يومين فقط من توزيعه. لقيت الأحداث التي دوّنها مصطفى عبد المولى اهتمامًا كبيرًا على مختلف المستويات. وأضافت لها المقالات، والرسائل، ونسخ تحقيقات محاضر الشرطة التي أدرجها في الكتاب مصداقية كبيرة.

لذلك، تهافت على اقتنائه الصغير قبل الكبير، الجاهل قبل المثقف، غير المهتم بالشأن العام قبل المهتم. أصبحت صورة والدها "تريند" على مواقع "السوشيال ميديا"، وخبرًا رئيسًا تداولته البرامج الإخبارية والثقافية و"التوك شو".

لم تكن أي صفحة من الـ 400 صفحة التي احتواها الكتاب صفحة عادية. كل صفحة تكشف الكثير من الأسرار والخبايا. الأمر لم يكن متعلقًا بعلاء الصواف وحده، بل بالكثير من الرموز والأسماء السياسية اللامعة في ذلك الوقت. ليكشف إلى أي مدى انتشر الزيف والفساد. ومن عشنا سنوات طويلة نحترمهم، ونبجلهم، لم يعدوا عن كونهم شخصيات مزيفة، استطاعوا يخدعونا. ليس لسذاجة فينا، بل تسلط وجبروت ودهاء منهم.

في غضون أيام قليلة، أصبح مصطفى عبد المولى اسمًا يتردد على كل لسان في مشارق الوطن ومغاربه. أصبح بمثابة بطل قومي. أصبحت حكايته تثير الجميع وتشغلهم، والمعلومات التي انحصرت في عدد معين من الصفحات لم تعد تشبع فضولهم. وزاد الأمر إثارة عندما بدأت المواقع الإلكترونية والصحف الأخبارية استخدام عناوين أكثر جاذبية لزيادة الفضول: "من هو مصطفى

عبد المولى؟ الحقيقة وراء مصطفى عبد المولى، كل ما لا تعرفه عن مصطفى عبد المولى، أسرار لم تكشف في الكتاب..."

اتصلت بها دار النشر لتخبرها أن هناك الكثير من القنوات الإعلامية التي تريد التواصل معها، ومنها عدد من القنوات الشهيرة والهامة. ولكنها اعتذرت: "لقد دوّن أبي في هذا الكتاب كل شيء، ولا أملك المزيد لأضيفه".

عندما فتحت الباب في ذلك اليوم لتستلم شحنة قادمة من مصر، شحنة تضم نسخًا من كتب أبيها أرسلتها لها دار النشر كما هو متفق عليه في العقد. فتحت العبوة بلهفة كمن يفتح باب الزمن لاستقبال شخص غاب طويلًا. صورته على الغلاف مبتسمًا كما لو أنه يقف أمامها. ضمته إليها، شعرت بدفء حضنه وحنانه. لم يكن هذا الكتاب مجرد كتاب قطّ، بل كان يضج بروح أبيها وبشخصه وكيانه.

كانت ابتسامته في صورته على الغلاف تحمل زهو الانتصار. التقطت له هذه الصورة في مقتبل شبابه؛ عندما كان لا يزال محملًا بالعنفوان والأمل. كانت واحدة من بين عدد قليل جدًّا من الصور التي التقطت له واحتفظت بها لأنها أحبته فيها. عندما أرسل لها مسؤول النشر يطلب منها صورة لوالدها ليضعها على الغلاف، أرسلتها بدون تفكير. بجانب ابتسامته، كانت فيها تفاصيل جذابة. شمس شتاء تجتهد لنشر أشعتها، فتتسلل على استحياء عبر أغصان الأشجار المتشابكة، وتلقي مساحات متباينة من الضوء والظل على الطريق الذي يسير فيه، فيبدو جسده معتمًا، بينما تنير الإضاءة وجهه.

46

تواعدا على لقاء بعد أسابيع لم يلتقيا فيها. هي التي كانت في حاجة دائمًا للقائه، اليوم ما حاجتها إليه وقد عاد أبوها مجددًا؟ عاد من تحت ركام الزمن. استرد عافيته، استرد ثقة الناس فيه، وثقته في نفسه، استرد كرامته وكيانه.

لطالما كانت تعقد المقارنات بين والدها وبين رجال آخرين. تعقد المقارنات بين رجل يسير بظهر شبه منحنٍ، وبخطى بطيئة ومرتبكة، ونظرات زائغة وقلقة، رجل يتلعثم بالكلام عندما يتحدث، معتم بلا طموح، زاهد في كل شيء... تعقد مقارنات بينه وبين رجال تراهم في الشوارع، في الحي، في المدينة، في المواصلات، في الأفلام، في المسرح، داخل "فاترينات" المتاجر.

ثم يظهر هو. رجل مكتمل بكل ما ينقص أباها. عندما تشبثت به، تشبثت بالنسخة الأخرى التي تمنّته أنه يكون عليها. كلما كان يؤازرها، كلما كان يدعمها، ويساندها ويمنحها الثقة والأمان، كان يمنحها ما لم يستطِع والدها أن يمنحها إياه، فكانت تتشبث به أكثر.

وهي تتأنق للخروج للقائه، زارتها تلك الفتاة مجددًا، الفتاة المخيفة التي تصيح بها، التي تلومها، تؤنبها، تعنفها وتسبها. الفتاة التي تأتيها دائمًا، وهي في قمة سعادتها، قمة تألقها، وتعكر عليها صفوها. هذه المرة، لم تحاول أن تهرب منها كما كانت تفعل كل مرة. لم تركض منها كما كانت تركض كل مرة. أخيرا امتلكت الشجاعة لمواجهتها.

أخذت كل منهما تتطلع في لأُخْرَى، تحدق في لأُخْرَى. كانت تواجه صياحها سبابها وكرهها لها بابتسامة تملؤها الثقة

(لم أعد أعبأ بك، لم أعد حتى أهتم بتلك الذكريات البائسة التي تجلبينها لي معك، فهذه الذكريات ما عادت تمثل لي أي خجل أو ألم.

أعلم أن لومك وتأنيبك ومحاسبتك لي بسبب أني استطعت أن أتجاوز كل هذه الذكريات الأليمة وأعوض نفسي عن أيام الفقر والحرمان ومؤكد هذا لن يرضيك لأنك تريدين أن أبقي عالقة معك هناك إلى الأبد)

عندما سألتها الطبيبة النفسية هل هناك معرفة سابقة بهذه الفتاة؟ أجابت (لا) لم تخبرها الحقيقة، الحقيقة التي تعرفها تمامًا ولكنها لا تريد الاعتراف بها حتى لنفسها. لا تريد الاعتراف بأنها هي هذه الفتاة.

هي هذه الفتاة المسكينة، الفقيرة التي ظنت أنها تركتها وراءها منذ سنوات طويلة مضت ولكنها بقيت عالقة في جزء منها. وكل منهما كانت ترى الأخرى، أخرى غريبة عنها، بعيدة عنها، مختلفة عنها.

هذه الفتاة المسكينة، المنهكة، الضعيفة، كلما رأت تلك المرأة القوية، الواثقة، الثرية، تحيي مباهج الحياة وتستمتع بها، كانت تشعر بالحقد عليها، النفور منها، فتظهر لها بهذه الهيئة الرثة التي كانت عليها لتنغص عليها فرحتها وتذكرها بماضيها، تلومها وتؤنبها كيف تسمح لنفسها أن تتجاوزه.. أن تنساه!؟ وكيف استطاعت أن تنساها! تنسى هذه الفتاة التي كانت هي ذات يوم!؟

ولكنها الآن.. الآن فقط أصبح بمقدورها مواجهة الأمر. الآن فقط شعرت بالعزيمة واليقين وبالعزم على المضي قدمًا.

أخذها إلى مطعم قديم في أحد أزقة فلورنسا الضيقة. ثلاث شمعات صغيرة على المائدة تومض عبر زجاج ملون، وفي المنتصف مزهرية بها باقة من زهور الجاردانيا.

الشيف يصنع الإسباجيتي أمامهما. يخلط المقادير بملعقته الطويلة المدببة، ويقلب صوص الطماطم ويقلبها حتى تكثف وتصير سميكة. يضيف لها مجموعة من الأعشاب الطازجة. تصبح صلصة كثيفة بلمعان زيت الزيتون، ثم يضع كمية من "المكرونة" المسلوقة في أطباق عميقة، ويصب عليها الصلصة، ثم يضع فوقها القليل من مبشور جبن "البرمجيان"، وأخيرًا يجملها بعيدان الريحان ويقدمها. بالرغم من أن طريقة صنعها كانت عادية، ليس بها ابتكار، ولكنه كان أشهى طبق "إسباجيتي" تذوقته.

أخبرها:

- بك زهو جندي وصل منتصرًا لأرض الوطن، بعد خوض معركة شرسة مع عدو عنيد وعتيد.

- إنه العتق.

- العتق!؟

- نعم، أخيرًا أشعر أن روحي عتقت وتحرّرت، ولذلك أشعر بالخفة... خفة لم أشعر بها من قبل.

حك ذقنه بطرف إصبعه، ورمقها بنظرة تفيد بأنه لا يفهم شيئًا.

- ليس من المهم أن تستغرق في فهم ما أقوله، بل عليك أن تسعد من أجلي.

- أنا حقًّا سعيد من أجلك.

أخرجت الكتاب من حقيبتها وأعطته إياه. بعد أن تأمل صورة الغلاف لبرهة من الوقت:

- تشبهينه كثيرًا.

- إنه أبي.

- لا نشبه كلنا آباءنا. لقد تابعت أخباره على المواقع الإخبارية، وعلمت الكثير عن حماسته، وإصراره، وشجاعته. هذه الصفات التي أورثك إياها، إنها أعظم وأغلى بكثير من إرث المال؛ لأنها باقية وممتدة، يمكنك أن تمنحيها لأولادك، ويمنحها أولادك لأحفادك وهكذا...

- أريد أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلي، لولا مساعدتك لي في كشف هذا الرجل وهؤلاء اللصوص لم تكن ظهرت هذه المذكرات أبدًا للنور.

ودعته وذهبت، تابعها بنظره وهي تسير بخطوات واسعة وواثقة. منذ بداية اللقاء وهو يشعر أنه يجلس مع امرأة أخرى يتعرف عليها للمرة الأولى. كان من الواضح أنه من بين الأشياء التي أعتقت منها مشاعرها تجاهه. ظهر ذلك بوضوح على ملامحها، وفي طريقة حديثها معه، ومن نظراتها إليه. فقد

كانت تتصرف معه كشخص غادره الحب تجاه حبيبه، وأصبح بالنسبة له متساويًا مع الجميع، شخصًا عاديًّا يشبه ملايين الأشخاص.

هو الذي لم يحاول أن يقول لها كلمة حب واحدة. هو الذي كان كجدار منيع يسد طوفان مشاعرها تجاهه. هو الذي أمام سؤالها المتكرر "ما الذي أعنيه لك؟" لم يكن يجيب سوى بالصمت. هو الذي أخبرها مرارًا وتكرارًا أنه على وثاق متين وعلاقة قوية بشريكة حياته، الآن يشعر بالحزن. يشعر بالحسرة وبالألم. ولم يستطِع تفسير هذه المشاعر؛ أتكون بسبب فقدانه هذه الحزمة من العواطف الحميمة والدافئة التي كان حبها يمنحه إياها؟ أيعقل أن يكون بمثل هذه الأنانية!؟

هل حزنه بسبب خسارته لحبها أم لأنه أحبها حقًّا!؟ هو الذي لم يحاول أن يتعمق في تفسير إحساسه بها، كلما أمسك نفسه متلبسًا بمشاعر تجاهها كان يتجاهلها، ويحاول أن يهرب ويتهرب منها.

وهي تبتعد بخطواتها، كانت تشعر بسهام حيرته، وأسئلته، وتساؤلاته ترشق ظهرها، فكانت توسع خطواتها أكثر وتبتعد أكثر. لم تفهم كثيرًا في تحولات المشاعر التي كانت تحدث لها، ولم تحاول أن تفهم أو تقاوم. لم تحاول أن تقاوم هذا الشعور الذي بدأ يحل مكان عاطفتها تجاهه، ولم تحاول أن تغالبه أو تطرده. لم تحاول أن تزيد فتور مشاعرها بتغذيتها بأسباب تمنحها الحق في البعد عنه. وفي الوقت نفسه، لم تحاول تأجيجها بتذكر اللحظات الجميلة لهما معًا. كانت مستسلمة، تاركة الأمور تسير داخل عقلها وقلبها دون أي تدخل منها.

كيف يمكن لامرأة قاربت الثلاثين من عمرها أن تهيم برجل لاعتقادها فقط أنه فارسها المنتظر الذي سيخلصها من شرور العالم وأحقاده؟! لقد أقنعت نفسها أنه جاء إلى العالم لمساعدتها وتعويضها عن جميع ما مرت به. كان الأمر كله من وحي خيالها. كقصة حكتها لنفسها مرات ومرات حتّى صدقتها؛ معتقدة أنها بذلك ستمحو الماضي بعصا سحرية، وتجعل كل الأشياء من حولها منيرة ومتلألئة.

47

في المساء، كانت القنوات الإخبارية جميعها تذيع لحظات وصول علاء الصواف إلى المحكمة. يخرج من سيارة الشرطة محاطًا بعدد من الحراس، فيما الجماهير محتشدة أمام المبنى ترفع لافتات تدينه، وتطالب بتوقيع أعلى عقوبة عليه.

لوهلة لمحته، والدها يقف بين الجماهير، رافعًا رأسه بعزة وشموخ، ملوحًا بعلامة النصر. هزت رأسها بقوة لتؤكد لنفسها أنها مجرد أوهام لا أكثر.

لم تكن تتوقع أنها ستجلس يوما في منزلها وتشاهد محاكمة هذا الرجل، سطوته وجبروته ونفوذه كل هذا يجعل حدوثه مستحيلا. ولكن، كل شيء في هذه القصة حدث بتسلسل متقن وترابط غريب. فلولا بحثها وراء وجوه الفيوم، لما قررت أن تسافر إلى مصر، ولما التقت عن طريق المصادفة بالرجل الذي كان السبب في جميع ما حدث لها. لقد منحها القدر الفرصة لتثأر لأبيها بلقائها به. والغريب أنه منذ البداية كان هذا الرجل محور كل شيء؛ فهو من تسبب في لصق لقب بغيض بها، ولكي تنزعه عنها كان يجب أن تجتهد وتتفوق. وهو نفسه التفوق الذي منحها الخبرة الكافية لتقييم تحفته المسروقة، ومن خلالها استطاعت كشفه والإيقاع به؛ كدائرة مغلقة كان هو مركزها.

نجحت في ما فشل والدها في تحقيقه؛ بالرغم من مجاهدته وإصراره. ولكنّ كل الأشياء كانت ضده: الظروف، السياسة، وطبيعة الحياة المختلفة. في زماننا هذا، كان يكفيه أن ينشر صورة لعلاء الصواف على الإنترنت ويكتب أن أرواح من قتلوا في سقوط العقار معلقة في رقبته وهو المتسبب في دفن العشرات تحت الأنقاض. نعم، ضغطة زر واحدة كان بإمكانها أن تفعل كل شيء.

في طريقها إلى مدينتها هذه المرة كان الأمر مختلفًا. لم تعاودها مشاعر انقباض الصدر والحزن والغم التي كانت تشعر بها كلما فكرت في الذهاب إلى هناك. والطريق لم يعد كما كان ضيقًا، ملتويًا، مظلمًا، بل أصبح متسعًا ومنيرًا.

اتجهت للتلة العالية التي تقع في نهاية القرية حيث كانت أخيرًا على موعد معه. لم تزر قبره منذ موته، وحان الأوان لذلك. صفت السيارة أمام بوابة المقبرة الحديدية، وأزاحتها بيدها فأصدرت صريرًا.

راحت تسير بين شواهد القبور وهي تبحث عن اسمه. شاهدة وراء شاهدة، اسم وراء اسم. ثم كان هو يقف في استقبالها. تبادلا النظرات، فاغروقت عيناها بالدموع. وضعت باقة الزهور على شاهدة قبره، وقدمت له نسخة من الكتاب كاعتذار عن غيابها. فالسنوات التي لم تحضر فيها لزيارته كانت مشغولة عنه به. فحتى تسنح الظروف جميعها لكشف الحقيقة، استهلك ذلك الكثير من سنوات عمرها.

لا شيء سوى صفير ريح، وحفيف شجر، وتغريد عصفور حزين. في طريقها للخروج شعرت بخفة كبيرة، بالكاد كانت قدماها تحملانها على حصى الطريق. أدارت رأسها للخلف، كان هناك واقفًا في وداعها. كما في صورته على الغلاف، ثغر يفتح على شبه ابتسامة. لوحت له مرددة بما يشبه الهمس: "الآن ارقد بسلام".

تمت

إسطنبول 30 أكتوبر 2021